شدو الرّبابة بأحوال مجتمع الصّحابة

THE CONDITIONS OF COMPANIONS' SOCIETY

السّفر الثّالث

الصّحابة والمجتمع

THIRD VOLUME

THE COMPANIONS & THE SOCIETY

خليل عبد الكريم

KHALĪL 'ABD-UL- KARĪM

.٣٠

الصَّحابة والمجتمع

خليل عبد الكريم

شدو الرّبابة بأحوال مجتمع الصحابة

السّفر الثَّالث

الصّحابة والمجتمع

سينا للنشر

الطبعة الأولى ١٩٩٧

الباب الخامس

المستوى الحضاري

الباب السادس

خاتم الأسفار

المقدمة

فلق محمد ثورته المجيدة في مكة وإذ نادى بمبادئ سامية وقيم عليا ــ وكما حدث منذ بداية التاريخ قوبلت ثورته بدراسة من الطواغيت كافة: طواغيت المال والحكم والجاه.

وحايها بالتبشير بديانة جديدة في مدينة القداسة التي تموج بالعديد من العقائد المعروفة وكان من البديهي أن تُقابل (= الديانة الجديدة) بمقاومة عنيدة لأن الطاغوتية أو السلطة بأنواعها آنذاك كانت ذات صلة وثيقة بالعقيدة. ولما أيقن محمّد من عدم فلج ثورته على ملأ قريش فكر في نقل مركزها إلى الطائف ومن ثم ذهب يتحسس الأمر ولكن ووجه بسفالة وسفاهة وسوء أدب وقلة ذوق منقطعة النظير من صناديد ثقيف وكان هذا منتظراً منهم: للوشائج الحميمة التي تربطهم بـ (ملأ قريش) ولتولّههم بـ(الطاغية) صنمهم المعبود والذي ألف باء ديانة محمد بفرض هدمه ولأن مزارعهم وكرومهم وحدائقهم وبساتينهم وحيطانهم وزراعاتهم بسائر ضروبها تقوم على العبيد والأجراء المستضعفين فإذا حُرر الأولون وأُنصِف الأخيرون كما تحث عليه الثورة والديانة الجديدة معاً، إنهار اقتصادهم وتهاوت ماليتهم.

بيد أنّ محمداً كان خبيراً ماهراً لا يشق له غبار بأحوال به الجزيرة

العربية عامة والحجاز خاصة فقرر تحويل مقر القيادة إلى أثرب (سماها فيما بعد المدينة) وقد وُفق في ذلك منتهى التوفيق.

١ ــ إذْ فيها أخواله من بني النجار الذين لهم يد سابقة في الانتصار لرهطه.

٢ ــ زعماء الأوس والخزرج مختلفون بل محتربون وليسوا كمثل (ملأ قريش) أو صناديد الطائف يداً واحدة على من يعاديهم.

٣ ــ جاور الأوس والخزرج واليهود وحالفوهم واختلطوا بهم بالزواج والمصاهرة... الخ ومن ثم ترقّى وجدانهم ومستهم الحضارة ولو بقدر ضئيل فتولد لديهم استعداد لسماعه والحوار معه وهو ما قرأناه عن طلائعهم الأولى عندما التقوه بعكس غيرهم من الأفخاذ والقبائل الأجلاف.

٤ ــ قلنا إن محمداً فجّر الثورة ودعا إلى ديانة جديدة هو نبيها وفكرة النبي المنتظر أو المخلّص أو المسيّا (مسطورة) في أسفار اليهود المقدسة (التوراة) ولا مشاحة أن الأوس والخزرج (اليثاربة) سمعوها منهم وتعلموها منهم في (مدارسهم) وقرأوها في كتابهم وكانت أمراً مألوفاً لديهم، ورحب اليثاربة أن يظهر هذه المرة ــ نبي عربي ــ هم خؤولته ــ ونفّذ محمد قراره وأخذ يرسل عدداً من أتباعه المخلصين يمحصون الأحوال في يثرب وبعدها طفق يبعث أرسالاً من رجاله الأوفياء كمقدمة له وتوطئة لنزوحه، وأخيراً هاجر بنفسه ومعه أصدق جنوده أو بعد أنْ وصلته التقارير بأن الأمور على ما يُرام لحدٍ مرضٍ.

* * *

إنما على وجه القطع واليقين لم يُستقبل محمد عند قدومه يثرب بالأهازيج والزغاريد[١]. ولم تهرع الولائد والفتيات للترحيب به وهن ينشدن «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع» تلك الصورة المزوقة اصطنعها

(١) في **المعجم الوسيط** زغردت المرأة: رددت صوتها بلسانها في فمها عند الفرح.

المتأخرون من كتاب السير النبوية[٢]. وليس لها أصل وكل الأدلة تنهض لإثبات وضعها:

فأولاً: (ثنية الوداع): ثنية قرب المدينة يطؤها من يريد مكة سميت بذلك لتوديع المسافرين بها[٣]. أي أنها في الطريق من يثرب (المدينة) إلى مكة لا العكس ولعل التسمية تدل على ذلك في ثنية الوداع وليست ثنية الاستقبال.

وثانياً: في خبر الهجرة أن دليلهما (النبي (ص) وأبا بكر) سلك بهما أمج ثم الخرار ثم ثنية المرة ثم لقفاً[٤]، كذا دون أي إشارة لثنية الوداع في حين أنه ذكر ثنية المرة.

وثالثاً: في «معجم البلدان» لياقوت الحموي تعريف «المعجم الكبير» نفسه ثم (وقيل إن النبي (ص) ودّع بها بعض من خلّفه بالمدينة في آخر خرجاته أو بعض سراياه... وهو اسم قديم جاهلي سُمّي لتوديع المسافرين)[٥]. ويتضح إذن أن ياقوت الحموي لم يورد أن محمداً استُقبل عند وصوله أثرب عند ثنية الوداع ولو حدث ذلك لما فاته وليس هناك ما يدعوه لإغفاله.

رابعاً: رسم د. حسين مؤنس طريق الذي سلكه محمد من مكة إلى أثرب (المدينة) ولم يثبت فيه سوى ثنية المرة وهي تنأى عن أثرب/ المدينة ثم (ثنية العائر والشقيا) وهي وإن بعدت قليلاً عن أثرب إنما أقرب إليها من الثنية الأولى واقتصر عليهما دون

(٢) منهم رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه **نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز** وقد طُبع في مصر عدة طبعات مختلفة.

(٣) **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية، الجزء الثالث، حرفي التاء والثاء، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٥) **معجم البلدان** لياقوت الحموي، ص ٨٦، الجزء الثاني، نقلاً عن **الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية** الجزء الحادي عشر، ص ٣٦٦، تجميع د. فاطمة محجوب، الطبعة الأولى د. ت. ن. دار الغد العربي ــ مصر.

غيرها من الثنيات ولو تموضعت (ثنية الوداع) في طريق الهجرة (النزوح) لما توانى د. مؤنس عن ذكرها[٦].

خامساً: لم ترد حكاية ثنية الوداع وهرولة الصبايا لملاقاة محمد بكتب السيرة التراثية المعتمدة مثل (سيرة ابن هشام) و(السيرة الحلبية) و(السيرة النبوية لابن كثير) فضلاً عن أن قبائل العرب لا في ذلك الوقت ولا حتى الآن ليس من تقاليدها أن تُخرِج نسوانها وفتياتها وصباياها لاستقبال الضيف. هذه بعض أدلة جغرافية وتاريخية ونقلية وتقاليدية سقناها للتدليل على ما أسلفنا.

* * *

ولكن أهم منها أن واقع أثرب/ المدينة وما كان يضطرب به من تيارات ويضطرم في حناياه من صراعات ــ يقطع بوضع تلك القصة: أما الذي حدث فهو أن محمداً دخل المدينة/ يثرب تحت حراسة كثيفة من أتباعه وهم مدججون بالسلاح وأنهم حرصوا أشد الحرص على لقائه بمشارف يثرب/ المدينة وألا تطؤها قدماه إلاّ وهم يحيطون به إحاطة الأسورة بالمعصم وسيوفهم على عواتقهم، ذلك ما نقلته لنا كتب السيرة العوالي التي لها عظيم الاحترام في وجدان أمة لا إله إلاّ الله:

(... فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب (وفي رواية غيره يا بني قَيلة) هذا جَدكم (أي حظكم) الذي تنتظرون... فشار المسلمون إلى السلاح فبلغوا رسول الله (ص) بظهر الحرة... وفي لفظة: فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار)[٧]. وهذا ما ذكره ابن كثير[٨] في السيرة النبوية.

---

(٦) **أطلس تاريخ العالم الإسلامي** د. حسين مؤنس، الخريطة رقم ٣٩، ص ٦٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الزهراء للإعلام العربي ــ القاهرة.

(٧) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** الشهير **بالسيرة الحلبية** تأليف علي بن برهان الدين الحلبي ٩٧٥/ ١٠٤٤هـ ص ٢٣٢، الجزء ٢، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، الناشر: مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

(٨) **السيرة النبوية** إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ص ٢٥٠، الجزء ٢ د. ت. مطبعه عيسى البابي الحلبي بمصر.

تلك هي صورة محمد الحقيقية وهو يلج يثرب: حوله خمسمائة من أنصاره يحملون السيوف وهي التي تتفق مع الأحوال التي كانت تموج بل تغلي بها تلك القرية آنذاك. وأول ما نذكره في هذه الخصوصية ما نستخلصه من الخبر السابق من أن اليهود كانوا يراقبون بدقة شديدة وصول محمد إلى أثرب وحتى حين تراخى اليثاربة من أتباعه في الملاحظة والمتابعة ظل اليهود يقظين، عيونهم مفتوحة على آخرها ولا أدلّ على ذلك من أن أول من رمقه يهودي ونادى على اليثاربة معلناً وصوله إلى مشارف أثرب/ المدينة فإذا نحّينا يهود يثرب وما حولها جانباً ففي قلبها تجذّرت معارضة سياسية وأخرى دينية.

أما المعارضة السياسية:

فقد قادها عبد الله بن أُبيّ بن سلول (من الخزرج): عرف بالحكمة وامتاز بالتبصر وجودة الرأي وحاز الشرف واستطاع بشخصيته المؤثرة أن يجمع الأوس والخزرج تحت هيمنته وكانوا بصدد تمليكه عليهم ولو تأخر نزوح محمد بضعة أيام لصار ابن أبيّ بن سلول ملكاً عليهم فمثله لا بد أن يخاصم محمداً ويناوئه.

في حين أن المعارضة الدينية:

تزعمها: أبو عامر بن عمرو بن صيفيّ بن النعماني (من الأوس وله منزلة رفيعة في قومه وحاز الشرف والطاعة ومثّل حركة الأحناف في أثرب (ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل مثلاها في مكة) ودرس العقائد والملل السائدة في زمنه وترهب ولبس المسوح فسُمّي (الراهب) ــ ومن على شاكلته يستكبر أن ينطوي تحت ديانة محمد ــ وانتهى به الأمر إلى مفارقة يثرب ومعه بضعة عشر رجلاً من رهطه وقيل: خمسون ــ وبعد حين شارك في التحزيب والعراك العسكري ضد محمد لهذا غيّر لقبه من (الراهب إلى الفاسق) وقد أوردنا في السِفر السابق استعداد ولديْ قائديّ المعارضتين السياسة والدينية لقتلهما ولكن محمداً رفض عرضهما بشدة خاصة بالنسبة لابن أبيّ بن سلول.

الذي عرف بـ (رأس المنافقين) وهم فئة من اليثاربة تظاهروا بدخول

الإسلام ولكنهم أبطنوا غير ذلك بيد أنه مما لا يمكن إغفاله أن معارضتهم لمحمد يغلب عليها الجانب السياسي.

فقد ساءهم أن يسيطر النازحون (المهاجرون) وخاصة من قريش على مقدرات بلدهم.

(قدم رسول الله (ص) كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ــ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبيّ بن سلول العوفي ثم أحد بني الحبلى لا يختلف عليه في شرفه إثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، غيّره.

ومعه من الأوس رجل هو في قومه شريف مطاع أبو عامر عبد عمرو بن صيفيّ بن النعمان أحد بني ضبيعة وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب فشقيا بشرفهما وضرّهما.

فأما عبد الله بن أُبيّ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم فجاءهم الله تعالى برسوله (ص) وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه في الإسلام، ضغن ورأى أن رسول الله (ص) قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبوا إلاّ الإسلام دخل كارهاً مصراً على نفاق وضغن.

وأما أبو عامر فأبى إلاّ الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله (ص) فقال رسول الله (ص) كما حدثني محمد بن أبي أمامة عن بعض آل حنظلة ابن أبي عامر: لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق)[٩].

إزاء تلك الأوضاع القلقة في يثرب والتيارات الموّارة وكقائد محنّك لا ضريب له شرع محمد في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

(وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله (ص) وعم رسول الله (ص) وزيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) أخوين وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين قال ابن هشام وكان جعفر بن أبي طالب يومئذٍ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحق، وكان أبو بكر الصدّيق (رض) بن أبي قحافة وخارجة بن زهير أخو بني سالم بن عوف... ابن الخزرج أخوين وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح...

(٩) **السيرة النبوية** لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف. ص ٨، الجزء الثالث، د. ت. ن، مكتبة شقرون ــ بمصر.

وسعد بن معاذ.. أخو بني عبد الأشهل أخوين وعبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع... أخوين.

والزبير بن العوام وسلامة بن وقش أخوين ويُقال بل الزبير وعبد الله بن مسعود حليف بني زُهرة أخوين. وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخو بني النجار أخوين وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخو بني سلمة أخوين وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبيّ بن كعب بن النجار أخوين ومصعب بن عمير وأبو أيوب بن خالد أخو بني النجار... أخوين وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعبّاد بن بشر بن وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين.

وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم وحذيفة بن اليمان حليف بني عبد الأشهل أخوين وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخو بني ساعدة أخوين وحاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزي وعويم بن ساعدة أخو بني عمرو بن عوف أخوين وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخو بلحارث بن الخزرج وبلال مولى أبي بكر (رض) ومؤذن رسول الله (ص) وأبو رويحة الخثعمي أخوين)[١٠].

وقد ذكر ابن هشام أن محمداً آخى بينه وبين علي بن أبي طالب وقد استنكر ذلك ابن تيمية الحرّاني[١١].

وقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب صوراً أخرى من المؤاخاة نورد بعضاً منها:

كان رسول الله (ص) قد آخى بين خَبّاب بن الأرَتّ وبين تميم مولى خراش بن الصُمّة[١٢].

(آخى رسول الله (ص) بين أوس بن خولى الخزرجي الأنصاري وبين شجاع بن وهب الأسدي[١٣].

آخى رسول الله (ص) بين بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي وبين واقد بن عبد التميمي ــ حليف بني عديّ[١٤].

---

(١٠) **السيرة النبوية** لابن هشام، ج ٢، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣، مصدر سابق.
(١١) انظر السفر الأول **محمد والصحابة** وأيدناه في هذه الخصوصية حصراً وتحديداً لأننا انتهينا إلى أن محمداً لا نظير له ولا خطير.
(١٢) المجلد الثاني ص ٤٣٨.
(١٣) المجلد ١ ص ١١٧.
(١٤) المجلد الأول ص ١٦٧.

آخى رسول الله (ص) بين الحتات بن علقمة بن حوى المجاشعي التميمي وبين معاوية بن أبي سفيان، فمات الحتات عند معاوية في خلافته فورثه بتلك الأخوة[١٥].

آخى رسول الله (ص) بين الزبير بن العوام بن خويلد وبين عبد الله بن مسعود حين آخى بين المهاجرين بمكة فلما قدم المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين الزبير وبين سلمة بن سلامة بن وقش[١٦].

وآخى رسول الله (ص) بين زيد بن الخطاب بن نفيل العدويّ (أخي عمر بن الخطاب) وبين معن بن عديّ العجلاني حين آخى بين المهاجرين والأنصار بعد قدومه المدينة فقُتلا باليمامة شهيدين[١٧].

كان رسول الله (ص) قد آخى بين زيد بن المزين البياضي الأنصاري وبين مسطح بن أثاثة حين آخى بين المهاجرين والأنصار إذ قدموا المدينة[١٨].

وكان رسول الله (ص) قد آخى بين سالم بن معقل مولى أبي حذيفة وبين معاذ بن ماعص[١٩].

إن رسول الله (ص) آخى بين صفوان بن بيضاء ورافع بن عجلان وقتلا جميعاً في بدر ــ صفوان بن البيضاء (أمه) أبو عمرو ــ وهو ابن وهب بن ربيعة الفهري القرشي[٢٠].

كان رسول الله (ص) قد آخى بين عائذ بن ماعص بن زريق الأنصاري وبين سويط بن حرملة[٢١].

آخى رسول الله (ص) بين عبادة بن الصامت ــ الخزرجي الأنصاري وبين أبي مرثد الغنوي[٢٢].

وآخى رسول الله (ص) بين عباس بن عبادة بن نضلة الخزرجي الأنصاري وبين عثمان بن مظعون[٢٣].

---

(١٥) المجلد الأول، ص ٤١٣.
(١٦) المجلد الثاني، ص ٥١١.
(١٧) المصدر السابق، ص ٥٥٠.
(١٨) المصدر السابق، ص ٥٥٨.
(١٩) المصدر السابق، ص ٥٦٧.
(٢٠) المصدر السابق، ص ٧٢٣.
(٢١) المصدر السابق، ص ٨٠٠.
(٢٢) المصدر السابق، ص ٨٠٨.
(٢٣) المصدر السابق، ص ٨١٠.

وإذا أردنا البصر فيما أورده ابن هشام وابن عبد البر بشأن المؤاخاة فسوف نخرج بالنتائج الآتية:

١ ــ أن محمداً لم يوآخ بين الهاشميين وبين من عداهم يثاربة أو خلافهم. لأنهم بنظره أعلى من غيرهم حتى من بين بطون وأفخاذ قريش فما بالك بسواهم. فقد آخى بين حمزة عمه وزيد بن حارثة مولاه ومولى القوم منهم فكأنما آخى بين هاشمي وهاشمي آخر.

وآخى بين جعفر بن أبي طالب وبين معاذ بن جبل ولكن جعفراً لم يكن بأثرب وقتذاك بل مهاجراً في الحبشة مع آخرين إذن هي مؤاخاة (مع وقف التنفيذ) والذين اشتغلوا بالقانون يعرفون أن (وقف التنفيذ) نديد (البراءة).

٢ ــ أنه (محمداً) كان يراعى المكانة الاجتماعية في المؤاخاة فقد آخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت ومعروف أن عثمان من بني أمية وهم من ذؤابة قريش وأوس من بني النجار أخوال محمد وأحد أبرز بطون الخزرج.

وآخى بين مصعب بن عمير وأبي أيوب بن خالد من بني النجار وهما متكافئان... وآخى بين عمار بن ياسر حليف بني مخزوم وبين حذيفة بن اليمان حليف بن عبد الأشهل فالإثنان حليفان.

وآخى بين خَبّاب بن الأرَتّ وبين تميم مولى خراش بن الصمة[٢٤]. وخبّاب من المستضعفين الذين كانوا يُعذبون في مكة وكان مولى لامرأة تُسمّى أم أنمار، وتميم هو أيضاً مولى لخراش بن الصمة.

٣ ــ وكذلك نظر إلى المستوى المالي بين المتآخيين:

فقد آخى بين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع ــ وكل

(٢٤) **الاستيعاب** لابن عبد البر، ص ٤٣٨.

منهما ثري أمثل وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك وهما كذلك.

٤ ــ إنه ظل مستمراً في عقد المؤاخاة حتى وقت متآخر للغاية فقد رأيناه آخى بين معاوية والحتات بن علقمة ومعاوية من الطلقاء/ من مسلمة الفتح ــ فتح مكة أي أن المؤاخاة استمرت حتى بعد فتح مكة.

وهذا الخبر يدل بذاته أن محمداً أولى المؤاخاة شطراً من اهتمامه لما لها من أهمية وقد طرحت نتائج ملموسة وقبل الحديث عنها يجيء منطقياً رصد البواعث الدافعة لها.

الباب الأول

المؤاخاة

[Blank Page]

خطة استراتيجية

محمد والمهاجرون (النازحون) دخلوا بلداً غريباً عنهم بعض الشيء، ربما زاره بعضهم ولكن أغلبهم لم يفعل ولا شك أنهم سمعوا عن الخلافات والمعارك التي دارت بين الأوس والخزرج وعن تحالفهم مع اليهود وموالاتهم لهم وعن افتراق اليهود في ذلك فبعضهم كان مع الأوس والآخرون مع الخزرج.

كما أن من آمن بدعوة محمد لم يوضعوا بعد تحت الاختبار ونذكر في هذه الخصوصية أن محمداً لم يُخرج أحداً من اليثاربة في سرية حتى غزوه بدر الكبرى، ومرجعه أنه لم يعجم عودهم بعد والحذر والحيطة واجبان وقد امتاز محمد بهما أيما امتياز ـــ لأنه بصدد عملين من أخطر الأعمال: التبشير بديانة جديدة وإقامة دولة الجدود.

(حدثني عبد الرحمان بن عياش المخزومي عن عبد الملك بن عبيد بن سعيد بن يربوع عن سعيد بن المسيّب وعبد الرحمان بن سعيد بن يربوع:

لم يبعث رسول الله (ص) أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم

بدراً وذلك لأنهم شرطوا له أن يمنعوهم في دارهم)[١].

وإليك بعض الأمثلة:

أ ــ سرية عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ليس فيها من الأنصار أحد وهي أول راية عقدها رسول الله (ص) في الإسلام لأحد من المسلمين.

ب ــ سرية حمزة إلى سيف البحر ليس فيها أحد من الأنصار.

جـ ــ سرية سعد بن أبي وقاص في ثمانية ورهط من المهاجرين.

د ــ سرية عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي ومعه ثمانية رهط من المهاجرين[٢].

والتعليل الذي يسوقه ابن هشام من أن اليثاربة (الأنصار) شرطوا له أن يمنعوهم في دارهم تعليل منقوص إنما المسبب الفعّال هو أنهم كانوا رهن الاختيار وتحت الملاحظة وبرهانه أن محمداً لم يولِّ واحداً منهم على مدينتهم عندما كان يغادرها غازياً بل كان يولّي أحد المهاجرين كما يتضح من الثبت التالي:

١ ــ غزوة بواط استعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون.

٢ ــ غزوة العشيرة استعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد.

٣ ــ غزوة سفوان أو بدر الأولى استعمل على المدينة زيد بن حارثة.

٤ ــ غزوة بدر الكبرى استعمل عبد الله بن أم مكتوم على

(١) **السيرة النبوية** لابن هشام، المجلد الثالث، ص ١١، مصدر سابق.
(٢) المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص ١٨ إلى ٢٢.

الصلاة ثم رقّد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، صحيح أن أبا لبابة أنصاري ورد محمد له من الروحاء بتولية أمر يثرب مرجعه أن محمداً قصد بذلك عدم إشراكه في عركة بدر الكبرى وهي غزاة فاصلة لأن محمداً توجس منه شراً وقد صحّت نبوءة محمد وفراسته فيه لأنه (أبا لبابة) أبدى خيانة فظيعة للثورة وقائدها في زمن القتال وذلك في غزاة بني قريظة وقد أقر هو نفسه بالخيانة وحملت كتب السيرة المعتمدة هذا الاعتراف، إذن تولية محمد لأبي لبابة أمر يثرب إبّان معركة بدر الكبرى كان اختياراً لأهون الشرين ولا ينتصب دليلاً على ثقة محمد من الأنصار حتى ذلك الوقت إذ لم يختبرهم بما فيه الكفاية.

٥ ــ واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم.

٦ ــ في غزوة دومة الجندل استعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

٧ ــ في غزوة بني لحيان استعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

٨ ــ في غزوة بني المصطلق استعمل على المدينة غيلة بن عبد الله الليثي[٣].

ولا يُقال دفعاً لذلك أن محمداً عندما خرج لأول مرة غزوة غزاها وهي غزوة الأبواء أو غزوة ودان استعمل على المدينة سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، إذ ربما فعل ذلك ليجس نبض اليثاربة

(٣) **سيرة ابن هشام،** الجزء الثالث، ص ٢١، ٢٢، ٣٣، ١٣٥، ٢٥٨، ٢٩٧، والرابع، ص ٦، ٢٤، المصدر السابق.

وليرضيهم من ناحية أخرى فلما تبين له أن التجربة لم تأت بالثمرة المرجوة فلا بد أن الأوس غضبوا لاستعمال خزرجي ومن غير المستبعد أن يكون قد بلغه عن ابن عبادة ما ساءه فقد كانت لسعد طموحات وتطلعات كما سيتضح في صفحات قوادم انتصب الدليل أمام عينيه أن من الخطر على دولة القرشيين أن يحظى أثربي (أنصاري) بمنصب له شأنه وخطره كما أنه ليس من الحصافة ولا بعد النظر ترك أثرب (المدينة) معقل دولة قريش تحت حكم أنصاري (يثربي) ومحمد وكتيبة المهاجرين (القادمين) خارجها.

ونؤوب لسياقة الحديث فنقول:

لهذا برزت المؤاخاة كخطة استراتيجية ماهرة عميقة الغور حققت عدة أهداف:

١ ــ أن يختلط النازحون (المهاجرون) الجدد بمجتمع اليثاربة (سماهم محمد: الأنصار) وينغمسوا فيه ويطلعوا على بواطنه ويعرفوا دخائله ويعاينوا مخارجه... الخ، ونضرب مثلاً لذلك أن أبا بكر بن أبي قحافة تآخى مع خارجة بن زيد ثم تزوج ابنته. وغيره كثير فعل كذلك.

٢ ــ اليثاربة الذين تمّ التآخي بينهم وبين الوافدين يقطنون في أحياء أثرب/ المدينة المختلفة ومن ثم وبحكم المؤاخاة انتشر النازحون فيها بحيث لم يخلُ حي منهم الأمر الذي يستحيل معه على الأثاربة إحداث أي حدث دون أن يصل خبره بعد دقائق إلى قائد الثورة.

وبذلك شكّل المتآخون من الوافدين/ المهاجرين كتيبة استخبارات تنقل الهمسة الخافتة إلى مركز القيادة ليرى رأيه فيها.

٣ ــ حرص ملأ قريش على تجريد من استطاعوا تجريده ممن يغادر مكة من ماله ولذا وصل كثير من الوافدين إلى أثرب والواحد منهم لا يملك شروى نقير (معدم) ومن هنا قامت المؤاخاة بدور مؤثر في إعاشتهم في بدّى أمرهم لأن اليثاربة عُرفوا بالكرم والسخاء وقد قرأنا في موسوعات السيرة أن منهم من عرض على أخيه النازح أن ينزل له عن شطر (نصف) ماله وأن يُطلّق إحدى زوجتيه لينكحها أخوه المهاجر.

بل هناك ما هو أكثر: التوارث بين المتآخين:

وسبب المؤاخاة وفائدتها ومقصودها أنهم كانوا يتوارثون، بذلك آخى النبي (ص) بين المهاجرين والأنصار كما آخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ليعقد الصلة بين المهاجرين والأنصار حتى أنزل الله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله﴾[٤].

وانتحى السهيليّ مذهباً عاطفياً في تعليل المؤاخاة مثل رفع الوحشة وإحلال الأنس وشد الأزر ولا يُطلب من السهيليّ أكثر منه فهذا أقصى ما عنده:

آخى رسول الله (ص) بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض فلما عزّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله﴾ أعني في الميراث ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال: ﴿إنما

(٤) **منهاج السنة النبوية** لابن تيمية، ص ٩٧، المجلد الرابع، مصدر سابق.

المؤمنون أخوة﴾ يعني في التواد وشمول الدعوة)[٥].

وما يقوله السهيليّ من أن الله لما أعز الإسلام انتهى شأن الأخوة غير صحيح تاريخياً. فقد رأينا محمداً آخى بين معاوية الحتات ــ ومعاوية كما أسلفنا من مسلمة الفتح أي أن المؤاخاة ظلت سارية بعده وأي عز للإسلام قدر فتح الفتوح ــ فتح مكة؟ ــ ومن الطريف أن الحتات مات في الشام في خلافة معاوية فطالب بنصيبه في ميراثه طبقاً لمبدأ التوارث بين المتآخين ما يدل على أنه كان يرى أن آية ﴿وأولو الآرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله﴾ لم تنسخ حكم وراثة المتآخين بعضهم بعضاً؟.

خلاصة القول إذن أن المؤاخاة لعبت دوراً مؤثراً في تمويل المهاجرين أو النازحين إذ هم المستفيدون من التوارث دون الأثاربة أو الأنصار الأمر الذي يقطع بأن المؤاخاة كانت خطة موفقة غاية التوفيق تضاف إلى أدلة الثبوت المتراكمة التي تقطع بعبقرية محمد.

٤ ــ كان العرب على بكرة أبيهم يعظّمون القرشيين ويسمونهم (أهل الحرم) ويعدون الإصهار إليهم مكرمةً كذلك اعتبر الأنصار/ المؤاخاة مأثرةً نفحهم إياها محمد ومبعث فخر لهم مما رفع معنوياتهم وأسهم في دفعهم إلى بذل مزيد من الإخلاص للثورة وقائدها، وهذا ما لمسناه في الغزوات، فعلى سبيل المثال في غزاة أحد كان نصيبهم من القتل والجراحات كبيراً.

(وكان ضرار ابن الخطاب يُحدّث ويذكر وقعة أحد ويذكر

(٥) **الروض الآنف** للسهيليّ، على هامش سيرة ابن هشام، المجلد الثاني ص ٢٥٢.

الأنصار ويترحم عليهم ويذكر غناءهم في الإسلام وشجاعتهم وإقدامهم على الموت... ثم يقول: لما قتل أشراف قومي ببدر جلت أقول: من قتل أبا الحكم يقال: ابن عفراء، من قتل أبيّ بن خلف، يقال: خبيب بن يساف، من قتل عقبة ابن أبي معيط؟ قالوا: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، من قتل فلاناً فيُسمى لي، من أسر سهيل بن عمرو؟ قالوا: مالك بن الدخشم. فلما خرجنا إلى أحد وأنا أقول: إن أقاموا في صياصيهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم، نقيم أياماً ثم تنصرف وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم عدداً كثيراً أكثر من عددهم ونحن قوم موتورون خرجنا بالظعن يذكرننا قتلى بدر ومعنا كراع ولا كراع معهم ومعنا أكثر من سلاحهم فقضى لهم أن خرجوا فالتقينا فوالله ما أقمنا لهم حتى هُزمنا وانكشفنا مولّين فقلت في نفسي هذه أشد من وقعة بدر وجعلت أقول لخالد بن الوليد كر على القوم فجعل يقول: وترى وجهاً نكر فيه؟ حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرماة خالياً فقلت: أبا سليمان: انظر وراءك فعطف عنان فرسه فكر وكررنا معه فانتهينا إلى الجبل فلم نجد عليه أحداً له بل وجدنا نفراً فأصبناهم ثم دخلنا العسكر والقوم غارون ينتهبون العسكر فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا في كل وجه ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة فلا أرى أحداً قد هربوا... فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها فخالطونا ونحن فرسان فصبروا لنا وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرس فترجلت فقتلت منهم عشرة...)[٦]. هذه الصورة التي رسمها بدقة مذهلة ضرار بن الخطاب تؤيد ما سبق أن ذكرناه أن هزيمة المسلمين المنكرة في عركة أحد هو إقبالهم على جمع الغنائم من معسكر قريش بعد أن دارت الدائرة على القرشيين في بدء القتال وتصرف المسلمون كأنهم في نزهة لا في معركة ثأرية.

---

(٦) **المغازي** للواقدي، المجلد ١ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣، مصدر سابق.

٥ ــ الذي يقرأ كتب السيرة النبوية يدرك أن العلاقة بين اليثاربة واليهود لم تكن هشة ولا هزيلة ولا ضامرة بل على العكس تماماً، وهذه نقطة يحاول المؤرخون المُحدثون التعمية عليها ولا مجال هنا لضرب الأمثال على ذلك، فكان أحد قصود المؤاخاة الفعالة هو تفكيك تلك العلاقة وتوهينها وإضعافها... الخ.

٦ ــ وجد النازحون أو المهاجرون منافساً كفوءاً لهم في خدمة الدولة والدين معاً مما أفادهما جميعاً. حقيقة أن الدولة كانت للقرشيين الوافدين إنما الأنصار أو اليثربيون لطيبة قلوبهم وغلبة المزاج العاطفي والجانب الوجداني عليهم لم يدركوا ذلك إلاّ مؤخراً[٧].

وقد استعمل قائد الثورة الفذ المحنك هذه المنافسة الاستعمال الأمثل لصالح الدين والدولة. تلك كانت بعض النتائج التي حققتها المؤاخاة.

ولا يكتمل مبحث المؤاخاة إلاّ بإيراد رأي ابن تيمية فيها وهو قد انفرد به ثم نعقّب عليه بإيجاز منعاً للإطلالة والإملال.

(فإن النبي (ص) لم يؤاخ أحداً ولا آخى بين المهاجرين بعضهم من بعض ولا بين الأنصار بعضهم من بعض ولكن آخى بين المهاجرين والأنصار كما آخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمان بن عوف وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء كما ثبت ذلك في الصحيح)[٨].

---

(٧) تناولنا هذه النقطة بالدرس والتمحيص في كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** دار سيناء للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٣.

(٨) **منهاج السنة النبوية** لابن تيمية، مجلد ٢، ص ١١٩، مصدر سابق.

أما أن محمداً لم يؤاخ أحداً فهذا أمر بديهي لأن رتبته متميزة عن درجة أصحابه ولو آخاهم أو أحداً لتساوي معهم في المكانة وذاك مستحيل وكان يرفضه رفضاً باتاً وهو أحد أسباب اختيار لقب الصحابة لهؤلاء، هذا من ناحية ــ ومن ناحية أخرى لو فعله مع أحدهم أو بعضهم لما استطاع أن يهيمن عليهم ويوجههم كما يريد فيطيعوه تلك الطاعة التي قلّ أن تجد لها في التاريخ مثيلاً(٩). وعدم مؤاخاته بين المهاجرين والمهاجرين أو بتعبير ابن تيمية (بعضهم من بعض) مرده المانع الطبقي والتقاليد السائدة آنذاك ــ ولعلها إلى اليوم في بلاد العرب ــ التي لا تتصور مجرد تصور أن يتأخى عثمان بن عفان مع صعيب أو حمزة بن عبد المطلب مع عمار بن ياسر أو أبو بكر مع بلال الحبشي، فضلاً عن أنه لا فائدة تعود على المتآخين من ورائها لسوء أوضاعهم المالية بعد الهجرة. فقد رأينا في البداية ــ أن أبا بكر وعمراً كانا يضعان الأحجار على بطنيهما لإسكات الجوع وكان عليٌّ يعمل بيده أعمالاً شاقة لقاء حفنة من تمر ــ إذن أي فائدة تعود من تآخي محتاجين لا يملك أحدهما قوته وقوت عياله في اليوم. وبالمثل وقف الحاجز الطبقي دون المؤاخاة بين الأنصار والأنصار لأن في هؤلاء أثرياء أماثل كسعد بن الربيع ومن يملك الأطام كأسيد بن حضير ومن يملك الحيطان (البساتين) كأبي الدحداح، وبالمقابل من يعمل أجيراً لدى الأغنياء سوى من العرب أو اليهود، وعلة أخرى وراء حرص محمد على عدم المؤاخاة بين الأنصار بعضهم من بعض وهو ألاّ يشكّلوا (مركز قوة) في يثرب/ المدينة يغدو مصدر متاعب لدولة قريش التي طفق في إقامتها بها، وكان محمد موفقاً غاية التوفيق عندما قرر أن المؤاخاة الوحيدة التي تتم هي التي تربط بين المهاجرين والأنصار

(٩) عالجنا هذا الأمر باستفاضة في السفر الأول **محمد والصحابة** فارجع إليه.

لأنه في بدى الأمر لم يُحط علماً بالخريطة السكانية ليثرب/ المدينة ولا تعرّف بعد على نقاط الضعف والقوة بالنسبة إليه فيها ومن ثم نصب هذه المؤاخاة بين الفريقين لأنها ستغدو أحد العوامل الفاعلة في كشف الصورة الحقيقية ليثرب أمام نظره ولأنها ستتيح للمهاجرين كسر طوق العزلة التي من البديهي أنهم سيشعرون بها بعد الاستقرار في يثرب وستتيح لهم الاختلاط بالأنصار اختلاطاً عميقاً لدرجة أن بعض الأنصار (مثل سعد بن الربيع) عرض على أخيه المهاجر (عبد الرحمان بن عوف) شطر ماله وإحدى زوجتيه وأبدى استعداده لعرضهما عليه ليختار أملحهما في عينيه، كذا شجّع محمد على نكاح المهاجرين من أنصاريات (منهم عبد الرحمان بن عوف وأبو بكر) للعلة نفسها، وبشق قناة التآخي استطاع محمد أن يلمّ في وقت قصير بأحوال يثرب كافة العِرقية (القبلية) والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وخاصة تحالفات الأوس والخزرج مع اليهود ومدى ضعف أو متانة هذه العلائق وكيفية المروق إلى الثغرات التي تؤدي إلى كسرها أو توهينها... الخ.

قلنا إن ابن تيمية قد انفرد، بنفيه المؤاخاة بين المهاجرين والمهاجرين والأنصار والأنصار لأن مصادر موثوقة أوردتها مع سندها فيها منها ابن هشام في (السيرة النبوية):

(كان رسول الله (ص) قد آخى بين نفر من أصحابه من المهاجرين: بين أبي بكر وعمر وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمان بن عوف وبين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وبين أبي ذر الغفاري والمقداد بن عمر البهبداني)[١٠].

---

(١٠) **السيرة النبوية** لابن هشام، ج ٤، ص ٢٠٣، مصدر سابق.

وهو من أقدم كتب السيرة ومن أحظاها بالقبول ومن منابعها الهامة، ولكن ابن تيمية الحرّاني كان يتمتع بشخصية علمية امتازت بالاستقلالية وعدم التقليد وهو يصرّ على عدم إنجاز محمد للمؤاخاة بين المهاجرين والمهاجرين أو على حد تعبيره بين المهاجرين بعضهم من بعض أو بين الأنصار والأنصار بعضهم من بعض ويصف الأحاديث التي وردت في هذا الخصوص بالكذب أي بالوضع، والفقرة التي أوردناها فيما سبق جاءت في المجلد الثاني من كتابه (المنهاج) ومما يقطع تمسكه برأيه هذا أنه كرره في المجلد الرابع من (المنهاج) نفسه:

(إن أحاديث المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم من ببعض والأنصار بعضهم مع بعض كلها كذب والنبي (ص) لم يؤاخ عليّاً ولا آخى بين أبي بكر وعمر وبين مهاجريّ ومهاجريّ لكن آخى بين المهاجرين والأنصار كما آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء وبين علي وسهل بن حنيف وكانت المؤاخاة في دور بني النجار كما أخبر بذلك أنس في الحديث الصحيح.

... فالمؤاخاة التي أخبر بها أنس في الصحيحين عن عاصم بن سليمان الأحول قال: قلت لأنس أبلغك أن رسول الله (ص) قال لا حلف في الإسلام فقال أنس قد حالف رسول الله (ص) بين قريش والأنصار في داري)[١١].

ونحن نوافق ابن تيمية فيما ذهب إليه من نفي المؤاخاة بين المهاجرين والمهاجرين أي بين المهاجرين بعضهم من بعض وبين الأنصار والأنصار أي بين الأنصار بعضهم مع بعض لعدم الحاجة إليها وانتفاء بواعثها ولكننا نأخذ عليه إطلاق اسم الحلف على المؤاخاة للتباين بين الاسمين.

(١١) **منهاج السنّة النبوية** لابن تيمية، المجلد الرابع، ص ٧٥ ــ ٧٦، مصدر سابق.

ولموافقته على أن المؤاخاة المذكورة هي حلف بين قريش والأنصار عُقد في دار أنس بن مالك وذلك لأن:

أ ــ الفارق ظاهر لا يخفى بين المؤاخاة والحلف، فالأولى تتم بين شخصين والأخرى بين قبيلتين أو حيين أو رهطين أو فخذين... الخ. الأولى فردية والأخرى جمعية.

ب ــ أنه لم يُطلق على المسلمين النازحين أو القادمين أو المهاجرين (حتى ولو كانوا قرشيين) لفظ (قريش) بل على العكس كان يُطلق على الكفار أعداء محمد.

جـ ــ ورد في الخبر أن محمداً آخى بين عليّ وسهل بن حنيف، ومحمد لم يؤاخ بين واحدٍ من بني هاشم ــ فما بالك بأبي الحسنين ــ وبين أي عربي أنصارياً أو غيره لأنه يعتبر الهواشم أسمى ممن سواهم بما لا يقاس ولا ندري كيف فات ذلك على الحرّاني (ابن تيمية) مع أنه والحق لا بد أن يقال كان ماهراً خرّيتاً؟

د ــ كيف يُعقد (الحلف) في دار أنس بن مالك (وكان عند مقدم النبي (ص) المدينة ابن عشر سنين وقيل ابن ثمان سنين)[١٢] ومن لديه أقل مُسكة[١٣] من علم يعرف أن ابن تيمية كان صيرفياً جهبذاً في علم الحديث وله كتاب فيه[١٤].

ومع ذلك لا يلتفت إلى وضع هذا الخبر لأنه:

(١٢) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ١٠٩.
(١٣) المُسكة بضم الميم ــ البقية والأثر، من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.
(١٤) هو كتاب **علم الحديث** تحقيق وتعليق موسى محمد علي، ظهرت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، دار الكتب الإسلامية بمصر.

١ ــ من غير المعقول أن يترك محمد رؤوس الأنصار وشيوخهم ويعقد الحلف في بيت صبي لم يتجاوز عمره العاشرة.

٢ ــ أن المؤاخاة التي سماها حلفاً لم تتم دفعة واحدة وقد أثبتنا بالدليل القاطع أنها ظلت ممتدة حتى بعد فتح مكة.

٣ ــ أن أنساً لم يتملك داراً على عهد محمد فقد ظل يخدمه عشر سنوات حتى اشتهر بلقب (خادم رسول الله (ص)) وفي وقت فراغه من خدمه محمد يخدم أثرياء الأنصار (اليثاربة) يسقيهم الخمر قبل تحريمها.

(روى عن أنس قال: كنت أسقي أبا طلحة وأُبيّ بن كعب وأبا عبيدة شراباً من فضيح فأتانا آتٍ: فقال إن الخمر قد حُرّمتْ، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذا الدنان فاكسرها)[١٥].

وسيأتي الخبر بتمامه في فصلة (الصحابة والخمر والميسر).

ولم يتموّل أنس بن مالك ويحوز الثروة بأنواعها إلاّ بعد تدفق الغنائم الأسطورية التي كشطت من البلاد الموطوءة.

* * *

تلك كانت نبذة عن (المؤاخاة) بين المهاجرين (الوافدين وبين الأنصار) اليثاربة كان يتعين تناولها وتقديمها كمدخل لما سيأتي بعدها.

(١٥) **المغنى** لابن قدامة ــ المجلد الخامس ــ ص ٦٠٢ دار الغد العربي ــ بمصر.

المهاجرون والأنصار أو النازحون والمقيمون أو القادمون والمستوطنون

هل أثمرت المؤاخاة ثمرتها؟

هذا ما سوف نراه من واقع الأخبار الموثقة التي تقدمها لنا المصادر العوالي ذات الدرجة الرفيعة.

في البدء نسطر قاعدة اجتماعية لا تخر منها نقطة واحدة من الماء[١٦]. وهي أن المجتمعات لا تتغير بالخطب المؤثرة التي ترتجف منها القلوب وتسح لها العيون دمعاً سخيناً ولا بالنصائح الغالية والحكم البليغة ولا بالنوايا الحسنة... الخ ولكن بتغيير الواقع المادي خاصة للبنى التحتية ولظروفها المعاشية ولأحوالها الحياتية ولبيئتها ووسطها... الخ.

* * *

(وقال عمار بن ياسر: كان مسجد الأنصار يسلّمون فيه تسليمتين وكان مسجد المهاجرين يسلّمون فيه تسليمة واحدة)[١٧]. هذا الخبر على قصره الشديد عميق الدلالة يعطي مؤشرات بالغة الإبانة والإفصاح عن حقيقة العلاقة بين الطارئين (المهاجرين) وأصحاب البلد (الأنصار) فحتى في الصلاة وهي عمود الدين وسنامه وأول ركن عباديّ فيه وأهمه اتخذ كل فريق منهم لنفسه مسجداً يصلي فيه ولا يُقال دفعاً لذلك إن هؤلاء يقطنون في حي وأولئك يسكنون منطقة أخرى، إذ لو كان الأمر كذلك لسُمّي المسجد باسم الموقع الذي أُسس فيه مثل مسجد (قباء)، ولم يسمَّ

(١٦) في **القاموس المحيط** الخرير: صوت الريح والماء.
(١٧) **الشرح الكبير** للمقدسي على هامش **المغني** لابن قدامة، ص ٢٧ (طبع دار الغد العربي، بمصر).

باسم الفريق أو الطائفة التي تصلى فيه!

وصريح الخبر أن هؤلاء (الأنصار) يسلّمون تسليمتين وأولئك (المهاجرون) يكتفون بواحدة أي أنهم حتى في أمور التعبد الخالصة كانوا مختلفين والسؤال الذي ينتصب في الذهن:

الوافدون أو المهاجرون والمقيمون أو اليثاربة الأنصار جميعهم ألم يكونوا يرون محمداً حين يسلّم؟

فإما أنه كان يسلّم تسليمة واحدة أو اثنتين وفي كلتيهما يتعين عليهم إتباعه لأنه أمرهم أن يصلوا كما يرونه يصلي فما الذي دفعهم للاختلاف على أمر ثابت رأوه رأي العين.

بداهة نحن لا نركز على عدد التسليمات إنما نسلّط الضوء على سلوك الطرفين فكأنما كل طائفة تقول للأخرى: والله لا نتبعك حتى في أدق الأمور، ولكن لماذا لم يأمر محمد بتوحيد المسجدين أي أنْ يصلي الفريقان في المسجدين معاً أو أن يوزع وظائف كل مسجد بين الطرفين بأن يؤذن أنصاري في مسجد المهاجرين ويؤم المسلمين مهاجري في مسجد الأنصار وهكذا...

ومحمد لم يلجأ لهدم أحد المسجدين لأنه كان سيغضب الفريق الذي سيزول مسجده ولأن هدم مسجد أهل حي دليل على نفاقهم كما حدث مع بني عوف أو رهط منهم عندما شادوا مسجد الضرار.

ولكن ما دمنا قلنا إن المؤاخاة أتاحت له أن يحيط علماً بالصغيرة قبل الكبير فلِمَ لم ينه منذ البداية عن تأسيس كل فرقة منهما لمسجدها؟

الجواب عن تلك الأسئلة أنه اتسم بالحكمة والتؤدة ومعرفة دخائل النفوس وطبائع البشر والواقعية الشديدة، إذن هو إدراك أن

المؤاخاة لم تمح ما بينهما من فوارق عديدة وما تنضوي عليه جوانح كل منهما قبل الآخر فتركهما يفعلان.

وعلى كثرة ما كُتب حديثاً عن الأنصار والمهاجرين أو المقيمين والوافدين فلم يجرؤ واحد ممن ولّفها أن يذكر أنه كان لكل منهما مسجده الخالص إبّان حياة محمد نفسه وأن كل فريق منهم كان يصلي فيه صلاة تباين الآخر في بعض الفروع.

لأنهم لو سطروه لأخلّ بالصورة المزركشة المرقّشة التي يقدمونها للقراء البسطاء عن الصحبة، ولا تهم الأمانة العلمية!

إذن الافتراق بدأ مبكّراً للغاية بين المهاجرين والأنصار، ومن ثم فلا غرابة إذن أن يستمر على طوال التاريخ الإسلامي.

* * *

اختلف الفرق إلى أهل السنّة والجماعة وأهل العصمة (الشيعة) والخوارج والمذاهب الفقهية إلى قرابة عشرين مذهباً بقي منها أربعة واندثر الباقون، والمتكلمون انقسموا إلى مرجئة وجبرية وقدرية ومعتزلة وأشعرية وماتريدية وحشوية (مجسّمة)... الخ.

والحق أن الديانة الإسلامية ليست هي الوحيدة في ذلك بل سبقتها إلى التفرق والتحزب والاختلاف والتشعب والتصدع والتشرذم... الخ الديانتان السابقتان: الموسوية والعيسوية أو اليهودية والمسيحية ولقد لاحظ محمد ذلك على هاتين العقيدتين وتنبأ بحدوثه بين أتباع الديانة التي بشّر بها ولقد صدقت نبوءته.

* * *

ونستميح القارئ عذراً في أن نقفز إلى مشهد ختامي حدث إثر وفاة محمد فقد اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يوم

توفي رسول الله (ص) فأجلست سعد بن عبادة الخزرجي وعصبته بعصابة وثنت له وسادة وبلغ أبا بكر وعمر والمهاجرين فأتوا مسرعين فنحوا الناس عن سعد وأقبل أبو بكر وعمر بن الخطّاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالوا: (يا معاشر الأنصار منا رسول الله فنحن أحق بمقامه وقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر: منا الأمراء وأنتم الوزراء)[١٨]، وتلاحى الطرفان وهدد الحباب بن المنذر أحد زعماء الأنصار اليثاربة بإعلان الحرب على النازحين (المهاجرين) وقال: أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب أي أنه أهل للقتال والعراك والحرب، ولم يكن الحباب فرداً عادياً بين قومه ولا حتى بين المسلمين بل كان يمتاز بجودة الرأي وحسن المشورة وكانت السماء توافقه على رأيه.

(كان يُقال له ذو الرأي وهو الذي أشار على رسول الله (ص) أن ينزل على ماء بدر للقاء القوم، قال ابن عباس فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله (ص) فقال الرأي ما أشار به حباب)[١٩]. هذا الحباب ذو الرأي الذي نزل جبريل من السماء يستحسن رأيه كان قد انتهى إلى قرار هو الاستيلاء على مقاليد الحكم ــ بعد محمد ــ بالقوة ولكن قومه (الأنصار) لم يطيعوه ولو فعلوا لتغير تاريخ الجزيرة العربية وتاريخ المناطق المحيطة.

وبقية ما حدث في السقيفة أن اثنين من الأنصار ومن رهط سعد بن عبادة أي من الخزرج هما بشير بن سعد وأُسيد بن حضير حسدا سعد بن عبادة وساءهما أن يتولى الخلافة فوثبا يبايعان مرشح النازحين ــ المهاجرين ــ أبا بكر بن أبي قحافة وكان لـ (عقلية القطيع) أثرها الفعال إذ اندفع باقي الأنصار يقتديان بهما خاصة

---

(١٨) **تاريخ اليعقوبي** المجلد الثاني، ص ١٢٣، مصدر سابق.
(١٩) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٢١٦.

وأن بشيراً وأُسيداً كانا من وجوههم. وبهذا فاز أبو بكر والمهاجرون النازحون بالإمامة العظمى ولهذا فإن عمر بن الخطاب كثيراً ما كان يردد (أن بيعة أبي بكر كانت فلتة) ولعله كان يقصد ــ وهذا ما نرجّحه ــ إندفاع بشير وأسيد للمبايعة إذ لولا خروج هذين عما كان قد اعتزمه الأنصار ورتبوا له (لما أفلت ابن أبي قحافة) بالخلافة.

(وبايع الناس حتى جعل الرجل يطفر وسادة سعد بن عبادة حتى وطئوا سعداً وقال عمر: اقتلوا سعداً قتل الله سعداً)[٢٠].

ولم يفِ القرشيون لا ابن أبي قحافة ولا من جاء بعده بالوعد الذي قطعه أبو بكر على نفسه وهو أن يكون الوزراء من الأنصار واليثاربة، بل العكس وقع فقد نالهم التهميش والاستبعاد والحرمان وبئست جملة قالها أحد خصوم أو أعداء قريش (إنهم قوم لا يعدلون)، وعاش الأنصار الذين قامت الدولة على سيوفهم ودمائهم معزولين محرومين، ولعلهم كانوا يستغفرون لبشير وأسيد لأنهما بحسدهما وغلّهما وضنّهما على سيد الخزرج بمنصب كان هو أهله جنياً على الأنصار (اليثاربة) أشد جناية بجنيها رجلان على قبيلتهما.

وأياً كان الأمر في تقويم دور بشير وأُسيد في تقديم الخلافة لقمة سائغة لأبي بكر فإن الذي لا ريب فيه أن ما نشب بين الفريقين (النازحين وأهل البلد) من شقاق بلغ حد التهديد بسل السلاح يقطع بأن المؤاخاة لم تكن ذات أثر كبير في صهر الفريقين أو حتى دمجهما وإنْ ساعدت كثيراً في قيام دولة قريش.

وبين البداية: الصلاة في مسجد مستقل.

(٢٠) **تاريخ اليعقوبي** المجلد نفسه، ص ١٢٤.

والختام: وقائع يوم سقيفة بني سعد.

تواردت صور عديدة تعين القارئ على وزن التآخي الوزن الصحيح.

العلاقة بين المهاجرين (النازحين) والأنصار (اليثاربة) يفصح عنها أولاً بعض الأخبار التي حملت وقائع كان محمد طرفاً فيها وأنصاريّ أو جماعة من الأنصار هم الطرف الآخر، وأهميتها تكمن في أن الأنصار كانوا يكنّون لمحمد تقديراً بل تقديساً بالغاً، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من جنوده. ولا حاجة بنا إلى أن نكرر أنه لم يحظ قائد ثورة بطاعة أعوانه وإخلاصهم وتفانيهم مثل محمد، فإذا حدثت تلك النوازل معه كان ذلك دليلاً على ما كان يعتمل في نفوس الأنصار الأثاربة نحو المهاجرين/ النازحين، وهذا أمر بديهي لأن الأولين وجدوا الأخيرين قد سيطروا على بلدهم وأصبحوا سادتها:

(عن ابن الزبير (رض) أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله (ص) في شراج الحرة ــ هي مسايل الماء واحدها ــ شرجة، والحرة هي الأرض المسلة فيها حجارة سود ــ التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: شرح الماء يمر بي فأبى عليه فاختصموا عند رسول الله (ص) فقال رسول الله (ص) للزبير: اسقِ يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك (= أي شيئاً يسيراً دون قدر حقك ثم أرسله) فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله أنْ كان ابن عمتك؟ (أي حكمت له بالتقديم لأجل أنه ابن عمتك)، فتلوّن وجه النبي (ص) ثم قال: يا زبير إسق ثم أحبس الماء حتى يرجع الجدر. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد)[٢١]. وقد أورده ابن قدامة في صيغة مقاربة:

---

(٢١) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي.

(روى عبد الله بن الزبير أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة التي يسقون بها إلى النبي (ص) فقال (ص): «إسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله أنْ كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله (ص) ثم قال: إسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر. قال الزبير فوالله إني لأحسب هذه الآية نزلت فيه ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾، متفق عليه[٢٢]. وما له دلالة أن ذلك الأنصاري شهد بدراً[٢٣]. أي أنه كان بدرياً وهو لقب رفيع المستوى بين الصحابة عموماً ومن يحمله سواء كان مهاجرياً أو أنصارياً يتمتع بمكانة طيبة بين المسلمين[٢٤]. ومع ذلك أساء الأدب مع محمد ورماه بالتحيّز إلى ابن عمته الأمر الذي جعل وجهه يتلوّن.

ولكن هذا النزاع والكلمة الفالتة التي تفوه بها ذلك اليثربي/ الأنصاري لا شك أنهما يعكسان شعور أهل المدينة إزاء من زاحموهم فيها.

(عن أنس قال: قتل عكرمة بن أبي جهل صخراً بن الأنصاري فبلغ ذلك النبي (ص) فضحك، فقالت الأنصار: يا رسول الله تضحك أن قتل رجل من قومك رجلاً من قومنا؟ قال: ما ذاك أضحكني ولكنه قتله وهو معه في درجته. أورده ابن عساكر، وورد في كنز العمال)[٢٥].

(٢٢) **المغني** لابن قدامة، المجلد السادس، ص ٢٨٩، الطبعة الأولى، دار الغد العربي.
(٢٣) **أسباب النزول** للواحدي ص ١٠٩، مصدر سابق.
(٢٤) انظر السفر الأول **محمد والصحابة**.
(٢٥) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي، العدد ١٨ من الجزء الثالث، ص ٢٢٧٢، موسوعة السنّة، مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

الذي يتوجه بالخطاب في هذه النازلة إلى محمد (الأنصار) بالجمع لا بالمفرد والعبارات واضحة في التفرقة بين الفئتين = المهاجرين والأنصار فهم يقولون له (قومك) و(قومنا).

(روى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال أبو اليسر ومالك بن الدخشم العوفي وطارق بن عبيد بن مسعود الأنصاري: يا رسول الله إنك قلت: من جاء بأسير فله كذا وكذا ومن قتل قتيلاً فله كذا وكذا وقد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين؟ وقال سعد بن معاذ: يا رسول الله ما منعنا أن نفعل كما فعل هؤلاء، إلاّ أنّا كنا رداءً للمسلمين من ورائهم أن يصاب منهم عورة؛ الغنائم قليل والناس كثير فمتى تعطي الذين نفلتهم يبقى الناس لا شيء لهم وتراجعوا الكلام، فنزلت ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾، أخرجه ابن منده وأبو نعيم)[٢٦].

هذا الحديث يتناول مسألة سوف تتكرر وهي اختلاف الصحاب على الغنائم بدأت في غزوة بدر الكبرى وهي أول عراك يشترك فيه الأنصار فقد أوردنا فيما سبق أن محمداً لم يخرجهم في السرايا والغزوات قبلها. وكان محمد لا يولي سخط الأنصار كبير اهتمامه بل كان يراعي المصلحة العامة وما تحتمه من نفع فريق دون فريق وكان يعلم بداهة أن ظروف المهاجرين/ النازحين سيئة في حين أن الأنصار كانوا غير ذلك، فقد ترك المهاجرون دورهم وتجارتهم وأموالهم بينما الأنصار لم يصبهم ضر من هذا الجانب وقد اتضح ذلك جلياً عندما قسم أموال بني النضير إذ لم ينل اليثاربة/ الأنصار منها شيء إلاّ ما أخذه رجلان منهم كانا في حاجة وضُرّهما سهل بن حنيف وأبو دجانة وشيئاً من الصفيّ وهو سيف بن أبي الحقيق أعطاه لسيد الأوس سعد بن معاذ ولعل عنصر المراضاة في هذا واضح.

(٢٦) **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري، المجلد ٣، ص ٧١، مصدر سابق.

(وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً (أموال بني النضير) إلاّ رجلين كان محتاجين ــ سهل بن حنيف وأبا دجانة، وأعطى سعد بن معاذ (= سيد الأوس) سيف بن أبي الحقيق وكان سيفاً له ذكر عندهم، قالوا: وكان ممن أعطى ممن سمى لنا من المهاجرين: أبو بكر الصديق (رض) بئر حجر، وأعطى عمر بن الخطاب (رض) بئر جرم، وأعطى عبد الرحمان بن عوف سُؤالة وهو الذي يقال له ما سليم، وأعطى صهيب بن سنان الضراطة وأعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة بن عبد الأسد البويلة، وكان مال سهل بن حنيف وأبي دجانة معروفاً يقال له مال ابن خرشة ووسع رسول الله (ص) في الناس منها)[٢٧].

ولكن الذي أثار نقمة الأنصار بصورة واضحة هو ما حدث بشأن غنائم غزوة حنين (أموال هوازن) فرغم ضخامتها وأنها كانت أكبر غنائم حصل عليها المسلمون فقد حُرم منها الأنصار حرماناً تاماً ولم ينل أحد منها شيئاً البتة واقتصرت على المهاجرين والقرشيين وبعض قبائل العرب مع المؤلفة قلوبهم.

عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله (ص) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منها القالة حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال يا رسول الله: إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت: قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي...)[٢٨].

(٢٧) **كتاب المغازي** للواقدي، المجلد الأول، ص ٣٧٩ ــ ٣٨٠، تحقيق مارسدن جونز، مصدر سابق.
(٢٨) **السيرة النبوية** لابن هشام، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، الجزء ٤، صفحة ٩٧، طبعة ١٩٧٨، المكتبة التوفيقية بالأزهر.

هذا الخبر لا يخلو منه كتاب من كتب السيرة النبوية فهو إذن متواتر وقد أورده ابن قدامة مختصراً بألفاظ أخرى ولكنه على قصره تتضمن ما يمكننا أن نطلق عليه الحوار الذي دار بين محمد والأثاربة.

(وعن أنس قال: حين أفاء الله على رسوله أموال هوازن، طفق رسول الله (ص) يعطي رجالاً من قريش مائة من الإبل فقال أناس من الأنصار يغفر الله لرسول الله (ص) يعطي قريشاً ويمنعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله (ص): إني أعطي رجالاً حدثاء عهد بكفر أتألفهم ــ متفق عليه)[٢٩].

الواقعة عينها لا يماري أحد في حدوثها إذ أطبقت على سردها دواوين السيرة النبوية جميعها ووصف ابن قدامة المقدسي الحديث أنه متفق عليه. وفي الخبرين السابقين المتعلقين بها تبرز بعض الحقائق منها:

أ ــ أن عطايا محمد من أموال هوازن اختصت بها قريش وبعض قبائل من العرب وحرم منها الأنصار حرماناً كاملاً.

ب ــ أن الأنصار كثرت قالتهم في هذا الشأن ومن أبرز ما قالوه إن محمداً لقي قومه أي قبيلته قريشاً أي أنه طول مدة مكوثه في أثرب/ المدينة لم يكن في قومه، وهذا يؤكد ما قلناه إن المؤاخاة لم تصهر جناحي الإسلام المهاجرين (النازحين) والأنصار (الأثربيين).

جـ ــ أن الأنصار على بكرة أبيهم مجمعون على هذا السخط لم يشذ منهم كبير ولا صغير ولهذا لما سأل محمد سعد بن عبادة زعيم الخزرج عن مقامه من ذلك الغضب؟ أجاب إجابة لها دلالة ناطق: ما أنا إلاّ من قومي.

(٢٩) **المغني** لابن قدامة، المجلد ٧، ص ٣٨٦، الطبعة الأولى/ دار الغد العربي بمصر.

د ــ أن حواراً دار بين الأنصار ومحمد ذكروا فيه سيوفهم التي لا ينكر أحد أنها ساهمت بصورة جليّة في ترسيخ قوائم دولة قريش فردّ عليهم بأنه إنما أعطى قوماً حديثي عهد بالكفر ووكلهم إلى إيمانهم، وفعلاً أجزل محمد المنائح للمؤلفة قلوبهم وكان ذلك منتهى بعد النظر والحنكة والسياسة وأيضاً نال غيرهم من المهاجرين وخاصة القرشيين نفحات وسيعة بخلاف بعض قبائل عربية.

تلك كانت حفنة من الأخبار التي كان محمد أحد أطرافها والأنصار هم الطرف الآخر، وكان من البديهي وضعها في مفتتح فصل (المهاجرين والأنصار) وكيف كانت العلاقة بينهم وأهمية البدء بها هو وجود محمد فيها وأنه إذا كانت قد افتقرت إلى السلالة الواجبة فما بالك بالصلة بين عموم المهاجرين (القادمين أو الوافدين) وبين الأنصار (اليثاربة)؟

وهذا ما ستنطق به الأحداث التالية.

التنافس بين المهاجرين والأنصار

بداهة قبل أن نورد إشارات الاحتكاك بين الفرقتين نورد بعض الأسباب والدوافع التي حضت على التربص للآخر والوقوف له بالمرصاد، ليس من الضروري أن يصل الأمر إلى حد إمتشاق السلاح ولو أن ذلك أوشك أن يحدث في إحدى المرات لولا أن محمداً تدارك الأمر بحكمته العميقة ووأد الفتنة في مهدها بعد أن سارع إلى إطفاء فتيلها بالإضافة إلى شخصيته السيادية التي يخضع لها جميع الأصحاب دون تفرقة.

١ ــ أول الأسباب أن هناك تنافساً قديماً بين المدينة ومكة ولم يكن هناك ود واختلاط بين المكاكوة واليثاربة بعكس ما كان بين قريش وثقيف (الطائف) ولا ينهض دفعاً لذلك زواج عبد المطلب جد محمد من بني النجار فتلك كانت حادثة فردية.

٢ ــ كثيرون من الأنصار (اليثاربة) أصيبوا بالإحباط عندما تهاوى مشروع تنصيب عبد الله بن أبيّ بن سلول ملكاً على يثرب ــ وكان ذلك مبعث فخارٍ وتيهٍ لهم لو أنه تم.

٣ ــ بدلاً من ذلك تولى محمد مقاليد السلطة في يثرب التي نزعت منهم للأبد.

٤ ــ لما كان محمد يؤمن أن الدولة التي يقيمها في أثرب هي دولة قريش حُلم آبائه وجدوده فقد قصر مجلس مستشاريه (العشرة المبشّرين) بالجنة كلهم على قريش دون غيرها.

٥ ــ إن محمداً كان يعطي العمالات ذات الخطر للنازحين

وخاصة من قريش وأنه لم يكرّر تجربته مع سعد بن عبادة: حين ولاّه على المدينة/ أثرب عندما خرج لغزوة الأبواء.

مع أن الأنصار (اليثاربة) كانوا يُبلون في المعارك بلاء حسناً وفي كل عركة تضم لائحة القتلى والجرحى نسبة كبيرة منهم.

٦ ــ اليثاربة ــ الأنصار أهل زراعة: حيطان (بساتين)، كروم، ونخل وزراعات متنوعة، وكانت التجارة في المدينة/ أثرب عصبها الحساس في أيدي اليهود. ونظراً لأن القرشيين لا يشق لهم غبار في التجارة فقد أخذوا ينافسون اليهود ويزيحونهم من طريقها، وكانت بطون عديدة من الأوس والخزرج تربطهم بيهود علائق شتى: حلف، ولاء، صهر، زواج... فما أصاب يهود من وراء ذلك رسّب في نفوس الأثربيين مرارة محجوبة خفية تقع تحت السطح. وتضاعف الشعور بالخيبة عندما أجلى محمد من أجلاه وقتل من قتله من اليهود لأنهم استكبروا على الإنضواء تحت رايته. والأخبار التي أوردتها كتب السيرة عن الزفرات والحسرات التي أطلقها بعض الأثاربة/ الأنصار عند إخراج يهود وإجلائهم تقطع بذلك.

٧ ــ ولكن الذي راكم إحساس الأنصار بالانكسار هو أن النازحين بدأوا يتملكون الزراعات ــ ميدانهم الأصيل ــ فقد أقطع محمد عدداً منهم إقطاعات. ولعل الخبر الذي أوردناه في المفتتح عن اشتباك الزبير بن العوام مع أنصاري بدريّ (شهد غزاة بدر الكبرى) إثر اختلافهم على طريقة الري يؤكد تملك النازحين/ القادمين للأراضي ودخولهم

في تنافس مع المستوطنين أهل البلد في نشاطهم الاقتصادي الأول وعماد معيشتهم.

٨ ــ أحاديث محمد تأتي في المرتبة التالية لـ (القرآن) يتقبلها المسلمون بالتقديس والتجلة والاحترام ويصدقونها ويعملون بها، لأن الله قرن طاعته بطاعة محمد ولقد صدرت عدة أحاديث تنص على تفضيل قريش على سائر الناس عرباً وعجماً.

ضرورة تقديم قريش

(قال رسول الله (ص) قدموا قريشاً ولا تقدموها) رواه الشافعي والبيهقي في المعرفة عن ابن شهاب بلاغاً وابن عدي عن أبي هريرة والبزار عن علي والطبراني عن عبد الله السائب بأسانيد صحيحة كما في الجامع الصغير، وهذا الحديث صريح في ضرورة تقديم قريش في كل الأمور من إمامة الصلاة (الإمامة الصغرى) حتى الخلافة (الإمامة الكبرى)[٣٠].

وهذه ثلاثة أحاديث أخرى في المعنى نفسه:

(عن علي (رض) أن النبي (ص) قال فيما أعلم: قدموا قريشاً ولا تقدموها، لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله عزَّ وجل) أخرجه الطبراني.

وعن عائشة (رض) أن النبي (ص) دخل عليها فقال: لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله)، أخرجه أحمد ورجاله الصحيح كما قال الهيثمي.

و(عن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله (ص) اطلبوا أو قال التمسوا

---

(٣٠) **المغني**، لابن قدامة، مجلد ٢ ص ٢٥٧.

الأمانة في قريش فإن الأمين من قريش له فضل على أمين من سواهم وأن قوي قريش له فضلان على قوي من سواهم) رواه الطبراني في الأوسط[٣١].

وهناك أحاديث أخرى سوف يأتي ذكرها في مواضعها. وكان لا يُسمح لأي واحد من الصحابة أن يقع في قريش أي يسبّها وإذا تجرأ أحدهم وأقدم على ذلك زبره (زجره) زبراً شديداً):

(عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده أنه وقع في قريش فكأنه نال منهم فقال النبي (ص): مهلاً يا قتادة لا تسبّن قريشاً فإنه يوشك أن ترى منهم رجالاً تزدري عملك مع أعمالهم وفعلك مع أفعالهم، لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بما لها عند الله، ورد هذا الحديث في مجمع الزوائد ــ كتاب المناقب ــ وفي المعجم الكبير للطبراني وفي مسند الشافعي)[٣٢].

ومما يقطع بصحة الحديث أنه ورد في دواوين أخرى للسنة بهذه الرواية:

(عن محمد إبراهيم التيمي أن قتادة بن النعمان الظفري (رض) وقع بقريش كأنه نال منهم فقال رسول الله (ص): يا قتادة لا تسبّن قريشاً فإنك لعلك أن ترى منهم رجالاً يزدرى عملك مع أعمالهم وفعلك مع أفعالهم وتغبطهم إذا رأيتهم، لولا أن تطغى قريش لأخبرتهم بالذي لهم عند الله.

رواه أحمد مرسلاً ومسنداً وأحال لفظ المسند على المرسل، والبزار كذلك والطبراني مسنداً ورجال البزار في المسند رجال الصحيح[٣٣].

---

(٣١) نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي، المجلد ٢، ص ٢٤٢.
(٣٢) **جمع الجوامع أو الجامع** الكبير للسيوطي، العدد ٢٤، ص ٢٩٧٤، الطبعة الأولى مجمع البحوث الإسلامية، بمصر.
(٣٣) نقلاً عن **حياة الصحابة** الجزء الثاني، ص ٢٤١، مصدر سابق.

وقتادة بن النعمان أوسي أنصاري ولم يكن قليل الشأن أو حديث عهد بالإسلام بل كان له تاريخ مجيد في نصرة الدين ودولة قريش فهو (شهد بدراً والمشاهد كلها وأصيبت عينه يوم بدر وقيل يوم الخندق وقيل يوم أحد فسالت حدقتها فأرادوا قطعها ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فدفع حدقته بيده حتى وضعها موضعها ثم غمزها براحته وقال اللهمّ أكسها جمالاً فجاءت وإنها لأحسن عينيه وما مرضت بعده... وكانت معه يوم الفتح (فتح مكة) راية بني ظفر)[٣٤]. ولما توفي صلى عليه عمر بن الخطاب ونزل في قبره أبو سعيد الخدري وهو أخوه لأمه (رض)[٣٥]. هذا الصحابي صاحب الصفحة الحافلة بالمآثر والذي أثبت نهاية الإخلاص لم يمنع ذلك محمداً من أن يعنّفه عندما تطاول على قريش، والذي لا شك فيه أن الأنصار (اليثاربة) تقبلوا أحاديث محمد في تقديم قريش على العين والرأس لقداسة أقواله ولكن من ناحية أخرى فإنهم في نهاية المطاف بشر نفسوا على قريش المكانة التي نفحتها الأحاديث إياها.

* * *

بعد ذكر الأسباب نأتي ببعض الوقائع كأمثلة لتأكيد ما نذهب إليه:

ونبدأ بأشدها نكراً تلك التي حدثت في غزوة بني المصطلق وبدأت بين مندوب المهاجرين (النازحين) والأنصار (اليثاربة المقيمين) باقتتال بينهما، ثم إن كلاً منهما نادى على فرقته وذاك ما تعودا عليه منذ قديم وبعد أن يُهرع الفريقان تلبية للهيعة ــ يلتحمان في عركة شرسة ــ وقد انتهز رأس المعارضة السياسية أو رأس المنافقين الفرصة ونفّس عن مكنون ذاته وعزم على صف أتباعه

(٣٤) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر، ص ١٢٧٦، من المجلد الثالث، مصدر سابق.
(٣٥) مصدر سابق والصفحة نفسها.

وتجييشهم لطرد النازحين من بلدهم بعد عودتهم. وأدرك عمر بن الخطاب الوزير الثاني لمحمد وأحد أكابر مستشاريه خطورة وعيد عبد الله بن أبيّ بن سلول فطلب من محمد أن يصفيه جسدياً على يد واحد من الأوس حتى تظهر التصفية بمظهر تمرد داخلي بين الأوسيين والخزرجيين ولا شأن للوافدين بها ولكي يعجزوا عن المطالبة بدمه لأنه قتيل قومه بني قيلة. وكان اختيار أحد أبناء الأوس قمة الدهو من ابن الخطاب ولكن محمداً القائد المحنك المتمرس بعيد النظر لم يقتنع بتلك الحجج وعرف على الفور لا على التراخي أن قتل المرشح السابق للجلوس على عرش أثرب سيجر متاعب لا يعلمها إلاّ الله وسيثمر نتائج مرائر وعمد إلى حل عملي واقعي وهو صدور أمره بالرحيل في التو والساعة حتى ينشغل الناس وينسوا ما حدث وذلك ما وقع بالفعل فماتت الفتنة في مهدها:

(جهجاه الغفاري شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة وكان قد شهد مع رسول الله (ص) غزوة المريسيع وكان يوم إذن أجيراً لعمر بن الخطاب، وقع بينه وبين سنان بن وبرة الجهني في تلك الغزاة شر فنادى جهجاه الغفاري يا للمهاجرين ونادى سنان: يا للأنصار (سنان كان حليفاً لبني عوف بن الخزرج) فكان ذلك سبب قول عبد الله بن أبيّ بن سلول في تلك الغزوة: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[٣٦].

ويصور لنا ابن هشام الواقعة بشيء من التفصيل:

(فبينا رسول الله (ص) على ذلك الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ويقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن خزرج على

(٣٦) **الاستيعاب** لابن عبد البر ــ المجلد الأول ــ ص ٢٦٨ ــ سابق.

الماء فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبّي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم غلام حدث فقال أوفعلوها، قد نافرونا وكاثرونا والله ما عدنا وجلابيب قريش إلاّ كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع بذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله (ص) وذلك عند فراغ رسول الله (ص) من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله فقال له رسول الله (ص): فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن أذّن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (ص) يرتحل فيها فارتحل الناس[٣٧].

ولا نعلم احتكاكاً بين المهاجرين (الوافدين) والأنصار (أهل البلد المقيمين) أشد منه، ولولا حكمة محمد وصبره لرفعوا السيوف في وجوه بعضهم بعضاً ولا يستهولّن قارئ ذلك ويصيح كيف يفعلون ذلك؟

والإجابة عن ذلك حاضرة فقد رفع ثلاثة من القرشيين المبشرين بالجنة السيوف وحاربوا بعضهم بعضاً حرباً شرسة.

* * *

إن أبلغ ما يصف شعور اليثاربة (الأنصار) نحو النازحين (المهاجرين) ويصور نوعاً آخر من الاحتكاك وهو ما يمكن أن نسميه «الاحتكاك القولي».

(٣٧) **السيرة النبوية** لابن هشام، ج ٤، ص ٧، مصدر سابق.

هو صنيع حسان بن ثابت الأنصاري، فقد انتهز فرصة إذن محمد له بهجاء قريش وتصريحه له بأن روح القدس يؤيده فهرول يهجو قريشاً هجاءً فاحشاً خرج في أكثره عن الحدود حتى إن ابن هشام ذكر بأنه ترك أبياتاً من القصيدة (لأنه أقذع فيها).

في الوقت عينه أخذ فيه يمدح الأنصار ويفخر بأياديهم البيضاء:

لما رأى بدراً تسيل جلاهة بكتيبة خضـــراء بلخـــزرج

طفق يهجو قريشاً فيقول على سبيل المثال:

وقريش تفرّ منـــا لـــو إذا أن يقيموا وخف منها الحلوم
وتركنا في قريش عــورة يوم بـــدرٍ وأحـــاديث المثـــل

وفي حق هند (أم معاوية) وزوج أبي سفيان لما مثلت بحمزة بن عبد المطلب في عركة أحد قال:

أشرت لكـــاع وكان عادتها لزاماً إذا أشـــرت مع الكفر

فهو يصف هند بنت عتبة زوجة سيد قريش كما قال عنه أبو بكر كما سيتضح فيما نورده بعد باللؤم والحمق وأفن الرأي... الخ.

ولم يكتف حسان بذلك إذ يقول ابن هشام: (وهذا البيت في أبيات تركناها وأبيات أيضاً على الدال وأبيات أخرى على الذال لأنه أقذع فيها) ولا شك أنه تناول فيها من هند ما لا يجوز تناوله ولقد منع أدب ابن هشام إثباته في كتابه.

وفي فتح مكة هجا كبير مكة وقائدها أبا سفيان هجاءً شديداً نورد منه على سبيل المثال هذين البيتين:

ألا بلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء
أن سيوفنا عبداً وعبد الدار سادتها الإماء[٣٨]

(٣٨) **السيرة النبوية** لابن هشام، مصدر سابق.

إن وصف حسان لأبي سفيان بأنه عبد وعبد دار سادتها الإماء ينم عن مكنون نفوس الأنصار نحو القرشيين عموماً الذين كانوا عماد المهاجرين في المدينة/ أثرب ولا يُقال دفعاً لذلك إن أبا سفيان كان قائد عسكر الكفر فذلك مردود عليه بأنه أسلم ومحمد والمسلمون في طريقهم إلى مدينة القداسة مكة أي قبل فتحها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه في المعارك يُعامل القائد المنكسر معاملة تليق بمقامه ويُخاطب بلهجة تناسب قدره، أما أن يوصف بأنه عبد في دار تسودها الإماء فهذا لا ينبعث إلاّ من صدر مأزوم منطو على قدر وفير من الأحاسيس الضغنة والمشاعر المبغضة والعواطف الحاقدة، وكان الشاعر في ذلك يعبر عن قومه ويتكلم بلسانهم.

* * *

وكما كان فتح مكة مناسبة لجلد قريش والنيل منها في شعر ابن ثابت الأنصاري وإن حاول أن يخفي ذلك بتوجيه الهجاء إلى أبي سفيان بن حرب وغيره من صناديدها، فإن زعيماً من زعماء اليثاربة الأنصار وسيداً من ساداتهم هو سعد بن عبادة رأس الخزارجة صرح ولم يجمجم وأفصح ولم يُلغز وأعلن ولم يسرّ عن شعوره نحو قريش:

قال ابن اسحق: فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة فسمعها رجل من المهاجرين، قال ابن هشام هو عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله: اسمع ما قال سعد بن عبادة ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها[٣٩].

(٣٩) **السيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الرابع، ص ٩١، مصدر سابق.

والخبر متفق عليه، لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب السيرة النبوية، ولكن رواية أخرى تقول إن محمداً أخذ منه الراية وأعطاها لابنه قيس.

ولم يكن عمر بن الخطاب هو الذي تولاه الفزع وركبه الهلع وغشيه الهول مما فاه به ابن عبادة بل عدد من المسلمين ومن كبارهم على وجه الحصر وجميعهم كانوا يفرقون من أن هناك مؤامرة دبرها الأنصار بليل من وراء ظهر المهاجرين لجعل فتح مكة ملحمة يستحل فيها اليثاربة حرمات مكة والمكيين والمكيات، والتقط محمد الشفرة بذكائه اللماح وفطنته البالغة وكيسه التام فأمر بنزع الراية وإعطائها لعلي في رواية ولابنه قيس ي رواية أخرى. ومعلوم أن عزل القائد يوقع في صفوف جنوده الربك ويدخل عليهم البلبلة ويصيبهم بالخلخلة وهكذا أخفقت مؤامرة الملحمة[٤٠]، التي كان قد دبرها اليثاربة بقيادة سعد بن عبادة وذلك بفضل يقظة الجنود وفطانة القائد، ويستحيل أن تكون العبارات التي استخدمها أو تلفظ بها رأس المؤامرة سعد بن عبادة قد جاءت اعتباطاً أو من قبيل الإنشاء والخطابة فبعد أن صرح أنها ستغدو حرباً شديدة أو ملحمة أعلن أن فيها (تستحل الحرمة)[٤١].

إذن المؤامرة كانت تستهدف مكة كبلد وأهلها القرشيين ولا حاجة بنا إلى القول إن الأنصار بذلك كانوا يودون الثأر من البلد لِما أصاب قريتهم أثرب من وقوع في أيدي النازحين إليها ومن القرشيين الكفار انتقاماً من الوافدين القرشيين الذين احتلوا وطنهم، ولقائل أن يقول ولكن لو كانت هناك مؤامرة دبرها الأنصار لشفاء

(٤٠) في **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية، الملحمة هي الحرب الشديدة.
(٤١) **الحرمة**: ما لا يصح انتهاكه وحرمة الرجل أهله **مختار الصحاح** للرازي.

صدورهم فكيف يجوز في منطق العقل أن يصرح بها زعيمهم علانية وعلى رؤوس الأشهاد؟

والجواب عليه:

سبق أن كررنا أن الأنصار تغلب عليهم العاطفة ويسيطر عليهم الوجد[٤٢]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد أخذت النشوة على سعد بن عبادة كل أقطار نفسه وهو يدخل مشارف مكة التي انطلق منها النازحون الذين قاسموهم كل شيء، فلم يتمكن من كبح جماح لسانه فأفلتت منه تلك العبارات.

ومن حق أي باحث أو قارئ بأن يشكك في التدبير لتلك المؤامرة إنما لا يستطيع أن يماري في معرفة القرشيين التامة بشعور الأنصار، نحوهم ولذلك ورغم وصية محمد بهم وتشديده عليها فإن القرشيين حرموهم وهمّشوهم وذيّلوهم (جعلوهم ذيولاً) وهذا واضح لكل ذي عينين لكل قارئ للتاريخ الإسلامي منذ خلافة الأربعة حتى اندثار الدولة العباسية. بيد أن الحقيقة الثابتة التي لا يجادل فيها إلاّ جحود ولا ينكرها إلاّ غشوم هي أن دولة قريش تأسست بنسبة كبيرة على سيوف الأنصار، وظلم القرشيين للأنصار الذي بدأ إثر وفاة محمد وانتقاله للرفيق الأعلى راضياً مرضياً، من النقاط المضبّبة والجوانب المعتمة والقسمات المحجوبة التي يفر من بحثها وينأى عن تمحيصها ويتجنب درسها المحدثون نظراً لدقتها وحساسيتها وحروجتها ولعلنا بتسطير هذه الكلمات نفتح الباب إلى ضرورة تناولها.

* * *

(٤٢) **الوجد:** ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع ــ باب الواو ــ من كتاب **التعريفات** للسيد الشريف الجرجاني ــ سابق.

وبداهة لم ينفرد زعيم الخزرج بذلك الإحساس قبل القرشيين بل شاطره فيه سعد بن معاذ كبير الأوس، وإذ أن كليهما يعبر عن حيّة أو رهطه فمعنى ذلك إجماع الحيين وقد بدأ مع سيد الأوس مبكراً منذ الفجر والفواتيح الأولى وقد انكشف في غزاة بدر الكبرى فعندما أسر المسلمون عدداً كبيراً من القرشيين من شتى البطون من بني هاشم وبني المطلب وبني نوفل بن عبد مناف وبني شمس بن عبد مناف وبني عبد الدار وبني مخزوم... الخ صمم على قتلهم جميعاً وأشار على محمد بذلك وألا يقبل من أحدهم فداء:

(كان سعد بن معاذ يقول: اقتل ولا تأخذ الفداء)[٤٣]. أي أنه رأى أن يوقع محمد بالقرشيين ملحمة مصغرة وقد وهِمَ لأن محمداً اشتهر بالرحمة البالغة كما أن أولئك الأسارى كانوا قرابته الحميمة؛ بيد أن الحديث الذي أورده البخاري ومسلم وهما أصح الكتب بعد القرآن دليل دامغ لا يقبل المماراة ولا تطوله المجادلة ولا يقاربه التهوين على أن نفوس الأوسيين وفي مقدمتهم زعيمهم سعد بن معاذ كانت مشحونة بعواطف جياشة من البغض والكراهية والمقت ــ وهذا هو نصه:

(أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن عائشة (رض) قالت أُصيب سعد (رض) يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة في الأكحل... فلما حكم في بني قريظة أن يقتل المقاتلة وتُسبى النساء والذرية وأن تُقسم أموالهم قال: اللهم... إن كان بقي من حرب قريش شيء، فابقني لهم حتى أجاهدهم فيك).

وورد في جمع الفوائد ج ٢، ص ٥٢[٤٤]. في غزوة الخندق

---

(٤٣) **المغازي** للواقدي، المجلد ١، ص ١١٠.
(٤٤) نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، ج ٣، ص ٧٩.

أُصيب سعد بن معاذ في الأكحل وحكم في بني قريظة بقتل المقاتلة وسبي النسوان والذراري وقسم الأموال ــ بعدها بقليل انتقض الجرح وتوفي ــ في تلك اللحظات التي يكون المرء فيها في آخر مراحل دنياه ويطل على الآخرة التي يسأل الله فيها التوبة والمغفرة دعا ابن معاذ ربه بدلاً من ذلك أن يبقيه ليحارب قريشاً؟

والسؤال الذي يثور في الذهن وله مغزاه العميق لماذا خصّ قريشاً بالذكر دون غيرها من القبائل أو البطون أو الأفخاذ التي كانت تعادي المسلمين وتتحزب ضدهم وتحاربهم على سبيل المثال في الغزوة التي استشهد فيها واشتركت فيها عدة قبائل.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة والحرث بن عوف المري من بني مرة ومسعود بن دخيلة فيمن تابعه من أشجع فلما سمع بهم رسول الله (ص) بما جمعوا له من الأمر ضرب على المدينة الخندق[٤٥].

أليس تخصيصه قريشاً على وجه التحديد ودعاؤه الله أن يبرئه من جراحه ويطيل عمره لكي يحاربها... ما يقطع بأن له ولسائر الأنصار موقفاً محدوداً مشوباً بالبغضاء ومليئاً بالحقد وممزوجاً بالكراهية لقريش والقرشيين!

فأي مقت كان يحبسه في صدره تجاه القرشيين النازحين لأثرب وغير النازحين، ولكن الله العادل قدر بواعث تلك العاطفة وغفر له وأدخله الجنة إذ أن محمداً وصف المناديل الناعمة الرقيقة التي سوف يحظى بها في الجنة وأن عرشه تعالى اهتز لموته وأن كتيبة ضخمة من الملائكة نزلت تشيعه وتسيره في جنازته، وهو شرف لم يحظ به كثيرون من مشاهير الصحاب، إن الله يغفر

(٤٥) **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** لابن سيد الناس.

ويتجاوز ويعفو ولكن الإنسان بعكس ذلك لا ينسى ثأره حتى وهو يغرغر بل يدعو ربه أن يطيل في أجله حتى يدرك ثأره ويبرد ناره ويشفي صدره!

* * *

وهناك موقف اشترك فيه زعيما الأوس والخزرج السعدان:

ذلك أن الأحزاب تحالفت على الهجوم على أثرب/ المدينة، قاعدة ثورة محمد ومستقر الدولة وكان لليهود يد يسد في تأليبهم وكان من بين تلك القبائل غطفان فراودها محمد في شخص زعيمها الأحمق المطاع عيينة بن حصن على أن لهم ثلث ثمار أثرب/ المدينة في حال انصرافهم وكان هدفه خلخلة تحالف الأحزاب إذ إن باقي القبائل عندما تراها قد انصرفت ستراجع نفسها وترحل هي بدورها، وكُتب العقد ولكنه لم يمضه بعد.

(فأرسل رسول الله (ص) إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة دون سائر الأنصار لأنهما سيّدا قوميهما، كان سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج فشاورهما في ذلك فقالا يا رسول الله إن كنت أمرت بشيء فافعله وامض له وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلاّ السيف)[٤٦].

وبقية الخبر أن الاتفاق لم يتم ولم ينفذ، إن موقف السعدين واضح فهما يعلمان أن الأحزاب تآزرت ضد دولة القرشيين التي أقيمت في بلدهم، وأن رحيل غطفان وما يجره من تخذيل وتفكيك بين العدو سوف يعود بالنفع في المقام الأول على تلك الدولة في حين، أن الأنصار هم الذين سيسددون الثمن ويدفعون فاتورة الحساب: ثلث ثمار المدينة أي ثلث أموالهم هم ــ ولذلك سأل الزعيمان محمداً بمنتهى الأدب: أهو رأي السماء، أم رأي ارتآه؟ فلما علما أن السماء لم تتدخل ولم تقضِ بشيء

(٤٦) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٥٩٧، مصدر سابق.

رفضا العرض وأشارا بالقتال لأن القتال لن يكون من نصيب الأنصار/ الأثاربة وحدهم بل سيشارك فيه المهاجرون/ الوافدون.

ومن فضل القول أن نضيف أن وراء الرفض المشترك: الأحاسيس التي ذكرنا، وفي هذه الخصوصية وهي رفض إعطاء ثمرة واحدة من ثمر أثرب/ المدينة لأعداء محمد ودولة قريش حتى يكفوا أذاهم، كان موقف السعدين معبراً عن رأي اليثاربة الأنصار صغيرهم وكبيرهم:

(حدثنا عطارد قال: جاء عامر بن الطفيل وزيد إلى رسول الله (ص) فسألاه أن يجعل لهما نصيباً من تمر المدينة فأخذ أسيد بن حضير الرمح فجعل يقرع رؤسها ويقول أخرجا أيها الهجرسان، فقال عامر: من أنت؟ قال: أنا أسيد بن حضير، قال حضير الكتائب؟ قال: نعم، قال كان أبوك خيراً منك، قال: بل أنا خير منك ومن أبي، مات أبي وهو كافر، فقلت للأصمعي: ما الهجرس؟ قال: الثعلب)[٤٧].

* * *

لم يحتكر ذلك الإحساس زعيما الأثاربة/ الأنصار ومثقفوهم[٤٨].

بل شمل القاعدة العريضة أيضاً فالأولون مجرد رموز، وترجم الأنصار الأثربيون مشاعرهم إلى صور متباينة: فمرة نراه في الانصراف إلى أعمالهم وترك أمور الدين ومشاغل الدولة إلى النوازح:

(عن البراء رضي الله عنه قال: ليس كلنا سمع حديث رسول الله (ص) كانت لنا ضيعة وأشغال ولكن الناس كانوا لا يكذبون يومئذٍ فيحدث الشاهد الغائب)[٤٩].

---

(٤٧) **الاستيعاب** مجلد ١ ص ٩٤، لابن عبد البر.
(٤٨) كان الشعراء في ذاك الوقت الغابر فرعاً متميزاً من طبقة الانتلجنسيا.
(٤٩) أخرجه الحاكم في **المستدرك** وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(وعن البراء قال: ما كل الحديث سمعناه من رسول الله (ص) كان يحدثنا أصحابنا وكنا مشتغلين في رعاية الإبل. أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث وأحمد ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي وأخرجه أبو نعيم كما في الكنز)[٥٠].

وما يقدمه البراء تعليلاً لتقصيرهم في سماع الأحاديث وحفظها ونقلها إلى الغير وهو أن لهم أشغالاً وضيعة غير مقنع إذ لا يوجد عمل يشغل صاحبه ٢٤ ساعة في اليوم على مدار السنة.

وتارة أخرى يتشكل ذلك الشعور نحو النازحين ليثرب، المهاجرين بهيئة مغايرة ولكنها شديدة الإفصاح وهو عدم الخروج في الغزوات:

فقد تخلّف عن غزوة تبوك من الأنصار/ اليثاربة دون أدنى عذرهم.

١ ــ كعب بن مالك أخو بن سلمة.

٢ ــ مرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف

٣ ــ هلال بن أمية أخو بني واقف

وهناك رابع تخلف بعض الوقت ثم لحق بهم في الطريق وهو:

٤ ــ أبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف[٥١].

وتبوك آخر غزاة غزاها محمد بنفسه وهي ثأرية أراد بها محمد أن يثأر مما أصاب جيشه في (مؤتة) وفيها إعلان مباشر للداخل والخارج أنه بعد فتح مكة أصبح سيد الجزيرة بلا منازع وإشارة واضحة أن دولة قريش في مكنتها أن تناطح ما يحيط بها وأنها

(٥٠) **حياة الصحابة** للكاندهلوي، ج ٣، ص ١٤١.
(٥١) **السيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الرابع، ص ١٧٥، مصدر سابق.

ستفرشح[٥٢]، رجليها إحداهما ترفس دولة الروم والأخرى تدوس مملكة آل ساسان، ولذا أصر محمد على القيام بها رغم الحر الشديد وجدب العام وأوان بُدوّ أول الثمر وظهور تباشيره، وصرح بقصده في الغزو بخلاف ما كان يفعله في السوابق من الغزوات **(وكان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج غازياً إلاّ ورّى بغيره إلاّ غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس لبعد المسافة ونقطة المال وقوة العدو والمقصود إليه)**[٥٣]. ونحن لا نتكلم عن: الجد بن قيس من بني سلمة ولا عن مجموعة بئر جاسوم الذين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الخروج مع محمد[٥٤]. لأن كل هؤلاء تصنفهم كتب السيرة في خانة المنافقين ومن ثم فلا موضع لهم في كتابنا هذا بأسفاره الثلاثة، ولو أننا نرى أن موضوع النفاق والمنافقين يحتاج هو أيضاً لدراسة موضوعية معمقة.

ونعود لسياقة الكلام:

قد ينبرى فلحاس[٥٥]، فيعترض إذا كان قد تخلّف عن محمد من الأنصار/ الأثاربة ثلاثة وتردد الرابع فقد نفر معه فيها المئات ونرد عليه، نحن لم نقل إن الأنصار الأثربيين تمردوا على محمد لا في المنشط ولا في المكره ولم نذكر كلمة التمرد لا بنصها ولا بمعناها إذ لو تخلفوا جميعهم لكان ذلك تمرداً ـــ هذه واحدة ـــ أما الأخرى، فإننا أكدنا مراراً وتكراراً أن أحاسيس الأنصار (اليثاربة)

---

(٥٢) في **المعجم الوسيط فرشح:** باعد ما بين رجليه.

(٥٣) **الدرر في اختصار المغازي والسير** لابن عبد البر تعليق د. مصطفى ديب البغا، ص ٢٨٦، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

(٥٤) الصفحة نفسها من المصدر نفسه.

(٥٥) **الفلحاس:** السمج وتفلحس تطفل من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، والعامة في مصر تقول فلحوص.

كانت مستورة ومحجوبة ومخفية ومدفونة في الصدور والضلوع ولو تخلفوا جميعهم لكان ذلك إظهاراً لعواطفهم وإعلاناً لأحاسيسهم وإبانة لشعورهم وهذا ما لم نقل به على الإطلاق.

والثالثة، هل يجيء من باب المصادفة البحتة أن الثلاثة الذين خُلّفوا (دعك من الرابع المتردد) كلهم من الأنصار وليس فيهم واحد من المهاجرين (النازحين من مكة)؟

أما الرابعة والأخيرة، فهي أن هذه التصرفات الفردية أبلغ في تعبيرها عن المشاعر الحبيسة لأنها تظهر في أوقات متباينة ومن أشخاص مختلفين ومن الرجال والنسوان معاً وفي مناسبات متغايرة، الأمر الذي يؤكد وجودها. ولعل مما يفصح عن حقيقة علاقة المهاجرين/ النازحين لأثرب بالمقيمين أنه عندما تلا محمد آيات قرآنية فيها صفح عن الثلاثة الذين خُلّفوا اندفع الناس يهنئونهم باستثناء المهاجرين فلم يقدم على ذلك واحد منهم سوى طلحة بن عبيد الله، هذا ما حكاه أحد الخوالف وهو كعب بن مالك (ووالله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره)[٥٦]. وهذا الخبر على إيجازه فهو بليغ المعنى ودليل ثبوت على أن العلاقة بين الفريقين كانت واهية واهنة بل متوترة لأن الثلاثة المخلّفين مروا بمحنة قاسية وتعرضوا لعقاب معنوي صارم وهو مقاطعة الناس جميعاً لهم، حتى زوجاتهم، أفبعد أن تتكرم السماء بالسماح عنهم لا يتقدم أي مهاجريّ فرد، سوى طلحة لتهنئتهم، فهل بعد ذلك نفور متبادل وود مفقود وبغض مكتوم أكثر من هذا؟

* * *

وحتى عندما كان الأثاربة الأنصار يخرجون في غزاة مع محمد

(٥٦) **السيرة النبوية** لابن هشام ص ١٨٤، الجزء الرابع.

تندّ عنهم تصرفات تشف عما يعتمل في حشاياهم من تفاعلات لا يجدون لها منفذاً بإتيان نهي صريح:

عندما وصل جيش محمد إلى حِجر ثمود أمر (لا يخرجن منكم أحد الليلة إلاّ معه مصاحب له، ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله (ص) إلاّ أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعير له)[٥٧].

ولعل مما له دلالة في هذا الخبر أن اللذين خالفا أمر الخروج هما من بني ساعدة الذين عقد الأنصار في سقيفتهم إثر وفاة محمد، اجتماعاً حاشداً لتنصيب سعد بن عبادة للمسلمين.

واجه محمد مشكلة (المغيبات) وهن زوجات العسكر الخارجين في الغزوات والسرايا والمهمات الخاصة[٥٨].

ومن بين ما اتخذه من إجراءات لحلها ورفع آثارها من نفوس أفراد جيشه هو إصدار نواهٍ صريحة بعدم طروق الزوجات أي الدخول عليهن ليلاً حتى لا يُفاجأ المجند العائد بزوجته في موقف يكدّر خاطره، ولكن أنصارياً، وهو ليس الوحيد بالقطع، هو عبد الله بن رواحة خالف النهي إذ قدم على أهله ليلاً فوجدها تنام وبجوارها شخص فجرد سيفه ليقتلهما فإذا بالنائم بجوارها ماشطتها[٥٩]. وأخرج عبد الرزاق في مصنفه الخبر عينه ولكنه ذكر أن التي كانت

---

(٥٧) **السيرة النبوية** الجزء الرابع، ص ١٧٦، مصدر سابق.

(٥٨) تناولنا هذه المشكلة بالدراسة التحليلية في كتابنا **العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب في العهدين المحمدي والخليفي** دار سينا للنشر.

(٥٩) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** أو **السيرة الشامية** للصالحي الشامي، ص ٥٠٠، الجزء الرابع، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

بجوار امرأة ابن رواحة هي أختها[٦٠].

كذلك أخرجه أحمد في مسنده عن طريق أبي سلمة عن عبد الله بن رواحة ولكنه ذكر أن المرأة التي وجدت مع زوجته كانت ماشطتها وليست أختها وهذا الحديث أقوى وأقرب إلى السبب من حديث عبد الرزاق[٦١].

ومن هذه المصادر يبين أن الخبر قوي وليس واهياً وعبد الله بن رواحة كان من مشاهير الأنصار وكان شاعراً نافح بشعره عن الدين والدولة، ولكنه نفّس عن أحاسيسه المكتومة في باطن صدره بمخالفته نهي طروق الزوجة ليلاً وسبق أن أسلفنا أنه لم يكن الوحيد في ذلك:

(.. عن عبد الرحمن بن حرملة قال: لما نزل رسول الله (ص) بالمعرّس أمر منادياً فنادى: لا تطرقوا النساء قال: فتعجل رجلان فكلاهما وجد مع امرأته رجلاً، فذكر ذلك للنبي (ص) فقال: قد نهيئكم أن تطرقوا النساء، أورده عبد الرزاق في مصنفه، والمعرّس: موضع النزول بالليل من الفائق في غريب الحديث)[٦٢].

ونختم بتفصيل ما دار بين الأنصار والمهاجرين في سقيفة بن ساعدة ــ عقب وفاة محمد فقد انعقد عزم بني قيلة على تولية سعد بن عبادة زعيم الخزرج خليفة واجتمعوا فيها للتداول والتشاور

(٦٠) **البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف** لابن حمزة الحسيني الحمزة الدمشقي تحقيق الشيخ الحسيني هاشم، الجزء ٣، ص ١٣٦، الحديث رقم ١١٨٤. د. ت. ن مكتبة مصر، القاهرة.
(٦١) **أسباب ورود الحديث** أو **اللمع في أسباب الحديث** للسيوطي تحقيق الشيخ يحيى إسماعيل، ص ٢٤٧، الحديث ١٦٢، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر.
(٦٢) **المصدر السابق**، ص ٢٤٦.

ووصلت الأخبار إلى عمر الذي سارع إلى إبلاغ أبي بكر فرد عليه بأنه مشغول في جهاز محمد فألحّ عليه فأفهمه أن الأمر جد خطير فتوجها إليهم وفي الطريق صحبهما أبو عبيدة بن الجراح وهناك دارت حوارات بين الفريقين تقطع بذاتها أن صدورهم كانت معبأة بالشحناء المتبادلة.

فبعد خطبة سعد بن معاذ ورد أبي بكر عليه (قام الحباب بن المنذر فقال يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدر الناس إلاّ عن رأيكم، أنتم أهل العزّ والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة ذوو اليأس والنجدة)[٦٣].

كلمات المنذر بن الحباب واضحة المعنى ظاهرة الدلالة فهو أفصح ولم يجمجم أنه إذا لم يذعن المهاجرون لقرارهم بتولية سعد بن عبادة فسيلزمونهم ذلك بالبأس، كيف لا وهم أهل العدد والمنعة والتجربة... الخ.

فلما دفع عمر بن الخطاب كلامه بأن العرب لا ترضى إلاّ بقريش معدن النبوة أجابه الحباب مخاطباً الأنصار لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد. وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن بدين، أنا جُذيلها المحكّك وعُذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنّها جذعة فقال عمر: إذن يقتلك الله، قال: بل إياك يقتل[٦٤].

هكذا توعد الحباب النازحين بإجلائهم عن أثرب/ المدينة كما

(٦٣) **تاريخ الطبري** أو **تاريخ الرسل والملوك**، لأبي جعفر بن محمد بن جرير الطبري، ٢٢٤ ــ ٣١٠هـ ص ٢٢، الجزء ٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، دار المعارف بمصر.
(٦٤) المصدر السابق، ص ٢٢١.

أجلى محمد يهوداً، إذا لم يذعنوا لمشيئة أصحاب البلد ويرضخوا لإرادتهم في تنصيب ابن عبادة خليفة وأنذر بإشعال نار الحرب بألفاظ تتوقد غضباً كأنها شرر النار وتبادل هو وابن الخطاب الدعاء بالقتل وقد أزاحت ألفاظ الحباب الستار عما يستكن في حنايا الضلوع من إحن وبغض للنازحين الذين زاحموهم في قريتهم، ولا عبرة بمسلك بشير بن سعد الذي سارع لمبايعة ابن أبي قحافة، فقد دفعته لذلك الغيرة من ابن عمه لكيلا يفوز بالإمارة ويظل هو من الرعية أو السوقة أو الدهماء، فعملة بشير بن سعد لا تعبر عن شعور الأثاربة العرب بل هي بادرة شاذ فاذة، ولم يكن موقف الحباب هو الفريق في الإبانة عن مشاعر بني قيلة، بل إن ما قاله وفعله زعيم الخزرج بل زعيم اليثاربة العرب، ابن عبادة، ينتصب دليل ثبوت على شدة ضغنهم نحو النازحين (المهاجرين):

إذ بعد أن تمت البيعة لابن أبي قحافة (فقال ناس من أصحاب سعد اتقوا سعداً ولا تطئوه فقال عمر: اقتلوه قتله الله ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك (تزال عن موضعها) فأخذ سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة (أسنان تظهر وقت الضحك). أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعتَ مني في أخطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك (يدخلكم المضايق) أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع. وترك أياماً ثم بعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي ونبلي وأخضب سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي)[٦٥].

هكذا وبكل حزم وصلابة وبعبارات ملتهبة أعلن زعيم الأنصار

(٦٥) المصدر السابق، ص ٢٢٢.

عما كان مستوراً وكشف ما كان محجوباً وأظهر ما كان مخبوءاً من عواطف بني قيلة (أوسهم وخزرجهم) تلقاء القادمين لبلدهم (المهاجرين) وظل سعد بن عبادة ممتنعاً عن المبايعة زمن ابن أبي قحافة وابن الخطاب لا يصلّي بصلاتهما ولا يحج بحجهما. وأخيراً ترك مسقط رأسه ونزح إلى الشام وكانت غلطة فادحة كلفته حياته إذ قُتل هناك بطريقة غامضة، وحتى لا يستثار قومه نسبوا إلى الجن قتله وكانت حكايا الجن والعفاريت والغيلان... الخ مما يتناسب مع مدارك أهل ذلك الزمان المعجب. واغتيال سعد تم في خلافة عمر بن الخطاب وكأنما استجابت السماء لدعائه الذي أطلقه يوم السقيفة (اقتلوه قتله الله) وبذلك استراح منه ومن مناوأته، وتصفية المعارضين السياسيين جسدياً تقليد متبع في كل أنحاء المعمورة وعلى طول التاريخ.

وبعد هذه الصورة المدهشة التي رسمها ببراعة شيخ المؤرخين الطبري لأحداث اجتماع سقيفة بني ساعدة وما دار بين المهاجرين (النازحين) والمقيمين (اليثاربة) العرب لم يعد يتسع المجال لذرة من شكٍ في أن العلاقة بين الفرقتين كانت بالهيأة التي وصفناها.

* * *

ولم تكن أحاسيس النسوان الأثربيات تقلّ توفزاً من مشاعر رجالهن فعندما تزوج بعض النوازح للمدينة/ أثرب (المهاجرين) من أثربيّات لم تكن قلوبهن صافية نحو من احتازوا بلدهن وسيطروا على مقدراتها ولم يجدن أمامهن من سبيل لإظهار الاحتجاج إلاّ بحرمان القادمين من حقوقهم الزوجية خاصة وأنهن يعرفن أن معافسة الزوج لزوجته طقس يومي في ذلك المجتمع شبه البدائي حديث العهد بالبداوة... الخ. أو كنّ يعاكسن أزواجهن ما وجدن

إلى ذلك سبيلاً، لما كان النوازح لأثرب المهاجرون قد اعتادوا طريقة معينة في ملامسة زوجاتهم ووضعاً محدداً إبان المفاخذة هو الذي يبسطهم فقد أبته الأنصاريات عليهم وأصررن على التمنع ونفرن من تحقيق رغبتهم إذ وجدن فيه مزيداً من المذلة والمهانة.

وكأنما عقولهن البواطن كانت تصرخ ألم يكفكم أيها النوازح إلينا أن أياديكم الميمونة كبشت[٦٦]، قريتنا حتى تريدون أن تلامسونا بكيفية لا تصلح إلاّ للجواري والإماء!

ويبدو أن الأثربيات تمسكن بحقهن في ذلك بأن الرجال النازحين إليهم لا يجوز لهم أن يجبروهن على قبول أوضاع فيها إهدار لكرامتهن وحطّ من كبريائهن (الكبرياء: المكانة والمنزلة وهي بخلاف الكبر الذي يعني العظمة والتجبر. ا. هـ). فلم يجد الوافدون بدأ من ضربهن، وفي ليلة واحدة طاف على حجرات محمد سبعون امرأة يذكرن ما لقين من أزواجهن من ضرب فنهاهم عن ذلك، ورد هذا الخبر في حديث رواه ابن سعد عن القاسم بن محمد مرسلاً وخرجه البزار عن عائشة مرفوعاً[٦٧]، وارتفع الخلاف إلى محمد وكما كررنا كثيراً، أنه عندما كانت تحدث أزمة أو تقبّ (تبدو كالقبة) مشكلة يتلو قرآناً فيه حل للأزمة فقرأ عليهم آية انتصرت لوجهة نظر القوادم المهاجرين وامتثلت الأثربيات لما جاء بها (الآية) ولكن ما في الصدور بقي كما هو:

١ ــ (عن ابن سابط قال: سألت حفصة بنت عبد الرحمن هو ابن أبو بكر قلت لها: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا استحي أن أسألك عنه قالت: سل يا ابن أخي عما بدا

(٦٦) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، **كبش** الشيء كبشاً: تناوله بجمع يده.
(٦٧) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي الجزء الأول، ص ١٠٤٣، مصدر سابق.

لك، قال: اسألك عن إتيان النساء في أدبارهن، فقالت: حدثتني أم سلمة قالت: كانت الأنصار لا تجبى وكانت المهاجرون تجبى فتزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار فجباها فأبت الأنصاري فأتت أم سلمة فذكرت لها فلما جاء النبي (ص) استحيت الأنصارية وخرجت فذكرت ذلك أم سلمة للنبي (ص) فقال: ادعوها لي، فدُعيت له فقال: (نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنّى شئتم صماماً واحدا) والصمام السبيل)[٦٨]. جبى تجبية وضع يديه على ركبتيه أو على الأرض أو انكب على وجهه[٦٩].

٢ ـــ (عن مجاهد عن ابن عباس قال: كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم فكانوا يعتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلاّ على حرف، وذلك أستر ما تكون للمرأة، فكان هذا الحي من الأنصار احتذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون إلى المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه، قالت: إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلاّ فاجتنبني، حتى شرى (ارتفع وعظم) أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فأنزل الله عزّ وجل: ﴿نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى

(٦٨) **سنن الدارمي**، المجلد الأول، ص ٢٥٦.
(٦٩) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

شئتم﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد)[٧٠].

٣ ــ وأورده بصيغة أخرى أبو الحسن النيسابوري برواية الكلبي عن ابن عباس[٧١].

٤ ــ كما أورده الحاكم في المستدرك بتمامه وقال: حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم[٧٢].

الأخبار السالفة وقد حملتها هذه المصادر المتعددة ذات الدرجة الرفيعة والمقام السامي والرتبة العالية لا يستطيع أحد أن يشكك فيها، أما دلالتها فلا تخفى على اللبيب الفطن.

* * *

ولم تكن عاطفة الأثربيات إزاء النازحين إليهم (المهاجرين) أقل خشونة وتربصاً من عاطفتهن إزاء النسوان النوازح من مكة، وربما يقال إن هاته القوادم، لا مسؤولية عليهن في ما فعله القادمون في أثرب من التسلط على مقدراتها والتحكم في أنشطتها كافة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فينتصب الرد عليه: من الصعب أن تفرق الأثربية بين رجالهم ونسوانهم فالنازحة إلى قريتهم يثرب (= المهاجرة) إما أنها زوجة أو أم أو أخت له؛ والخبر التالي يدلنا على عرامة الغضب التي كانت تكنه اليثربيات للقادمات إلى بلدهن من مدينة القداسة:

عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن ربيع بنت معوذ قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت مخربة ــ أم أبي جهل ــ

(٧٠) **سنن أبي داود**، الجزء الثاني، ص ٢٥٠، الحديث رقم ٢١٦٤.
(٧١) **أسباب النزول**، ص ٤٨ ــ ٤٩، طبعة مؤسسة الحلبي وشركاه ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
(٧٢) ٢٧٩١/ ١٢٠ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ ــ الجزء الثاني.

في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعطر من اليمن وكانت تبيعه لأعطيه، فكنا نشتري منها، فلما جعلت لي في قواريري ووزنت لي كما وزنت لصواحبي قالت: اكتبن لي عليكن حقي، فقلت نعم: اكتب لها على الربيع بنت معوذ، فقالت أسماء: حلْقي وإنك لابنة قاتل سيده؟ قالت: قلت: لا ولكن ابنة قاتل عبده، قالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: وأنا والله لا أشتري منك شيئاً أبداً فوالله ما هو بطيب ولا عُرف! والله يا بُنَيَّ ما شممت عطراً قط كان أطيب منه ولكنني يا بُنيَّ غضبت[٧٣].

من هذا الخبر نخرج بالحقائق الآتية:

أ ــ إن العواطف المحبوسة في صدور الأثربيات تجاه تلك القوادم ظلت على حالها حتى خلافة عمر بن الخطاب.

ب ــ أن هناك من بين النازحين والنازحات إلى المدينة وخاصة من قريش من كان ينظر إلى اليثاربة كأنهم عبيده، (فقالت أسماء: حَلْقَى وإني لابنة قاتل سيده) مع أن المقتول هو أبو جهل أحد أكابر أعداء محمد والديانة التي بشر بها فما بالك بالقرشي المبشر بالجنة أو حتى القرشي العادي؟

جـ ــ أن التوتر الذي كان يملأ جوانب الأنصارية الربّيع بنت معوذ دفعها إلى أن تظلم أم أبي جهل أسماء بنت مخربة وتبهتها حقها وتصف عطرها وطيبها بما ليس فيه.

د ــ أن الأنصارية أو الأثربية ردت الصاع صاعين لأسماء أم أبي جهل إذ وصفت القتيل أبا جهل بأنه عبد لقاتله الأنصاري وهي لا شك تعلم أنه قرشي وبداهة هي لا

(٧٣) **المغازي** لـ الواقدي ــ المجلد الأول ــ ص ٨٩ ــ سابق.

تعتقد صحة ذلك كما كانت تؤمن به أم أبي جهل ولكنها بتلك الجملة نفّست عن مكنون ذاتها قبل النازحات القادمات لقريتها من مكة.

مواقف الصحابة من يهود أثرب

لسنا بصدد كتابة تأريخ وإنما يلزم في بعض الأحيان أن نمس جانبه مساً رقيقاً بالقدر الذي يعيننا على إضاءة المبحث الذي نتناوله، ومن هذا المنطلق يتوجب علينا قبل أن نطرح موقف الصحبة من اليهود وأثر ذلك على مجتمعهم، أن نتكلم عن قرار اليهود في منطقة أثرب مقام الفاعلين الاجتماعيين الذي يشكّلون بنية ذلك المجتمع الذي هو موضوع الأسفار الثلاثة.

في كتابنا (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية) في الباب الثاني المقدمات الدينية، في الفصل الأول: (اليهودية)[٧٤]، انتهينا إلى أن اليهود سبقوا الأوس والخزرج في الاستيطان بسهل يثرب وواحاتها وعندما قدم بنو قيلة بنت الأرقم بن عمرو... بن مزيقيا نعني الأوس والخزرج غلبوا اليهود على أكثر ما كان بأيديهم وعمّروا واحات قديمة وأنشأوا واحات جديدة وأن اليهود كانوا طائفتين لا من المنظور العقائدي ولكن من المنظور الجنسي أو العرقي:

الأولى: فرقة يهودية خالصة نزحت من فلسطين[٧٥].

والفرقة الثانية أو الأخرى: عبارة عن عرب تهودوا[٧٦].

ولا يهمنا تحقيق تاريخ نزوح يهود إلى منطقة يثرب (لا السهل فقط) ولا الدوافع عليه لأنها جميعها تندّ عن موضوعنا، إنما الذي يعنينا هنا وقبل أن نغادر هذه النقطة إلى غيرها هو لفت النظر إلى

---

(٧٤) أصدرته دار سينا بالقاهرة، في عام ١٩٩٣م، الطبعة الأولى.
(٧٥) إذن لم يكن نزوح أو هجرة المسلمين هو أول نزوح أو هجرة تطول يثرب بل سبق لها استقبال نازحين إليها بسبب الاضطهاد الديني.
(٧٦) **قريش** ص ٨٥، ٨٦، ٨٧، مصدر سابق.

الفرقة الأخرى، العرب المتهودين وإلى أن الأثاربة لهم سابقة في اعتناق ديانة النازحين إلى بلدهم فعلوها مع اليهود ثم كرروها مع المسلمين وهذه مسألة تحتاج إلى تمحيص وإمعان نظر، بيد أن نجاح بني إسرائيل في تهويد بني قيلة كان ضامراً مهزولاً لا يقاس بالفلج والظفر والفوز الذي حققه محمد وهذا مرده علل عديدة منها:

أ ــ الانتماء العرقي وهو كون محمد عربياً وهم (بنو قيلة) عرب.

ب ــ لمحمد أخوال في بني النجار من بطون الخزرج أكبر فرعي بني قيلة.

جـ ــ شخصية محمد الكارزمية سيادية تأخذ بمجامع من يلقاها منذ الوهلة الأولى.

د ــ كونه نبيّاً يوحى إليه في حين أن من كان يدعو لليهودية أحبار والفرق شاسع بين النبي والحبر.

هـ ــ الاقتتال أوشك أن يفنى فرعي بني قيلة: الأوس والخزرج فوجدا في الدخول في الديانة التي بشر بها محمد فرصة للإنصهار ونسيان العداوة.

و ــ محمد أنشأ دولة بجانب التبشير بالديانة في حين أن اليهود لم يقيموا دولة بل اعتمدوا على رجال دينهم في الدعوة إليه والدولة لها فعاليتها المؤثرة في إفشاء الدين وإذاعته وإعلانه وإقناع الناس بدخوله والإيمان به وقد عبّر عثمان عن هذه الحقيقة بقالته المعروفة (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

وهذه نبذة سريعة عن البدايات الأولى لعلاقة اليهود ببني قيلة وتطوراتها حتى قدوم المهاجرين:

(وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخيل في

أيدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم فمكث الأوس والخزرج ما شاء الله، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً أو حلفاً يأمن فيه بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا فلم يزالوا على ذلك زمناً طويلاً وأمرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد.

فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوا أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم فتمردوا لهم حتى قطعوا الحلف الذي بينهم.

وكانت قريظة والنضير أعدّ وأكثر وكان يقال لهما: الكاهنان وبنو الصريح فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم خائفين أن تجليهم يهود، حتى نجم منهم مالك بن العجلان من بني سالم بن عوف بن الخزرج وسوّده الحيان: الأوس والخزرج)[٧٧].

وبقية القصة أن مالك بن العجلان رحل إلى ملك غسان أبي جبيلة الذي أقبل بجيش لجب ودبر مذبحة لأشراف اليهود وخواصهم وحشمهم أتت عليهم جميعاً وقال لبني قيلة: إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنّكم ثم رجع إلى حاضرة ملكه (فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة فتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتبؤون منها حيث شاءوا واتخذوا الديار والآطام)[٧٨]. ولكن يهوداً لم يستسلموا واستمروا يناوشون بني قيلة فأكمل ابن عجلان الخطة التي رسمها لهم أبو جبيلة الغساني ودبّر ليهود مذبحة أخرى وإن كانت أخف نُكراً من سابقتها فانقمعوا.

أما بطونهم المهزولة فقد تحالفوا مع بني قيلة بعضهم مع الأوس

---

(٧٧) **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى** للسمهودي، الجزء الأول طبعة ١٣٢٦هـ، مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة، نقلاً عن كتاب **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** د. أحمد إبراهيم الشريف، ص ٣٤٨/ ٣٤٩، طبعة ١٩٨٥، دار الفكر العربي، بمصر.
(٧٨) المصدر السابق، ص ٣٥٠.

والآخر مع الخزرج ولكن فخذيهما القويين (بني النضير وقريظة) فقد اعتمدا على أموالهما وقوتهما وحصونهما.

ولكن في نهاية الأمر نجد أن كل بيت من بيوت يهود كان له ولاء أو حلف أو جوار إنْ مع الأوس أو الخزرج.

* * *

إن من موجبات الدراسة الموضوعية أن نردد النظر في النص الذي أورده السمهودي في (الوفاء) لثمانته إذ انضوى على حقائق قيمة تفيدنا في مبحثنا:

١ ــ أن الأثاربة العرب والأثاربة اليهود (تعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا) وامتد ذلك زمناً طويلاً.

٢ ــ إن التخلص من هيمنة يهود وسلطانهم تمّ عن طريق مكيدة دبّرها ملك غسان أو جبيلة ثم كررها من بعده مالك بن العجلان الذي اصطلح الحيّان على تسويده عليهما.

٣ ــ معنى ذلك أن بني قيلة (الأوس والخزرج) تعوّدوا على المكائد والمؤامرات نقول هذا لمن لا زالت تدور برأسه ذرة من شك في مؤامرة الملحمة التي دبرها الأنصار بزعامة سعد بن عبادة عند فتح مكة ولكنها لم تنجح كما ذكرنا.

٤ ــ أن البطون الصغيرة والبيوت الضامرة من اليهود استمرت على حلفها أو جوارها مع الأوس والخزرج وأن ذلك استمر حتى وصول المهاجرين، وهذه البطون وإن كانت مستضعفة إلاّ أنها صاحبة الأغلبيّة العددية.

٥ ــ إن من امتنع عن التحالف هما الفرعان القويان من اليهود:

بنو النضير وقريظة أخذتهما العزة بالقوة والسلاح والآطام (الحصون).

ولعل هذا يفسر لنا ما وقع لكليهما بعد ذلك!

أما بنو النضير فقد تمّ إجلاؤهم بعضهم ارتحل إلى خيبر والبعض الآخر سار إلى الشام.

أما بنو قريظة فقد ذبح رجالهم وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة وامرأة واحدة، ولو أننا سوف نرى أن كتّاب السيرة يخالفون السمهودي في هذه الخصوصية ويقررون أن جميع يهود يثرب ربطتهم أحلاف وولاءات مع عرب أثرب وإنْ تفاوتت الدرجات في ذلك.

٦ ــ إن اليهود بعد المذبحتين اللتين نفذهما أبو جبيلة الغساني ومالك بن العجلان انكمشوا وغلب عليهم الأثاربة العرب، بنو قيلة فعزوا وسادوا وسكنوا من يثرب حيث شاءوا واتخذوا الدور والحصون (الآطام).

نخلص من ذلك أنه عند وصول المهاجرين (النازحين) من مكة إلى أثرب كان الوضع كالآتي:

ــ الأوس والخزرج لهم السؤدد والعز.

ــ بطون اليهود الضامرة تربطها أحلاف وجوار مع الأوس والخزرج.

ــ بنو قريظة وبنو النضير لم يحالفوا أحداً (بالمعنى الحرفي للحلف) استناداً إلى قوتهم وأموالهم وسلاحهم وحصونهم.

ولو أن هذين الحيين كانت تربطهما رابطة من نوع ما مع الأوس والخزرج وهذا أمر طبيعي نظراً لأن الفريقين عاشوا في بلد واحد مئات الأعوام.

الأنصار

من المستحيل أن تتصرم العلاقة التي ربطت يهود بعرب أثرب (بني قيلة) بمجرد وصول المهاجرين (النازحين) من مكة إلى قريتهم فقد استمرت زمناً طويلاً وتعددت وجوهها فمنها ما هو اقتصادي ومنها ما هو عقائدي إذ رأينا كثيراً أو قليلاً منهم (من بني قيلة) قد تهوّدوا. فقد حدثتنا كتب التفسير أن المرأة اليثربية التي يموت أطفالها صغاراً كانت تعمد إلى تهويدهم حتى يعيشوا باعتبار أن اليهود أهل كتاب وهم أهل وثن.

(وكانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا...) رواه أبو داوود والنسائي وابن حبان عن ابن عباس[٧٩].

كما طالعنا في مؤلفات علوم القرآن أن الأثاربة كانوا يسترضعون أولادهم لدى اليهود وهناك ينشأون على اليهودية ولم يكن أهلوهم يرون في ذلك بأساً حتى بعد هجرة محمد إليهم ودخولهم الديانة التي حملها إليهم. ولكن المشكلة انفجرت عند صدور أوامر محمد بإجلاء من أمر بإجلائهم من اليهود إذ لا يمكن إبقاء أولئك الأولاد المتهودين في أثرب ولو سمحوا لهم بالرحيل مع اليهود لشق ذلك على نفوسهم مفارقة أفلاذ أكبادهم فعمدوا إلى قسرهم على مفارقة اليهودية واعتناق الديانة التي بشّر بها محمد ولكن الأولاد، وقد آمنوا بالدين الأقدم، رفضوا نبذه وتمسكوا به وارتفع الخلاف إلى محمد، وكعادته في مثل هذه الحالة يحسم المشكل بأن يقرأ لهم آية من القرآن وهي هنا ﴿لا

(٧٩) **أسباب النزول**، للسيوطي، ص ٣٤، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/ كتاب التحرير، بمصر.

إكراه في الدين﴾[٨٠]. وكان ذلك انتصاراً رائعاً لحرية الاعتقاد:

(عن مجاهد قال: كان ناس مسترضعون في يهود قريظة والنضير فلما أمر النبي (ص) بإجلاء بني النضير قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم لنذهبن معهن ولندينن بدينهم فمنعهم أهلهم وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت ﴿لا إكراه في الدين﴾[٨١].

كذلك أورد القرطبي أنه (لما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا فأنزل الله تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[٨٢]. وتشد الانتباه العبارة التي أوردها القرطبي (كثير من أبناء الأنصار) أي أن تهويد الأبناء لدى الأنصار كان ظاهرة شائعة لا مجرد أمر عارض، بالإضافة إلى روابط عائلية ومشاركات في المناسبات الاجتماعية، فسوف نرى أخاً يعنّف أخاه لقتله يهودياً ويقول له إن له فضلاً عليه... كما كانت هناك حلقات نقاشية تدور بين الطرفين وتتناول موضوعات دينية مثل القضاء والقدر... وأن عدداً من كبار الصحبة الأنصار (المقيمين) أبدى أساه وتوجعه عند إجلاء اليهود (محمد أمر بإجلاء فرقتين: بني قينقاع وبني النضير)، وهناك من قال شعراً في ذلك ودخل في سجال شعري بشأنه، وسوف نسرد بإيجاز وقائع الفرق الثلاث:

---

(٨٠) الآية ٢٥٦ من **سورة البقرة.**
(٨١) **أسباب النزول** للواحدي، ص ٥٣، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، الناشر: مؤسسة الحلبي، القاهرة.
(٨٢) **تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن**، المجلد الثاني، ص ١٠٨٨، طبعة دار الشعب بمصر.

قنيقاع ــ النضير ــ قريظة عندها يلفت النظر عقود الحلف والجوار التي ربطتهم ببعض أكابر الأوس والخزرج وخاصة بزعيم المعارضة السياسية الذي أطلق عليه رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ونحن هنا لسنا بصدد معارضته السياسية لمحمد أو رئاسته للنفاق والمنافقين؛ إنما الذي يعنينا التحالفات التي عقلته باليهود إذ لم يكن نكرة بل أحد أكابر الخزرج وكان بنو قيلة (الأوس والخزرج) على وشك تنصيبه ملكاً عليهم وعلى مدينتهم ومن هنا تجيء أهمية تلك التحالفات التي أشرنا إليها.

ونذكّر هنا بما هو مسطور في كتب السيرة من أن محمداً عندما قابل الطليعة الأولى من اليثاربة في مكة وهو يبشر بالديانة الإسلامية سألهم عندما عرف هويتهم: (أي موالي يهود؟)[٨٣]، أي أنه كان يعرف وهو في بلده الحرام وقبل أن يفكر في نقل مركز الثورة إلى أثرب أن هناك ارتباطات تشبك[٨٤] ما بين عربها ويهودها.

* * *

بعد ذلك يحين الوقت لنسرد بإيجاز ما لقيه يهود يثرب وعلى وجه أخص فروعهم الكبيرة قينقاع، النضير وقريظة من مصير بعد أن هاجر (نزح) إليها المسلمون وذلك من زاوية خاصة وهي إبراز علاقتهم باليثاربة العرب (بني قيلة) من علاقات: حلف ــ إجارة ــ ولاء.

ولكن بادئ ذي بدء يتوجب علينا أن نذْكُر ولو بإيجاز السبب الذي أدى إلى نهاياتهم وذلك من وجهة نظر محمد الذي

(٨٣) **السيرة النبوية** لابن هشام، ج ٢، ص ١٧٦.
(٨٤) في **المعجم الوسيط** **شبك** الشيء شبكاً: أنشب بعضه في بعض.

ما إن استقر في أثرب/ المدينة حتى كتب كتاباً:

(من المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته... وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف... ثم ذكر يهود البطون الأخرى مثل بني الحارث وبني ساعدة وبني الأوس... الخ وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمد... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم...) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (ص) وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه)[٨٥].

إن ما يلفت النظر في هذه الوثيقة الهامة ورود فقرة مستقلة قبل ختامها جرى نصها كالآتي:

(وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلاّ على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه)[٨٦]، وتخصيص يهود الأوس بفقرة مستقلة قبل نهاية الوثيقة مباشرة أمر مقصود مع أنهم ذُكروا مع غيرهم في صلبها وعلة ذلك سوف تتضح عندما نذكر النهاية التي لقيها هؤلاء (يهود الأوس)

(٨٥) **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** جمعها د. محمد حميد الله الحيدرآبادي، من ص ١ إلى ٧، د. ت. ن. مكتبة الثقافة الدينية بمصر.
(٨٦) المصدر السابق ص ٧.

وهم بنو قريظة والتي تتلخص في قتل الرجال البالغين وسبي النسوان والذراري وقسم الأموال، ويتراوح عدد القتلى ما بين الستمائة والسبعمائة والتسعمائة.

كما أن الكتاب لم يذكر اليهود مستقلين بذواتهم مثل:

يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة... بل تابعين لبطون الأنصار فنص على:

يهود بني عوف... يهود بني ساعدة... يهود بني الأوس، وهو أمر بالغ الدلالة، والباحثون الذين يصفون هذه الصحيفة أنها دستور وأنها أول دستور عرفه العالم لا شك مخطئون فهي ليست دستوراً لأن الدستور أول مقوماته أن يصدر عن الأمة أو عن الشعب وأن القاعدة الشعبية العريضة تشترك في اختيار بنوده (دعك من التصويت بلا أو نعم) بمنتهى الحرية بعد مداولات ومحاورات ومساجلات، وفي رأينا أن التقويم الصحيح لهذه الصحيفة هي أنها قانون أصدره محمد بصفته حاكم المدينة، وأبرز الأدلة ما جاء في ديباجتها (هذا كتاب من محمد النبي رسول الله (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم)[٨٧]، ولم يرد فيها على أن هذا ما اتفق عليه محمد والمهاجرون والأنصار (أهل يثرب) واليهود... الخ إذن هو تقنين شرّعه محمد، كما أنه لم يوقعها سواه.

ولا ينال منها نعتها بأنها قانون، أما إنها دستور فهو أمر مناف للعِلْمية لأن ذلك المجتمع لم تصل به مداركه لرتبة تشريع الدساتير فضلاً عن أن بنودها لا تسمح به.

(٨٧) المصدر السابق، الصفحة الأولى.

تلك الوثيقة كانت الميزان الذي وزنت به أعمال اليهود فعندما رأى محمد أنهم خرجوا عليها أوقع بهم العقاب المناسب الذي هو مخوّل بموجب إحدى موادها لإنزاله (... فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (ص) وبداهة أن جبريل كان هو الرسول بينه وبين السماء.

* * *

ونبدأ ببني قينقاع، لا لأنهم أهم يهود ولكن من زاوية التسلسل التاريخي أو التتابع الزمني.

١ ــ بنو قينقاع:

قوم من اليهود وكانوا أشجع يهود وكانوا صاغة وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت (رض) وعبد الله بن أبيّ بن سلول، فلما كانت وقعة بدر أظهروا (البغي والحسد ونبذوا العهد لأنه (ص) عاهدهم وعاهد بني قريظة وبني النضير أن لا يحاربوه وأن لا يظاهروا عليه عدوه... فهم أول من غدر من يهود فإنهم مع ما هم عليه من العداوة لرسول الله (ص).

قدمت امرأة من العرب بجلب لها... فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ منهم... فجعلوا يراودونها عن كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها بشوكة وهي لا تشعر فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود... فغضب المسلمون على اليهود وقال لهم (ص): ما على هذا أقررناكم وتبرأ عبادة بن الصامت (رض) من حلفهم وتشبث به

عبد الله بن أبيّ بن سلول)[٨٨].

وبقية القصة: أن محمداً والمسلمين حاصروهم خمس عشرة ليلة أشد حصار فسألوا محمداً أن يخلي سبيلهم على أن يجلوا من المدينة ولهم نساؤهم والأموال والسلاح ونزلوا من حصونهم فأمر (أن يكتفوا فكتفوا فأراد قتلهم فكلّمه فيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول وألحّ عليه وقال: يا محمد أحسن في مواليّ فأعرض عنه (ص) فأدخل يده في جيب درع رسول الله (ص) من خلفه وتلك الدرع ذات الفضول فقال له رسول الله (ص): ويحك أرسلني وغضب رسول الله (ص) فقال والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ فإنهم عترتي وأنا امرؤ أخشى الدوائر فقال (ص): خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم وتركهم من القتل)[٨٩].

نستقطر من هذا الخبر المذكور لنحصل منه على الحقائق الآتية:

١ ــ أن يهود بني قينقاع كانوا شجعاناً وصاغة أي جمعوا بين الحلقة والمال أو الحرب والاقتصاد، وفي كتب السيرة أنه كان في أثرب/ المدينة قبيل العهد المحمدي ثلثمائة محل صياغة.

٢ ــ أنهم كانوا حلفاء:

أ ــ عبادة بن الصامت.

ب ــ عبد الله بن أبيّ بن سلول.

والاثنان من الخزرج، الأخير (ابن سلول) عرفناه أما الأول فقد كان نقيباً شهد العقبات الثلاث وبدراً وجميع المشاهد[٩٠]، أي صاحب مقام رفيع بين الصحابة وحائز على أوسمة عديدة فهو نقيب وعقبيّ

(٨٨) **إنسان العيون** الجزء الثاني، ص ٤٧٥.
(٨٩) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٤٧٨.
(٩٠) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٨٠٨، مصدر سابق.

وبدريّ تكاملت في حقه الدرجات العالية بيد أنه ظل على حلفه مع بني قينقاع حتى حدوث الواقعة القبيحة السافلة التي تقطع بانحطاط خلقي ولؤم في الطبع وانعدام في المروءة من الصيّاغ القينقاعي. وفي الحقيقة أن الحلف لم يكن بين بني قينقاع وعبادة بن الصامت وابن سلول فحسب بل كان مع الخزرجيين جميعهم:

(وإذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت بنو النضير، وقريظة مع الأوس)[٩١].

إذن الأواصر بين الأنصار (اليثاربة/ بني قيلة) واليهود كانت على درجة ملحوظة من التوثق والتعقد (من العقد) والخبر التالي يؤيد ما نذهب إليه: (وفي رواية الضحاك عن ابن عباس أن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فقال يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود رأيت أن استظهر بهم على العدو فنزلت الآية ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾، من آل عمران[٩٢].

على هذا الحد بلغ التشابك بين الزعيم الخزرجي عبادة وبين يهود بني قنيقاع حتى إنه يستطيع أن يجند منهم كتيبة من خمسمائة محارب شجاع يوظفهم في نصرة محمد ولكن السماء رفضت عرضه. وكان محمد يعتنق مبدأ ويطبقه بصرامة وهو ألا يستعين إلاّ بمن تبعه على الديانة التي كان يبشر بها.

٣ ــ أن يهود بني قينقاع اعتماداً على شجاعتهم وتمولهم كانوا على قدر واضح من الاستكبار والاستعلاء ولا نقول الثقة المفرطة بالنفس فحسب، ما جعلهم يرتكبون أفعالاً لا يقدم عليها إلاّ الغطارسة[٩٣]. واتسموا بقصر النظر وفسولة الرأي فمن ناحية

(٩١) **إنسان العيون**، المجلد الثاني، ص ٥٦١.
(٩٢) **منهاج السنّة النبوية** لابن تيمية الحراني، الجزء الثالث، ص ٢٥٩، مصدر سابق.
(٩٣) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **الغطريس**، الظالم المتكبر.

اعتزوا بقوتهم وشجاعتهم وقدروهما تقديراً مبالغاً فيه ومن ناحية أخرى استهانوا بمحمد ورجاله وبخسوهم حقهم وهذا يتمثل في حوارهم معه عندما عزم على حربهم (... فجمعهم (ص) وقال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة أي ببدر)[٩٤]. فماذا كان ردهم عليه؟ لقد ركبهم الغشم فأجابوه (يا محمد إنك ترى أنّا قومك، أي تظننا أننا مثل قومك ولا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة إنّا والله لو حاربناك لتعلمن أنّنا الناس وأنك لم تقاتل مثلنا)[٩٥].

٤ ــ أن الحلف بينهم وبين الخزارجة ممثلين في ابن سلول الوحيد الذي جرؤ على التشفع لهم لدى محمد كان حلفاً متيناً وذلك يتضح من إلحاحه على محمد إلحاحاً بلغ حد الوقاحة وسوء الأدب والخلافة...

٥ ــ وصف ابن سلول تلك الصلة التي ربطت الخزرج وقينقاع بقوله لمحمد (فوالله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ وعترتي وأنا امرؤ أخشى الدوائر)[٩٦].

هم:

أ ــ الموالي

ب ــ العترة[٩٧].

جـ ــ النصير المؤازر عندما تدور الدوائر، ويدلّ كلامه على توقعه أن تدور عليه هو نفسه الدوائر ومن ثم فهو يستبقي بني قينقاع رديفاً له وقت الشدة ودوران الدوائر عليه؟

(٩٤) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٤٧٥، مصدر سابق.
(٩٥) المصدر السابق الصفحة والجزء نفسيهما.
(٩٦) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٧٥.
(٩٧) قال المبرد: **العترة** أصل الشجرة والباقي بعد قطعها فعترة الرجل أهله، وقال غيره عترة الرجل: أهله وبنو أعمامه الأدنون، **كتاب الفروق** لأبي هلال العسكري، مصدر سابق.

بنو قينقاع، بنو النضير، بنو قريظة، لها صلة بجديلة الأحلاف الوثيقة المؤكدة التي عقلتهم بـ (بني قيلة) أو (الأنصار) عقالاً متيناً؟

* * *

٢ ــ بنو النضير

(بنو النضير قوم من اليهود بالمدينة... ذهب إليهم ليستعين بهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى عند رجوعه من بئر معونة غيلة... لأن بني النضير حلفاء لقوم الرجلين المذكورين وهم بنو عامر...)[٩٨].

(فلما كلمهم قالوا يا أبا القاسم اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك، فنقوم ونتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به، فقعد رسول الله (ص) مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من الأنصار إلى جدار من جدرهم، فاجتمع بنو النضير وقالوا: مَن رجل ليصعد إلى ظهر البيت فيلقى على محمد صخرة فيقتله ويريحنا منه؟ فإنّا لن نجده أقرب منه الآن فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب[٩٩]. وأخبرت السماء محمداً بالمؤامرة الدنيئة فقفل راجعاً فلما استبطأه أصحابه قاموا في طلبه فأنبأهم رجل بأنه رآه عائداً إلى المدينة (يثرب) فأقبلوا حتى انتهوا إليه فقصّ عليهم غدر بني النضير (وأمرهم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم... ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست

---

(٩٨) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** أو **السيرة الحلبية** لعلي برهان الدين الحلبي، الجزء الثاني، ص ٥٥٩.

(٩٩) **الدرر في اختصار المغازي والسير** لابن عبد البر، تحقيق د. مصطفى أديب البغا، ص ١٨٣، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

ليال)[١٠٠]. وعمد محمد إلى محاربتهم حرباً اقتصادية، علاوة على الحصار (قال ابن إسحق فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله (ص) بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بالك تقطع النخل؟)[١٠١].

وكان هؤلاء النضيريون حلفاء الخزرج وبموجب هذا الحلف تحرك (رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن سلول ووديعة بن مالك بن أبي قوقل وسويد وداعس بعثوا إلى بني النضير أن أثتبوا وتمنعوا فإنّا لن نسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا من ذلك نصرهم فلم يفعلوا)[١٠٢]. كما أن الخبر نفسه يدل على أن بني قينقاع كانوا حلفاء بني عامر وهو السبب الذي دفع محمداً للذهاب إليهم للمساهمة في دفع دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري غيلة عند رجوعه من بئر معونة كانا منهم (من بني عامر). وهو ما جاء في عدد من كتب السيرة (وكان بين بني عامر وبني النضير عقد وحلف)[١٠٣].

ويبدو أن حلفاءهم من الخزارجة راجعوا أنفسهم ووجدوا أنهم لو ناصروهم فهو بصريح العبارة شق عصا الطاعة على محمد وفي ذلك خسران الدنيا والآخرة فلم يفعلوا.

---

(١٠٠) **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** لابن سيد الناس، المجلد الثاني، ص ٤٨ د. ت. ن. دار المعرفة، لبنان.

(١٠١) **السيرة النبوية** لابن هشام، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، الجزء الثالث، ص ١٢٠، طبعة ١٩٧٨، دار التوفيقية بمصر.

(١٠٢) **عيون الأثر** لـ ابن سيد الناس ص ٤٩، مصدر سابق،

(١٠٣) **عيون الأثر** المجلد الثاني، ص ٤٨، مصدر سابق، **والسيرة النبوية** لابن هشام، ج ٣، ص ١١٨، مصدر سابق.

ولم يتحمل بنو النضير الحصار وتحريق النخل وخذلان حلفائهم لهم فلم يجدوا بداً من النزول على شروط القائد المظفر (فسألوا رسول الله (ص) أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ الحلقة (آلة الحرب) ففعل فاحتملوا النساء والصبيان وحملوا أموالهم غير الحلقة ما استقلت به الإبل وكانت ستمائة بعير)[١٠٤].

ومن الوصف الذي ذكره كتّاب السيرة لخروج بني النضير يظهر أنهم كانوا على قدر غير قليل من التحضر (خرجوا مظهرين التجلد: خرجت النساء على الهوادج عليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلّي الذهب والفضة وخلفهن القيان بالدفوف والمزامير)[١٠٥]. ويبدو أن مصاغ نسوان بني النضير كان مشهوراً لا في أثرب وحدها بل في منطقة الحجاز (وهذا الحلّي كانوا يعيرونه للعرب من أهل مكة وغيرهم وكان يكون عند آل أبي الحقيق)[١٠٦]. وقد تحسّر بعض حلفائهم على خروجهم من يثرب وتوجعوا لفراقهم، وكتّاب السيرة يسمون من ركبهم الغم والأسى لذلك بـ (المنافقين) وهذا وصف غير دقيق فتلك العواطف الإنسانية تهيج عندما يرى أي شخص من ربطته به صلة أو رابطة من أي نوع ينتهي نهاية فاجعة، فقد قرأنا أنه عند غزاة بدر الكبرى عندما جُرّ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من رجليه ليُرمى في القليب تغير وجه ابنه أبي حذيفة وكان من السابقين الأولين ومن خيار الصحاب بيد أنه لم يستطع أن يداري عاطفة التفجع على نهاية أبيه المحزنة ولم يرمه أحد بالنفاق.

---

(١٠٤) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٥٦٥، مصدر سابق.
(١٠٥) مصدر سابق، الصفحة نفسها.
(١٠٦) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٦٥٦.

ويقول علي برهان الدين الحلبي (وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن)[١٠٧]. وتورّث واقعة إجلاء بني النضير قرائح شعراء شبكتهم بهم وشائج وثقى منهم عباس بن مرداس أخو بني سُليم فقال:

فإنك عمــري هل أريك ظعــائناً ســلكن على ركن الشــطاة فتيأبا
عليهن عيــن من ظبــاء تبــالة أوانس يصبين الحليــم المجــربا
إذا جاء باغي الخير قلن فجاءةً لــه بوجــوه كالدنــانير مرحبـــا
وأهــلا فــلا ممنوع خيــر طلبة ولا أن تخشى عنــدنا أن تؤنبا[١٠٨]

فأجابه خوّات بن جير يعاتبه على مدحه يهود بقصيدة مماثلة، ولكن ابن مرداس ظل على عاطفته نحو بني النضير، فرد عليه:

فبك بني هــارون واذكر فعــالهم وقتلهم للجــوع إذ كنت مجــديا
أخوّات أذر الدمــع بالدفــع أبكهم واعرض عن المكروه منهم ونكبا
فإنــك لــو لاقيتهــم في ديــارهم لألفيت عمــا قــد تقــول منكبــا
سراع إلى العليا كرام لدى الوغى يقال لبــاغي الخير أهــلاً ومرحبا

(١٠٧) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٥٦٦، مصدر سابق.
(١٠٨) **السيرة النبوية** لابن هشام، المجلد الثالث، ص ١٢٨، مصدر سابق.

ولكن تلك الصفات الحميدة والخلال الطيبة التي تغنى بها ابن مرداس لم تمنعهم في مجال السياسة أن يسلكوا طريق الغدر والخيانة والتآمر الخسيس وتدبير مكيدة كان الهدف منها قتل محمد قتلة فظيعة ليس فيها ذرة واحدة من الشرف والشجاعة ولا يلجأ إليها إلاّ الأدنياء والأنذال.

ولكن ما يهمنا في نطاق المبحث الذي نحن بصدده هو انتصاب تحالفات وولاءات عُقدت بينهم وبين الأثاربة وغيرهم من العرب الجيرة من العسير تجاهلها.

* * *

٣ ــ بنو قريظة:

كان ليهود بني قريظة دور مؤثر في تأليب الأحزاب على محمد ودولة قريش والديانة التي كان يفشيها بين الناس، ولذا فإن وقعة الخندق كانت من أوعر الغزوات على المسلمين حتى شعروا بالخوف وظنوا بالله ــ معبودهم الظنون ــ وهذا ما لم يحدث لهم من قبل (وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتى المسلمين عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظنوا بالله الظنون)[١٠٩].

وكان الظن بالله الظنون مما يوسم به المنافقون ولكن في هذه الغزاة شمل المسلمين على بكرة أبيهم وهو ما سجله القرآن عليهم ﴿إذا جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾[١١٠]. وهذا وصف بلغ نهاية الكمول في البلاغة وفي تصوير فزع أتباع محمد وغاية خوفهم حتى إن قلوبهم طارت من أماكنها من شدة الهلع حتى

(١٠٩) **الدرر في اختصار المغازي والسيّر** لابن عبد البر ص ١٩٤.
(١١٠) الآية ١٠ من **سورة الأحزاب**.

التصقت بحناجرهم(١١١). والملاحظ أن الخطاب لهم جميعهم دون استثناء ولهذا قالت أم سلمة إحدى زوجات محمد التسع وممن عُرف بينهن بجودة الرأي أن الأحزاب/ الخندق كانت من أشد الغزوات.

ولعل من أبرز أسباب رعب الصحبة وهولهم هو أن بني قريظة خانوا العهد والميثاق بينهم وبين محمد (الصحيفة التي أشرنا إليها فيما سلف) وانضموا إلى الأحزاب وكان ذلك بسعي من حيّي بن أخطب الذي أراد أن يثأر لما أصابه وقومه فلم يزل بكعب بن أسد القرظي حتى أغواه على نبذ ما وادع عليه محمداً وعاهده(١١٢).

وهكذا وجد المسلمون أنفسهم بين شقيّ الرحي: عدو في الداخل في العُب(١١٣)، وعدو في الخارج يحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم وبأعداد غفيرة وعدة هائلة.

وهذا تفسير ما جاء في الآية السابقة: ﴿من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ فشطير العدو الأول يتحلقهم من الصدر وشطيره الآخر جنبتهم من العجز.

وإذا كان محمد عبقرياً فذاً لا يبارى فقد هداه ذكاؤه اللَّماح وفطانته المفردة وعقله الوفير إلى التخذيل بين صفوف ذلك الحلف الشيطاني = الكوافر واليهود، وقد نجح أيما نجاح فارتحل الأحزاب يجرون أذيال الخيبة والخسران، وتركوا بني قريظة وحدهم يواجهون عاقبة نكثهم الميثاق.

وأرسلت السماء جبريل إلى محمد تأمره بالشخوص إلى بني قريظة وأنه

(١١١) لمزيد من التفصيلات راجع صحيح البخاري **كتاب المغازي: باب غزوة الخندق.**
(١١٢) **عيون الأثر** لابن سيد الناس، المجلد الثاني، ص ٥٩، مصدر سابق.
(١١٣) **العُب** بضم العين: الكم من **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

سيسبقه إليهم ليزلزل الأرض من تحت أرجلهم زلزالاً (فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله (ص) كما حدثني الزهري معتجزاً (متعمماً) بعمامة إستبرق (ديباج غليظ) على بغلة عليها رحالة (سرج) عليها قطيفة من ديباج فقال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم فقال حبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت إلاّ من طلب القوم إن الله عزّ وجلّ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم)(١١٤). وأذّن المؤذن بالجهاد ضد بني قريظة وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وأصابهم الرعب وركبهم الخوف... والحق أن المرء ليعجب من عناد بني قريظة إذ كيف ظلوا صامدين خمساً وعشرين ليلة لزلزلة جبريل وعدد وفير من الجنود نصفهم من الملائكة ونصفهم من أتباع محمد، وأي غباء دفعهم إلى الثبات في وجه جميع تلك القوى الجبارة لمدة تقرب من شهر!

وكانت النتيجة محسومة منذ البدء! فمن ذا الذي يقف في وجه زلزلة جبريل وجيش لحمته الملائكة وسداه هم الصحاب؟ لذا طفقوا في المراوضة (المساومة):

(... وبعد الحصار قيل: أرسلوا بنبّاش بن قيس إلى رسول الله (ص) أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلاّ الحلقة فأبى رسول الله (ص) أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية... وكان أبو لبابة مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كانت في بني قريظة فأرسله رسول الله (ص) إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش (أسرع إليه) النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة المحاصرة وتشتيت مالهم فرقّ لهم وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح)(١١٥). ويشي هذا الخبر أن محمداً أرسل أبا لبابة لأن (ماله وولده وعياله كانت في بني قريظة) أي رابطته

(١١٤) **السيرة النبوية** لابن هشام، المجلد الثالث، ص ١٥٧.
(١١٥) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٦٦٣.

بهم شديدة الوثاق، ونسلط الضوء على كلمة (عياله) أي أنه أحد الذين كانوا يسترضعون أولادهم عند اليهود، ولكن هل تصل تلك العلاقة إلى رتبة الحلف؟

ندع هذا الخبر يتولى الإجابة:

(وعن أبي لبابة (رض) لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله (ص) فسألوه أن يرسلني إليهم، دعاني قال: اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس فذهبت إليهم)[١١٦]. أي أن محمداً كان يعلم بالحلف الذي بين أبي لبابة والقرظيين وذلك هو أس موافقته على طلبهم إرساله إليهم لمشاورته، ولعل الخيانة التي ارتكبها أبو لبابة في حق محمد الذي أوفده، وفي حق سائر المسلمين تدل بذاتها على قوة الآصر بين الطرفين وتمثلت تلك الخيانة في إفصاحه لهم عن العقاب الذي انتوى محمد أن ينزله بهم جزاءً وفاقاً على كيدهم له وغدرهم به.

وأبو لبابة نفسه اعترف بالخيانة (فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله (ص) ثم انطلق أبو لبابة على وجهه...)[١١٧].

ولم يكن أبو لبابة صحابياً عادياً بل كان:

١ ــ عقيباً (شهد العقبة) بل.

٢ ــ نقيباً.

٣ ــ وقيل: شهد بدراً.

وقيل: ضرب له محمد بسهمه مع الصحابة (يعني شهدها معنوياً ومن ثم فهو يحمل اللقب).

٤ ــ استخلفه على أثرب في غزاة السويق.

(١١٦) **إنسان العيون** المجلد الثاني، ص ٦٦٣.
(١١٧) **السيرة النبوية** لابن هشام ج ٣، ص ١٦٠.

٥ ــ شهد أحداً وما بعدها من المشاهد.

٦ ــ صاحب راية بني عمرو بن عوف في الفتح الأعظم، فتح مكة[١١٨].

ومع هذه الرتب السنية والأوسمة الرفيعة والنياشين العالية التي حملها ذلك الصاحب فإن صلابة الأخية (العروة) التي ربطته بيهود دفعته إلى خيانة الثورة وقائدها في وقت الحرب!

وأصر محمد على ضرورة إنزال الجزاء الرادع على بني قريظة:

(... وأخرج النساء والذراري من الحصون وجعلوا ناحية... وكانوا ألفاً واستعمل عليهم عبد الله بن سلام فتواثب الأوس وقالوا: يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما فعلت يعنون بني قينقاع، لأنه كانوا حلفاء الخزرج ومن الخزرج عبد الله بن أبيّ بن سلول وقد نزلوا على حكم رسول الله (ص) وقد كلمه فيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول فوهبهم له على أن يجلو أي فظنت الأوس من رسول الله (ص) أن يهب لهم بني قريظة كما وهب بن قينقاع للخزرج...)[١١٩].

وهذا الخبر يبين لنا أن أبا لبابة الخائن لم يكن هو الحليف الوحيد بل كان الأوس جميعهم حلفاءهم ومواليهم (وقالوا يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا) وكانوا يأملون أن يعفو عنهم كما عفا عن بني قينقاع، وفاتهم أن جرمهم لا يقاس بما نسب إلى بني قينقاع، وسيدهم سعد بن معاذ هو الذي قضى بـ:

أ ــ قتل الرجال.

ب ــ سبي النسوان.

جـ ــ قسمة الأموال.

---

(١١٨) **الاستيعاب** المجلد ٤، ص ١٧٤٠، مصدر سابق.
(١١٩) **إنسان العيون** ص ٦٦٥.

واغتبط له محمد وأنبأ أنه الحكم الذي رضيته السماء من فوق سبعة أرقعة (ثم خرج رسول الله (ص) إلى سوق المدينة... فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق فخرج إليها أرسالاً وفيها عدو الله حيّى بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر يقول كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة[١٢٠]. ولكن ما الذي دفع ابن معاذ إلى إصدار ذلك الحكم على حلفائه ومواليه وحلفاء قومه ومواليهم؟

في البدء استشف سعد أن ذلك هو عين ما استقر عليه محمد ولعل إشارة أبي لبابة على رقبته ما يعني الذبح عند سؤال يهود إياه ما ينتويه محمد بشأنهم، يدل على أن رأي محمد كان معروفاً للصحبة.

أما في المنتهى فقد شعر سعد بن معاذ أن حلفاءه ومواليه القرظيين آذوه وأحرجوه بإقدامهم على تلك الفعلة الخبيثة النكراء ولا يمارى لبيب في أن جريمتهم أفظع ما ارتكبه فرع من فروعهم الثلاثة.

* * *

وهكذا ينجلي أمام ناظرينا أن الرابطة بين بني قيلة وبني إسرائيل على المستوى الجمعي أو الجماعي لم تكن واهنة أو واهية بل كانت على قدر موفور من المتانة والوثاقة.

ولكن ماذا يعني ذلك؟

إنه يعني الكثير:

لقد وصل في بعض الأحيان إلى درجة التماهي حتى إنه في بعض الأحيان كان يقال للأثربي يا يهودي من منظور إطلاق العام على الخاص كما يقال الآن للمصري: يا عربي، ولقد أسخط ذلك محمداً، فحظره حظراً باتاً بل شرع له عقوبة غير هيّنة (عن داود

(١٢٠) **عيون الأثر** لابن سيد الناس، المجلد الثاني، ص ٧٣، مصدر سابق.

بن الحصين عن أبي سيفين مرسلاً: من قال لرجل من الأنصار يا يهودي فاضربوه عشرين)[١٢١].

ولقد لاحظ محمد تأثر اليثاربة العرب (بني قيلة) باليهود في كثير من مناحي الحياة ففطن إلى خطورة ذلك ومن ثم فإنه حارب ذلك ونهى عنه بشدة: نهى عن التشبه باليهود في الهيئة والملبس والجلسة والقعدة وتسريحة الشعر (احفوا الشوارب واعفوا اللحى ولا تشبهوا باليهود)[١٢٢].

بل إنهم جاروهم في طريقة معافسة النسوان كما رأينا في الفصلة السابقة، بل إن مضاهاة اليهود وصلت إلى النطاق العبادي والطقوسي، ولذلك فإننا نقرأ أحاديث لمحمد ينهر فيها أصحابه (والمقصود هم الأنصار) حصراً وتحديداً لأن المهاجرين (النازحين لقرية أثرب) لم تتح لهم الفرصة للاختلاط بيهود وبالتالي الاقتداء بهم أو (مشابهتهم) يزبرهم عن التشبه بيهود:

(لا تزال أمتي في مُسكة من دينها ما لم تنظروا بالمغرب إشتباك النجوم مضاهاة باليهود...) رواه الضياء المقدسي في (المختارة) عن الحارث بن وهب عن الصنابحي عن الأغر ورواه أحمد في مسنده عن الصنابحي أيضاً[١٢٣].

---

(١٢١) أورده عبد الرزاق في مصنفه، نقلاً عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي ص ١٨٥١، العدد ٥ من الجزء الرابع، من موسوعة السنّة، مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

(١٢٢) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي، الجزء الأول، ص ٢٤٥، من موسوعة السنّة مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

(١٢٣) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للإمام جلال الدين السيوطي ٨٤٩ ــ ٩١١هـ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، العدد الثالث، ص ٣١٢، الجزء الخامس من السنن القولية، مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

وللحديث رواية أخرى أوردها الطبراني في «المعجم الكبير» وأبو نعيم في (حِلْية الأولياء) عن معبد بن خالد الجهني، عن حارثة بن وهب (لا تزال أمتي على الإسلام ما لم يؤخروا المغرب لتشبيك النجوم مضاهاة اليهود)[١٢٤].

فهذان الحديثان اللذان رواهما الأئمة الأثبات:

أحمد والطبراني وأبو نعيم والضياء المقدسي في مصنفاتهم، من المماحكة البيّنة، أن يماري فيهما أحد.

وهما يدلان على أن فرقة من المسلمين كانت تؤخر صلاة المغرب حتى تشتبك بالنجوم كما كان يفعل اليهود فنهاهم محمد عن ذلك وأنذر من يفعله أنه ليس لديه مُسكة[١٢٥] من دين. وفي الرواية الأخرى أنها ليست على الإسلام، وبداهة أن هذه الفرقة هي الأنصار (بنو قيلة) الذين يساكنون يهوداً منذ مئات السنين ويجاورونهم ويسترضعون أولادهم فيهم وتربطهم بهم عقود ولاء وحلف... الخ.

وأنه من طبائع الأشياء أن يتأثر عرب أثرب بيهود في كل مرفق حتى مرفق العبادة.

* * *

وإذ تجاور بنو قيلة وبنو إسرائيل مدة طويلة فلا بد أن يتم بينهم اختلاط وأن تنعقد بينهم مجالس يتسامرون فيها وينشدون الأشعار ويتحاورون في أدق المسائل ومنها أصول الدين (بعمومه) وفي أساسيات الإيمان:

---

(١٢٤) المصدر السابق، ص ٤١٤.
(١٢٥) سبق شرحها.

(عن أبي الدرداء ووائلة بن الأسقع وأنس بن مالك قالوا: كنا في مجلس يهود ونحن نتذاكر القدر فخرج إلينا رسول الله (ص) مغضباً فعبس وانتهر وقطّب ثم قال: (مه اتقوا الله يا أمة محمد... الخ)[١٢٦].

وأبو الدرداء وأنس بن مالك أثربيان عربيان أي أنصاريان بلا خلاف، أما وائلة بن الأسقع فهو ليثي، أما أبو سامة فلم يذكره عبد البر في (الاستيعاب) من بين أصحاب الكُبي ولعل في اسمه تحريفاً، وربما يكون أبو أمامة وإذا صح ذلك فهو أبو أمامة بن سهل بن حنيف وهو أثربي أيضاً (أوسي أنصاري).

وغضب محمد على مجلس يضم أثاربة من بني إسرائيل وبني قيلة ويتجادلون في القضاء والقدر لا يحتاج إلى إيضاح. ولكن الذي يتعين علينا أن نسجله أنه يبين من هذه الأخبار أنه كان هناك امتزاج وأنس بين الطائفتين، ولعل ما يؤكد ذلك أنه بعد المذبحتين اللتين أشرنا إليهما في فاتحة الكلام لم تنقل إلينا مصادر التاريخ وقوع قتال بين بني قيلة وبني إسرائيل، ولكن عندما كان ينشب بين الفرعين العربيين: الأوس والخزرج عراك ينضم كل حليف من بني إسرائيل إلى حليفه من بني قيلة ويحارب معه وهذا دليل ثبوت على متانة الآصرة بين الطائفتين.

* * *

وكانت هناك علاقة ملابسة ومعاملة بين بني قيلة وبني إسرائيل تنبئ عن مخالطة قدر من الحميمية لم يشكل اختلاف الدين عائقاً دونها، والخبر التالي يدل على ذلك؟

---

(١٢٦) ورد الحديث في الطبراني الكبير وفي مجمع الزوائد. نقلاً عن جمع **الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي الجزء الرابع، العدد الرابع والعشرون ص ٢٩٦٨، مصدر سابق. ولمزيد من التفصيلات راجع السفر الأول **محمد والصحابة** الفصل الأول ــ التنفير.

(لما قتل كعب بن الأشرف اليهودي وهو رجل من نبهان من طيء الذي كان يؤذي رسول الله (ص) بشعره وسعيه ويحرض العرب عليه... قال رسول الله (ص) من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود بن كعب... بن الحارث بن الخزرج الأنصاري على ابن سنّينة، رجل من تجار يهود، كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان أخوه حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسنّ من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول أي عدو الله، قتلته، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله...)[١٢٧].

نخرج من هذا الخبر ببعض الحقائق:

١ ــ أن كعب بن الأشرف عربي بن نبهان من طيء ولكن أمه من النضير فهو يهودي من جهة أمه، وهذا أمر له اعتداد لدى بني إسرائيل، ولكن المهم أن العرب واليهود كانوا يتزاوجون ولم يكن هناك بأس من زواج العربي من اليهودية.

٢ ــ لما كان قتل ابن الأشرف حدث قبل عركة أُحُد التي نشبت في السنة الثالثة وكان حويصة حتى ذلك الوقت مشركاً، فإن معنى ذلك أن هناك من الأنصار (الأثاربة) من تأخر إسلامه عدة سنين وهو بخلاف ما تصوره الكتابات الحديثة أنه بمجرد وصول محمد أثرب اندفعوا يدخلون في دين الله أفواجاً.

٣ ــ إنه منذ حوالي السنة الثالثة صدر أمر صريح من محمد لأتباعه المسلمين (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه) وهو شأن بالغ الخطور لم ينتبه إليه كثيرون ممن كتبوا في السيرة إذ معناه

(١٢٧) **الاستيعاب** ــ لـ ابن عبد البر ــ المجلد الرابع ــ ص ١٤٦٣ ــ مصدر سابق.

واضح وهو أن محمداً أعلن الحرب على بني إسرائيل أفراداً وجماعات (من رجال يهود فاقتلوه) وبداهة فإن الأمر لا يشمل النسوان والذراري.

٤ ــ أن ابن سنّينة قتيل محيصة كانت له معاملات معهم وعلى صلة طيبة بهم بل كان له فضل عليهم (أما والله لرب شحم في بطنك من ماله).

٥ ــ أن هناك من بني قيلة أو الأنصار أو العرب الأثاربة من كان يسوؤه قتل بني إسرائيل ويأسف لذلك ولا يملك إلاّ أن يذيع علانية توجعه ويطرح أسباب الفجيعة.

تلك كانت جولة سريعة في علاقة العرب اليثاربة (الأنصار) باليهود اليثاربة ولعل القارئ قد أدرك أنها لم تكن ضامرة أو نحيفة وأنها شملت جوانب متباينة. ومن نفل القول أن نضيف أن ذلك أمر طبيعي لمن سكنوا منطقة واحدة مئات السنين، ومن أوضأ ما يشد النظر فيها هو اعتراف بني قيلة أن بني إسرائيل يمتازون عنهم فكرياً وعقائدياً لأنهم أهل كتاب وبذلك كانوا يقرّون بسمو الكتب المقدسة وعلوّ الرسالات السماوية، ولا شك أن ذلك قد ساعد على دخولهم ديانة الإسلام.

كذلك يدرك أن الصلة بين الطرفين لم تتسم بالنفور أو البغض أو الكراهية بل كانت على قدر وفير من الحميمية. بخلاف ما تصورها الكتابات المستحدثة، ولسنا بحاجة إلى القول أن موقف يهود من محمد ودولته وديانته التي كان يفشيها وما نتج عنه من عداء قد انعكس على تلك الكتابات ودفعها إلى تصويرها على غير صورتها الحقيقية.

* * *

المهاجرون

كيف كانت علاقة المهاجرين/ النازحين من مكة بيهود منطقة أثرب؟

فيما سبق أوضحنا من ثنايا الأخبار التي أوردناها علاقتهم بقيادة الثورة وكيف أنها انتهت بهم إلى الإجلاء أو القتل، ولكن كيف كانت صلتهم بعامة النازحين أو المهاجرين؟

لم نستطيع أن نعثر إلاّ على أخبار قليلة متناثرة هنا وهناك، بيد أن الذي يمكننا الاطمئنان إليه أن العلاقة بين الطرفين لم تتسم بالارتياح أو القبول بل كان كلاهما ينفر من الآخر ويتربص له وذلك لأسباب عديدة منها:

١ ــ أن كل واحد منهما كان يبشّر بديانة كتابية فلو كان النازحون أو المهاجرون خلاء من دين (سماوي) لطمع بنو إسرائيل في تهويدهم والعكس صحيح.

٢ ــ أن بني إسرائيل كانوا يدّعون بقرب ظهور نبي جديد، وفي حالة عراكهم مع بني قيلة كانوا يهددونهم به وفي يقينهم الراسخ أنه سوف يأتي منهم لأن عقيدتهم تنص على أن الأنبياء لا يجيئون إلا من بني إسرائيل. فلما ظهر محمد وهو عربي صريح وأعلن أنه نبي أصيبوا بالإحباط وانكسرت شرتهم (حدتهم) لانتصاب الدليل على بطلان دعواهم.

٣ ــ النازحون إلى أثرب (المهاجرون) عرب وبنو قيلة عرب وكان هناك بعض العلائق بينهم أقربها أن بني النجار (بطن من الخزرج) هم أخوال محمد ومن ثم كان من

البديهي أن ينحازوا (= المهاجرون) إلى بني جلدتهم.

٤ ــ وبالمقابل كان المهاجرون على علم تام بوجود أحلاف وولاءات وجوارات بين بني قيلة وبني إسرائيل أحياناً كانت متينة وأخرى كانت واهنة.

وهذا أمر وضعه المهاجرون في بؤرة اهتمامهم ولم يغفلوا عنه لحظة واحدة.

٥ ــ تضاعف الخلاف بين القطبين لأقصى درجة بعد أن تبين لكل ذي عينين رفض بني إسرائيل الإنضواء تحت لواء محمد سواء من ناحية العقيدة أو من الجانب السياسي، وتفاقم الاختلاف إثر مبادرات يهود العدائية إنْ على مستوى الأفراد مثل كعب بن الأشرف وحيّي بن أخطب وغيرهما أو على المستوى الجمعي الذي تمثل في الوقائع التي بدرت من الفروع الكبيرة: قينقاع، النضير، قريظة.

٦ ــ لما وصل المهاجرون/ النازحون إلى يثرب كانت المقدرات المالية والاقتصادية في أيدي بني إسرائيل لأن بني قيلة كانوا أهل زراعة: بساتين، حيطان، كروم، نخيل، زراعات... الخ. وغالبية النازحين كانوا من قريش، والقرشيون مهرة في التجارة فما إن استقر بهم المقام في المدينة حتى شمروا عن سواعدهم وأخذوا ينافسون اليهود في هذا النشاط الحيوي.

ونبدأ في هذا الصدد بالخبر الذي يحكي لنا أن محمداً آخى بين عبد الرحمان بن عوف (القرشي) وسعد بن الربيع (الأنصاري) عرض الأخير على الأول أن ينزل له عن شطر ماله وعن أجمل زوجتيه فرفض ابن عوف

هذا العرض السخي وقال له: (بارك الله عزَّ وجعل لك في أهلك ومالك دلّوني على السوق)[١٢٨].

ولم تمض أيام قلة تاجر فيها في سوق أثرب حتى ربح وراكم مثقالاً من ذهب تزوج به أنصارية (أثربية)[١٢٩].

فهذا يدلنا على مهارة القرشيين في البيع والشراء بالتدريج غدوا خطراً على بني إسرائيل أصحاب الفرادة على السوق التجاري، وعندما سئل أبو هريرة عن علة كثرة روايته لحديث محمد أجاب أنه كان يلازمه على شبع بطنه في حين أن المهاجرين شغلهم الصفق في الأسواق (أي التجارة) والأنصار العمل في الحيطان (البساتين) أي الزراعة.

وكثيرون من مشاهير الصحبة استمروا في امتهان التجارة بعد انتقالهم إلى أثرب منهم:

أبو بكر الذي بعد أن صار خليفة حمل أثواب القماش على كتفه ونزل بها إلى السوق فقابله ابن الخطاب وسأله ماذا تفعل؟ ثم انتهى الأمر إلى أن رتبوا له معاشاً.

ودلالته واضحة وهي مزاولة ابن أبي قحافة للبيع والشراء

(١٢٨) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** أو **السيرة الشامية** للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، المتوفى سنة ٩٤٢هـ الجزء الثالث، ص ٥٣٠، تحقيق أ. عبد العزيز عبد الحق حلمي، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ/ ١٩٧٥م المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

(١٢٩) المثقال زنة اثنين وعشرين قيراطاً إلاّ حبة، وهو أيضاً زنة اثنين وعشرين حبة شعير وقيل إن المثقال منذ وضع ولم يتخلف في جاهلية أو إسلام، **المعجم الاقتصادي الإسلامي** للشيخ أحد الشرباصي، حرف الميم الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الجيل بمصر.

منذ أن وطئت قدماه أثرب حتى توليه الإمامة العظمى. وعن سعيد بن المسيب قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب على المنبر وهو يقول: كنت أبتاع التمر من بطن من اليهود يقال لهم قينقاع فأبيعه بربح، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال يا عثمان: إذا اشتريت فاكتل وإذا بعت فكل، فهنا نجد أن ابن عفان كان تاجراً يمارس البيع والشراء حتى مع اليهود أنفسهم وأن ذلك بلغ محمداً فلم ينهه بل علّمه الأحكام الشرعية المتعلقة بهما.

وفي صحيح البخاري حديث عن عمر بن الخطاب يقول فيه (ألهاني الصفق بالأسواق) تبريراً لفواته سماع أحاديث محمد، وطلحة بن عبيد الله كان يبيع البز في سوق المدينة أو سوق بني قينقاع، وعند حدوث غزوة بدر في إحدى الروايات أنه رحل إلى الشام لجلب بضاعة يتاجر فيها بالمدينة (أثرب) ما يؤكد ما ذكرناه أن اشتغال النازحين (المهاجرين) بالتجارة بدأ مبكراً.

وعبد الله بن عمر بن الخطاب عمل في تجارة الإبل واتخذ من البقيع مقراً لبضاعته، ويبدو أن ذلك قبل تخصيص البقيع جبانة للمسلمين (عن ابن عمر قال: كنت أبيع الإبل بالدنانير وآخذ الدراهم وأبيع بالدراهم وآخذ الدنانير... الخ)[١٣٠].

(١٣٠) **سنن الدارمي**، المجلد الثاني، ص ٢٥٩، د. ت. ن. دار الكتب العلمية، بيروت، وكذلك كتاب **السنن الصغرى** للبيهقي ت ٤٥٨هـ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي وأحمد قباني، المجلد الأول، ص ٤٩٢، الحديث ١٩٩٦/ ٩٠٥، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية بيروت.

وحكيم بن حرام الأسدي القرشي، ابن أخي خديجة، ومن المؤلفة قلوبهم أي من مسلمة الفتح عاش في الإسلام ستين عاماً وتوفي بالمدينة وداره في زقاق الصوّاغين[١٣١]. زوال التجارة في أثرب وجاء إلى محمد يستفتيه في حكم بيع ما لم يقبض (عن حكيم بن حزم قال: قلت يا رسول الله إني أبتاع هذه البيوع فما يحل منها وما يحرم عليَّ؟ قال: يا ابن أخي لا تبيعنّ شيئاً حتى تقبضه)[١٣٢].

من جماع هذه الأخبار يثبت أن القرشيين النوازح ليثرب نافسوا يقوة اليهود في النشاط التجاري وهذا أمر طبيعي له عدة دوافع:

منها أن التجارة طبيعية مركوزة في القرشي وهناك عدة معانٍ لكلمة قريش أشهرها أن التقريش هو جمع المال ومنها أن الاقتصاد وهو عصب الحياة السياسية، وقائد الثورة المحنك، محمد، يعي هذا جيداً فيستحيل أن يترك التجارة وهي النشاط الاقتصادي الأول في أيدي بني إسرائيل، وثالثاً أن القرشيين وهم صفوة العرب كانوان يأنفون من العمل اليدوي وكانت الأنشطة الاقتصادية تتوزع ما بين الزراعة وبعض الحرف مثل: صياغة الذهب والصياغة والحدادة، والخياطة... الخ. ثم التجارة، ومن

(١٣١) **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٣٦٢، مصدر سابق.
(١٣٢) **كتاب السنن الصغرى** للبيهقي ت. ٤٥٨هـ تحقيق عبد السلام الشامي وأحمد القباني، المجلد الأول، ص ٤٩١، الحديث ١٩٨٩/ ٩٠٢ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

غير المقبول لدى القرشي أن يتحول إلى زَرّاع أو أن يمتهن حرفة من الحرف التي أشرنا إليها والتي عادة لا يقوم بها إلاّ العبيد والموالي والزعانف واللصقاء والخلعاء... الخ وينظر إليها العربي (العادي) نظرة ازدراء فما بالك بـ (القرشي) إذن لم يكن أمام القرشيين سوى التجارة.

وهذا السبب هو أحد أبرز أسباب نفور الطائفتين من بعضهما البعض = النوازح واليهود.

٧ ــ أن القرشيين كانت لديهم ثقة شديدة في أنفسهم فهم أهل الحرم، ودرج عرب الجزيرة جميعهم على تعظيمهم واعتبر الإصهار إليهم من المكارم التي يتيه بها من يناله، فإن كان ذلك حالهم مع غيرهم من العرب فما بالك بمن عداهم من غيرهم.

وقد ضاعف اعتزاز القرشيين بذواتهم ظهور محمد منهم وإعلانه النبوة، ومن الجانب الآخر فإن اليهود كانوا يفتخرون بنسبهم إلى إسرائيل (يعقوب) وبديانتهم أقدم ديانة سماوية وبكتابهم المقدس، ونتيجة لذلك كان كل طرف يرمق الآخر بتعالٍ وشموخ وكل له حيثياته التي تخوّل له أن يفعله.

تلك في رأينا أهم العلل الكوامن وراء الشعور العدواني الذي تبادله المهاجرون وبنو إسرائيل في مجتمع أثرب.

* * *

ولكن الإحساس بعدم الارتياح والنفور بين الطائفتين لم يمنع من التعامل بينهما، فقد رأينا في حديث عثمان أنه كان يبتاع التمر من بني قينقاع، أول من أجلاهم محمد

عن أثرب، وكان بالمدينة سوق ينسب إليهم يسمى (سوق بني قينقاع)، الأمر الذي يقطع بأن لهم باعاً طويلاً في التجارة، ولكن تماس القرشيين بيهود لم يقتصر على النشاط الاقتصادي، ذلك أن بني إسرائيل أصحاب أقدم ديانة سماوية وكتاب مقدس له خطر وشأن وبالإضافة إلى ذلك كان لهم معهد علمي ديني في أثرب (مدارس) والاسم مشتق من الدراسة والدرس والتدارس... الخ، وكان فيهم أحبار أي رجال دين، ومن اللافت للنظر أن القرآن وصفهم بـ (العلماء) في الآية (أوَلم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)[١٣٣]. كما سمّاهم الربانيين ولم يظفر بلقب العلماء من رجال الدين في الديانتين اللاحقتين = المسيحية والإسلام سواهم.

والقرشيون ــ لا جدال ــ عرفوا ذلك وأدركوه، وبعد أن كانوا يسمعون عنه رأوه بأعينهم ولمسوه بأيديهم وكما يقول المثل (ليس راءٍ كمن سمع)، وبدلاً من أن يقابل بنو إسرائيل تنويه القرآن بأحبارهم ووصفهم بـ (العلماء الربانيين) بالشكر والعرفان ركبهم الصلف والغرور فدخلوا في خصومة فكرية عقائدية مع محمد حول رسالته ونبوته وملاك الرب الذي ينزل بالوحي عليه والمدة التي سوف يقطعها عمر أمته... الخ والأسماء التي أوردتها كتب السيرة عن الأحبار والسادات والأشراف اليهود الذين دخلوا في منازعة (فكرية/ عقائدية) معه تشد الانتباه لكثرتها وتنوع البطون التي ظهرت منها حتى إنه

(١٣٣) ١٩٧ من **سورة الشعراء**.

يمكن القول إنها شملت كل بطون وأفخاذ يهود منهم: عمر بن جحاش، كعب بن الأشرف، فنحاص، الربيع بن أبي الحقيق، كنانة بن الربيع، سلام بن أبي الربيع، حُيّي وياسر وجُدّي أولاد أخطب، الزبير بن باطا، شاس بن قيس، وهب بن يهوذا، مالك بن الصيف، والروافع: رابع بن حريملة، ورافع بن حارثة، رافع بن خارجة، آرز بن أبي آرز، لبيد بن أعصم (لم يكتف بالجدل بل حاول إيذاء محمد بـ (العمل)، كنانة بن صورياء، الحجاج بن عمرو، كردم بن قيس، محمود بن سيحان.. الخ ويلاحظ القارئ أن الكثيرين من أصحابها يحملون أسماء عربية خالصة: محمود، عمر، ياسر، مالك، الزبير، رافع، كعب، عمرو، قيس... الخ ما يقطع بأن العرب الذين تهوّدوا في سهل أثرب لم يكن عددهم مهزولاً، ووفرة هؤلاء الأشخاص وتعدد القبائل التي جاءوا منها يعني أن مساجلاتهم مع قائد الثورة شغلت حيزاً وسيعاً من وقته ــ على الأقل ــ في السنوات الأولى قبل أن ينتهي إلى التصرف معهم بالصورتين اللتين أوردناهما، وإن المرء ليشعر بالأسى الشديد أن كتب الأحاديث والسنن لم تحمل لنا تلك المحاورات والمجادلات باستثناء قدر ضامر نحيل لا يسمن ولا يغني من جوع، ولو أنها فعلت لحصلنا على ثروة فكرية عقائدية لا تقدر بثمن كان من شأنها أن تساعد على إضاءة كثير من الإشكاليات الفكرية الحارقة، بيد أن الدافع وراء إغفال الرواة لها لا يخفى على القارئ اللبيب الفطن أو أنها رويت ولكنها أُسقطت عند تدوين السنّة لذات الباعث؛ وأياً كان الأمر

فالذي لا مشاحة فيه أن تغييبها شكّل خسارة فكرية فادحة[١٣٤].

* * *

وإذا غادرنا السجال الذي دار بين قائد الثورة وأحبار يهود وزعمائهم فإننا على المستوى الأدنى نلمس بوضوح نظرة النوازح القرشيين إلى يهود بصفتهم أهل كتاب **(**دخل أبو بكر على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها فقال أبو بكر أرقيها بكتاب الله يعني: التوراة والإنجيل**)**[١٣٥]، باستقراء هذا الخبر نخلص منه بالآتي:

١ ــ أبطاله هم عائشة أحب زوجات محمد إليه والتي أوصى تابعيه أن يأخذوا نصف دينهم منها والتي يشهد لها الجهابذة بأنها من علماء الصحابة ثم أبو بكر أبوها وأخلص جنوده الثورة للقائد وشريكه في رحلة الهجرة، وثالثاً يهودية على قدر من العلم لأنها ترقى والشخص لا يغدو راقياً إلاّ إذا وصل إلى درجة معينة من العلم وكان (الرَقْيّ) عملاً أو وظيفة لها اعتبارها في ذلك المجتمع.

٢ ــ أن عائشة لم ترَ بأساً أن ترقيها يهودية وبداهة أنها لم تكن ترقيها بآيات من القرآن بل بإصداحات من كتابها المقدس ــ التوراة.

٣ ــ وافق أبو بكر على ما كانت تفعله اليهودية مع ابنته عائشة

(١٣٤) إذا أردت معرفة لائحة أسماء الأحبار الذين جادلوا محمداً فعليك بالجزء الثاني من كتاب **السيرة النبوية** لابن هشام في الفقرة التي تحمل عنوان (عداوة اليهود).
(١٣٥) **عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري** ٢١/ ٢٦٢.

بل بصريح اللفظ طلب منها أن ترقيها بالتوراة والإنجيل ووصف كلاً منهما بأنه (كتاب الله).

٤ ـــ أنه والحال كذلك يجوز للمسلم أن يسترقي بما في التوراة والإنجيل ـــ ولا غضاضة على دينه في ذلك ولا يقدح في إسلامه إذ وصف أياً منهما بأنه كتاب الله.

وعلى كل الأحوال فإنّ هذا الخبر على إيجازه يدل على أن النازحين إلى يثرب (المهاجرين) ممثلين في شخصيتين من أهم شخوصهم (فضلاً عن قرشيتهم فهما على صلة حميمة بمحمد) ينظرون إلى كتاب اليهود الأقدس نظرة تقدير وإكبار «فهو بحد تعبير ابن أبي قحافة: «كتاب الله» بل وإنه أضاف إليه إنجيل عيسى ـــ وأنهما مما يستشفى بهما.

* * *

ذكرنا فيما سبق أنه كان ليهود مدراس في أثرب/ المدينة، أشبه بمعهد ديني أو مركز بحث يتدارسون فيه كتابهم المقدس (اصطلح على تسميته التوراة) ويعتبر نقطة إنطلاق لفعاليات التبشير بديانتهم، وأسلفنا أن بين الصحبة من نستطيع أن نطلق عليهم ولو من باب التشبيه (الانتلجنسيا) وهم أصحاب النفوس الطُلعة والعقول الظمأى إلى العلم العطشى إلى المعرفة، فقد وجدوا في المدارس ما يبلّ ريقهم النشف إلى الفهم والشرق إلى الفقه خاصة أن القرآن ذكر شطراً من قصص بني إسرائيل وأنبيائهم ومواقفهم منهم فحجوا (قصدوا) إلى المدارس ويمموا شطره لينهلوا مما في صحفه وكتبه ومتونه وشروحه من فقه وعَرفان، ومن هؤلاء عمر بن الخطاب الذي امتاز عن كثير من الأصحاب بسعة الأفق وجودة الرأي واستقلال التفكير:

(عن عمر بن الخطاب قال: انطلقت فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به من أدم فقال لي رسول الله (ص) ما هذا في يدك يا عمر؟ فقلت: يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد علماً إلى علمنا فغضب رسول الله (ص) حتى احمرت وجنتاه ثم نُودي بالصلاة جامعة)... الخ[١٣٦].

وهو حديث تجده في العديد من دواوين السنّة، وكلمات عمر التي وردت به تشي بنظرة النازحين (المهاجرين) وعلى الأخص ما يمكننا أن ننعتهم بالطبقة أو الفئة المثقفة بنظرتهم لليهود، فهو يخبرنا أنه توجه بنفسه (طبعاً إلى المدارس) ونسخ من علمهم ما قدر عليه وسطره في جلد وهذا بذاته يدل على تقدير عمر لثمانته إذ كانت هناك أدوات يمكن الكتابة عليها أقل قيمة من الأدم مثل الأحجار الرقيقة وعُسُب النخيل[١٣٧]. ثم يصرح ابن الخطاب بالعلة الباعثة له على ذلك، (لنزداد علماً) أي أن لدى بني إسرائيل علماً يشكل زيادة على ما لدى المسلمين من علم. أما سبب غضب محمد فقد تناولناه بالتحليل في موضع آخر[١٣٨].

(ودخل أبو بكر الصديق بيت المدارس على يهود فوجد منهم أناساً كثيراً قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر من أحبارهم...)[١٣٩]. وبقية الخبر

(١٣٦) أخرجه أبو يعلى عن خالد بن عرفطة وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي ونصر المقدسي، كذا في **كنز العمال** ج ١ ص ٩٤، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه وغيره عن إبراهيم النخعي نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ١٢٤ ــ ١٢٥، مصدر سابق.

(١٣٧) (جمع عسيب وهي جريدة النخل المستقيمة يكشط خوصها) من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

(١٣٨) انظر كتابنا **شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة**، السفر الأول **محمد والصحابة**، الفصل الأول، **التنفير**، سينا للنشر مصر ومؤسسة الانتشار العربي بيروت.

(١٣٩) **السيرة النبوية** لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف، الجزء الثاني، ص ٢٧٧، طبعة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م مكتبة الحاج شقرون، بمصر.

أنهما (أبا بكر وفنحاصاً) دخلا في حوار ديني فلم يتحمل ابن أبي قحافة جدل اليهودي فضرب وجهه ضرباً شديداً فشكاه إلى محمد، وكالعادة في مثل هذه الحالات قرأ محمد آية من القرآن حلّت المشكلة إذ انضوت على تصديق لابن أبي قحافة ورد على اليهودي فنحاص ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية ١٨١ من سورة آل عمران[١٤٠]. وهذا الخبر رواه عكرمة والسّدي ومقاتل ومحمد بن إسحق ومجاهد[١٤١]. كما أخرجه ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١٤٢]. بهذا التوثيق الشديد لهذا الخبر يرتفع عنه أي شك ويزول أي ريب.

فهذا أبو بكر ــ وهو من هو ــ يدخل مدراس بني إسرائيل ويجلس إلى الربانيين والأحبار والعلماء منهم ويدخل معهم في حوارات دينية، ما يعد من ابن أبي قحافة تسليماً بامتلاكهم ناصية علوم الدين. وهو في ذلك لم يخالف التعليمات عندما ولج مدراس يهود إذ أُثر عن محمد أنه (ودخل رسول الله (ص) بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله...)[١٤٣]، ولكن دخوله المدراس كان للدعوة أي للتبشير بالدين الذي يدعو إليه فهناك فارق في السبب واختلاف في العلة. إذن تماس المهاجرين (النوازح) إلى المدينة ببني إسرائيل تمثل في هيئتين: الأولى، النشاط التجاري. الأخرى، النشاط الثقافي أو الفكري، ولو أن الأخيرة خمصاء مهزولة لأنها كانت تُقابل بغضب قائد الثورة وسخطه

(١٤٠) المصدر ذاته والجزء نفسه، ص ٢٧٨.
(١٤١) **أسباب النزول** للواحدي، ص ٨٨ ــ ٨٩ مصدر سابق.
(١٤٢) **أسباب النزول** لجلال الدين السيوطي ص ٤٦، طبعة ١٣٨٢هـ، كتاب التحرير، مصر.
(١٤٣) **السيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الثاني، ص ٢٧٤ مصدر سابق.

الشديدين. ومهما يكن الأمر، فإنه على الرغم من أن مدينة القداسة ــ بكّة ــ التي وفد منها النوازح لم تكن خلاء[١٤٤] من اليهود فإن مساكنتهم في أثرب لهذه الجموع الكثيفة من بني إسرائيل واحتكاكهم بهم ومعاملتهم إياهم ورؤيتهم لدورهم ومتاجرهم وملابسهم وطعومهم... الخ من المستحيل ألا تترك بصماتها عليهم حتى ولو كانت المدة قصيرة نسبياً، ولو أن هذا التحفظ لا ينسحب على يهود خيبر الذين تركهم محمد بها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب لأنهم فدعوا[١٤٥] أطراف ابنه عبد الله.

* * *

(١٤٤) **الخلاء** المكان الخالي، من **(الممدود والمقصور)** لأبي الطيب الوشاء، تحقيق د. رمضان عبد التواب، سلسلة روائع التراث اللغوي/ ١ ــ ١٩٧٩م، مكتبة الخان جي بمصر.

(١٤٥) في **المعجم الوسيط: فدع:** كسر ــ أطراف ابنه عبد الله.

الأوس والخزرج

لم يكن بنو قيلة يداً واحدة بل كان العداء بينهم مستحكماً رغم الوشائج الحميمة التي من المفروض أن تشبك بينهم، ولسنا بصدد تأريخ لهم ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى أصولهم اليمانية ثم نزوحهم إلى شمال الجزيرة العربية وتاريخه وسببه لأنه يند عما نحن بصدده، وكل الذي يعنينا في نطاق بحثنا حالتهم قبيل النزوح أو الهجرة، فقد اندلعت الحروب بين الفرعين واستمرت سنين عدداً كان لكل منهما نصيره من اليهود كما رأينا في ما سلف ولا نرى داعياً لتكراره قطعاً للإطالة والإملال.

وأهم الوقائع كان يوم بعاث وفيه انتصر الأوس على الخزرج رغم قلة عددهم النسبي، ويرجع بعض المؤرخين ذلك الانتصار إلى أن الأوسيين استعانوا بعرب من خارج أثرب كما كان لكل من بني النضير وبني قريظة دورهم الذي لا ينكر، وكاد الفريقان أن يتفانيا (يفني بعضهم البعض) وحدثت محاولة للم الشمل ورأب الصدع وإعادة الألفة وإرجاع الوئام عن طريق تنصيب عبد الله بن أبيّ بن سلول الخزرجي حاكماً على أثرب ولكن وصول محمد حال دونه، بيد أن الأثاربة العرب، بني قيلة أو الأنصار أو الأوس والخزرج قد استفادوا من هجرة محمد وأتباعه إلى قريتهم إذ إن نقل الثورة إليهم شغلهم عن الحزازات التي أوشكت أن تأكلهم فقد وجدوا فيها (الثورة) ما يمكننا أن نسميه ــ مستعيرين في ذلك مصطلحاً حديثاً ــ مشروعاً قومياً يحول قريتهم من وضع مُصَلٍّ (تالٍ) لمكة إلى حاضرة الثورة والدولة التي تقيمها فيها والتي ستمد هيمنتها على أنحاء الجزيرة العربية كلها، خاصة وأن الأنصار كما أسلفنا كانوا عاطفيين يغلبهم الوجد فظنوا أن الدولة هي دولتهم أو

على الأقل سيغدو لهم شطيراً منها حتى أفاقوا على مشهد تاريخي مؤثر وهو صدور أمر من محمد قائد الثورة وهم يدخلون مكة مستقر الصناديد أعداء الثورة والدولة الألداء، بنزع الراية من سعد بن عبادة زعيمهم وكبيرهم وتسليمها إلى عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي، يضاف إلى ما سبق شخصية محمد الكارزمية السيادية الآسرة، نتيجة لهذين العاملين حدث قدر من الائتلاف أو حتى التآخي بين الخزرجيين والأوسيين ولكن أبداً لم يحدث انصهار كامل أو توحد شامل كما تصوره كل الكتابات الحديثة على بكرة أبيها، فقد ظلت النار كامنة تحت الرماد، فعندما كانت تحين الفرصة للفتنة تطل بوجهها الكئيب وتبرز بسحنتها الشوهاء كما تخبرنا الوقائع التي حملتها مصادر وثقى. إنما قبل أن نسرد أمثلة من تلك النوازل نشير إلى حقيقة بالغة الأهمية لا ندري هل أغفلها الباحثون المُحْدثون عن عمد أم أنها غابت عن فطنتهم؟ ونحن من جانبنا نرجّح الفرض الأول، تلك الحقيقة الدامغة هي أن حماس الأوسيين لثورة محمد كان فاتراً ولعل أقوى دليل نطرحه هو أن مشاركتهم في وقائعها جليلها ودقيقها لا تتناسب مع تعدادهم، والأرقام لا تعرف العواطف ولا دخل لها بالميول ولا تتحكم فيها الأهواء: فبيعة العقبة الأولى لم يحضرها من الأوس سوى اثنين بينما حضرها من الخزرج عشرة (خمسة أضعاف) والعقبة الثانية شهدها أحد عشر أوسياً وإثنان وستون خزرجياً (ما يقرب من ستة أضعاف). أما غزاة بدر الكبرى فقد حارب إلى جانب محمد ثلاثة وستون أوسياً في حين أن عدد الخزارجة مائة وخمسة وسبعون (أقل قليلاً من ثلاثة أضعاف)، أما في عركة أحد فيذهب ابن سيد الناس أن من استشهد فيها ثمانية وثلاثون من الأوس وسبعة وخمسون من الخزرج (أي مرة ونصف) أما ابن

إسحق فيقول إنهم أربعة وعشرون من الأوس وسبعة وثلاثون من الخزرج (النسبة نفسها)[١٤٦].

وإثنان من الثلاثة تخلفوا عن غزاة تبوك كانا من الأوس وهما هلال بن أمية الواقفي ومرارة بن الربيع، تلك كانت مجرد أمثلة سريعة لأننا لسنا بصدد القيام بإحصاء نتلوها بذكر واقعتين لهما دلالة لا تخفى:

أ ــ الذين بنوا مسجد الضرار كانوا من الأوس.

ب ــ رئيس المعارضة الدينية أبو عامر الراهب (سماه محمد بالفاسق) والذي انسحب من المدينة ومعه خمسة عشر رجلاً وقيل خمسون: أوسي.

هذه النوازل تؤكد خمود جذوة حماس الأوسيين في مناصرة الثورة التي قادها محمد والديانة التي كان يفشوها، ولكن بماذا نعلل ذلك الموقف؟ نجيب بالتالي:

١ ــ أن محمداً له أخوال في الخزرج وحصراً وتحديداً في بني النجار الأمر الذي يضاعف في مكانة وهيبة الخزارجة أعداء الأوسيين التقليديين ومنافسيهم اللدودين في السيطرة على أثرب.

٢ ــ أن الأوس كانوا قد انتصروا انتصاراً مؤزراً في يوم بعاث وهجرة (نزوح) محمد وجنوده إلى قريتهم وتحويل مقر الثورة إليها طيّرا من أياديهم الثمرات الشهية الناضجة لذلك النصر.

(١٤٦) **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** لابن سيد الناس، الجزء الثاني، ص ٣١، دار المعرفة لبنان.

٣ ـــ العلاقات الوطيدة التي ربطت الأوس بفرعي اليهود القويين: النضير وقريظة.

* * *

بعد هذا المدخل الموجز لعل الأوان قد آن لسرد بعض الوقائع التي تقطع بأن العلائق بين الأوس والخزرج وإن بدت في الظاهر على قدر من الوئام، إلاّ أنه تحت هذا السطح البرّاق ظلّت كما كانت وأن الجهود الجبارة التي بذلها قائد الثورة لتوحيد هذا الفصيل (الذي أسماه: الأنصار) وقفت في طريقها الإحن القديمة والثارات البايتة[١٤٧]، والأحقاد الموروثة والعداوات الكامنة والخصومات المخبوءة: التي تتخلل الأحشاء، وتغلي في البطون وتتوقد في الصدور وتلتهب في القلوب، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن أولئك القوم كانوا يعيشون في العصور الوسيطة وفي سهل لم تطأه الحضارة ومن ثم كانوا يملكون قسطاً وفيراً من البداوة، وكانت عادة الأخذ بالثأر تملك عليهم ألبابهم وتتغلغل في أعماق نفوسهم وتتجذر في وجدانهم، ومثل هذه الأنساق الاجتماعية الحارقة تغدو من السذاجة بمكان إذا تصورنا أنها تمحّى في عقد من السنين أو تؤثر فيها الخطب البليغة والمواعظ المُعجبة ولكنها تزول بتغيير الظروف المادية وما يستتبعها من تنوير تابع لها وسبق أن ذكرنا أن تحويل المجتمعات يبدأ بتطوير البُنى التحتية وتثويرها وخلخلتها ولا يجيء من فوق مهما كانت كفاءة أو كفاية (الفوق)، وكدأبنا في الحرص على تقديم الدليل:

عندما تدفقت الأموال الأسطورية والغنائم ذات الأرقام الفلكية على منطقة الحجاز وخاصة المدينة/ أثرب التي كانت حاضرة

---

(١٤٧) بات بياتاً ومباتاً: أدركه الليل نام أو لم ينم، من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

الأمبراطورية ومصب الثروات العريضة التي نُزحت وكُسحت وكُشطت من البلاد المفتوحة الموطوءة وتدفقت في خزائن الصحاب ونال (الأنصار) منها ما نالهم، لم نعد نسمع شقشقة الأوس والخزرج ولا هدرها، لقد توارت واندثرت إذ لم يعد لدى الأنصار وقت لذلك، لقد تغيرت لغتهم إلى الدرهم والدينار والقفيز والضيعة والإقطاعة والدار والقصر والجارية والعبد... الخ وكان ذلك حتماً مقضياً وقدراً مقدوراً ونتيجة لازمة لتبدل ظروفهم المادية، والعجب كل العجب ممن لا زال يماري في صحة هذا التفسير لتحويل المجتمعات وممن لا زال يتمسك بالتفسير الطوباوي لأحداث التاريخ والذي حتى هذه اللحظة يعتقد أو حتى يظن مجرد ظن أن الشعوب تتبدّل أحوالها بمجرد سماعها النصوص المعجزة؛ ومن يتمادى فيرى أن التاريخ عملية استردادية فليس على من يعيشون في الحاضر من هم أو هِمّة أو اهتمام إلاّ استرجاع الماضي الذي ينعتونه بالذهبي (مع أنه وصف فضفاض) والاحتذاء به والسير على منواله والعض بالنواجذ على محاكاته والتمسك بتقليده وأن الانحطاط والتخلف والتدهور... الخ كلها سوف تزول ــ بقدرة قادر ــ إذا ما عدنا إلى تلك الحقبة المثالية، ولا يوجد توضيح كيف يتسنى استرجاع فترة ولت منذ خمسة عشر قرناً؟

وكيف يستطيع من هو في القرن الواحد بعد العشرين أن يعيش بالطريقة نفسها التي كانت سائدة في القرون الوسطى؟ بعد هذه الاستطرادة نعود إلى سياقة الحديث ونذكر الأمثلة التي وعدنا بها:

١ ــ (روى قتادة عن أنس قال: افتخرت الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة، ومنا الذي حمته الدَبْر (ذكور النحل) عاصم بن ثابت ومنا الذي اهتز لموته عرش الرحمان: سعد بن معاذ ومنا الذي

أُجيزت شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت، فقال الخزرجيون: منا أربعة نفر قرأوا القرآن على عهد رسول الله (ص) لم يقرأه غيرهم: زيد بن ثابت وأبو زيد وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل)[١٤٨]. الفخر بالعصبية لم يتركه بنو قيلة، ومن الطريف أن مباهاة كل فريق مردها وقائع حدثت بعد هجرة محمد وأصحابه لقريتهم وجعلها مقراً للثورة فماذا يعني ذلك؟

يعني أن فرعي اليثاربة العرب استثمروا النوازل الطارئة للمباهاة والعنجهية والتعاظم مع أن المفروض فيمن أتاها (فعلها) أنه كان يقصد بها وجه الله ولو انتوى بها تفخيم رهطه أو قبيلة لحبط عمله وردت عليه وذهب أجره وبطلت مثوبته هكذا كان يعلّمهم محمد، بيد أن إكراهات الماضي كانت تلاحقهم.

٢ ــ بعد عركة بدر الكبرى نهض كعب بن الأشرف ــ من يهود بني النضير كما ذكرنا ــ وكان شاعراً، يرثي صناديد قريش الذين قتلوا فيها ويحرض على قتال محمد ويؤذيه ويدعو إلى خلافه ويسب المسلمين.

(فقال رسول الله (ص) من لي بابن الأشرف فقال له محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا أقتله إن شاء الله قال: فافعل إن قدرت على ذلك[١٤٩]. وتحدث محمد بن مسلمة إلى كل من

(١٤٨) **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الثاني، ص ٦٧، طبعة دار الشعب بمصر.
(١٤٩) **الدرر في اختصار المغازي والسير** لابن عبد البر، تحقيق د. مصطفى أديب البغا، ص ١٥٢ وما بعدها، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سوريا.

أبى نائلة سلكان بن سلامة بن وقش وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة (سبق أن ذكرنا أن أم كعب بن الأشرف من بني النضير) وعبّاد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ وأبا عبس بن جبر (فاعلمهم بما وعد رسول الله (ص) من قتل ابن الأشرف فأجابوه إلى ذلك وقالوا: كلنا يا رسول الله نقتله ثم أتوا رسول الله (ص) فقالوا: يا رسول الله إنه لا بد لنا أن نقول فقال: قولوا ما بدا لكم[١٥٠]. فذهبوا إلى ابن الأشرف وحادثوه ساعة وتناشد كعب وأبو نائلة (وكان شاعراً أيضاً) الشعر ثم قال له (يا ابن الأشرف إني جئت في حاجة أذكرها لك فاكتم عليّ، قال: افعل، قال: إن قدوم هذا الرجل (يعني النبي (ص) علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أحدثك يا ابن سلامة أن أمركم سيصير إلى هذا...)[١٥١].

وبقية القصة أنهم قتلوا ابن الأشرف (فأتوا رسول الله (ص) في آخر الليل وهو يصلي فأخبروه... وأطلق رسول الله (ص) المسلمين على قتل يهود)[١٥٢]، هؤلاء النفر الذين قتلوا كعب بن الأشرف كلهم من الأوس ومن الطبيعي أن هذا العمل من جانبهم حرّك في الخزارجة نوازع المنافسة الكامنة تحت السطح.

* * *

(وكانت الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحول، لا تصنع الأوس شيئاً فيه، عن رسول الله (ص) غناء إلاّ قالت الخزرج والله لا

(١٥٠) المصدر ذاته والصفحة نفسها.
(١٥١) المصدر نفسه ص ١٠٣.
(١٥٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

يذهبون بذلك فضلاً علينا ولا ينتهون حتى يوقعوا مثله، وإذا فعلت الخزرج شيئاً كفضل في الإسلام أو بر عند النبي (ص)، قالت الأوس مثل ذلك.

فتذاكرت الخزرج من في العداوة لرسول الله (ص) كابن الأشرف فذكروا ابن أبي الحقيق واستأذنوا رسول الله (ص) في قتله فأذن بهم.

فخرج إليه خمسة نفر من الخزرج من بني سلمة وهم:

عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة بن ربعي ومسعود بن سنان وخزاعي بن أسود حليف لهم من أسلم)(١٥٣).

وبقية القصة أنهم قتلوا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق ليلاً فاختلفوا في من قتله واحتكموا إلى محمد فحكم بأن قاتله هو عبد الله بن أنيس. والذي لا شك فيه أن هذه المنافسة بين الحييْن (الأوس والخزرج) قد أفادت دولة قريش التي أسسها محمد في أثرب أيما إفادة خاصة في مجال تصفية أعدائها جسدياً وهذا ما شدّ إليه الانتباه منذ قديم واعتبر من فضل الله على محمد.

حدثني الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: ما صنع الله لرسوله أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين لا تصنع الأوس شيئاً إلاّ قالت الخزرج والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا وكذلك الأوس فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف تذكرت الخزرج من رجل له من العداوة لرسوله الله (ص) كما كان

(١٥٣) **الدرر في اختصار المغازي والسير** لابن عبد البر، ص ٢٠٩، مصدر سابق، **والسيرة النبوية** لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف، الجزء الثالث، ص ٢٦٥، طبعة ١٣٩١هـ، مكتبة الحاج شقرون بمصر.

لكعب؟ فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر... الخ)[١٥٤].

نركّز على عبارة عبد الله بن كعب بن مالك التي أوردها ابن هشام: (السيرة) وابن حجر العسقلاني في (الفتح) وهي (أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين) إذ إنها تصور بدقة متناهية حال الفرقتين وذلك يتضح مما يجيء تفسيراً لتلك العبارة: (في المصباح المنير) صال الفحل وثب والفحل البعير وفي المعجم الوسيط صال عليه صولاً سطا عليه ليقهره وصال الجمل عَضَّ، وصاوله غالبه ونافسه في الصول وتصاولا تنافسا في الصول)[١٥٥]. وعند الإمام محمد بن أبي بكر الرازي (صال عليه استطال، وصال عليه وثب والمصاولة المواثبة)[١٥٦]. ويفسرها العلاّمة مجد الدين الفيروزآبادي بأنها (سطا واستطال ووثب)[١٥٧]. أما مجمع اللغة العربية في مصر فيذهب إلى أن (صال عليه: سطا عليه ليقهره وصال الجمل عضَّ وصاوله: نافسه وغالبه والصولة في الحرب ونحوها: السطوة)[١٥٨].

تلك كانت أحوال العلاقة بين الأوس والخزرج إبّان حياة محمد: مصاولة، مغالبة، منافسة، عض، سطو، استطالة، وثب، سطوة، قهر، كما وصفها لنا حديث رواه الزهري

(١٥٤) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** للإمام ابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، ج ٧، كتاب **المغازي** ص ٣٩٧ الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ المكتبة السلفية بمصر. **السيرة النبوية** لابن هشام ج ٣ ص ٢٩٥، مصدر سابق.
(١٥٥) **الدرر**، ص ٢٠٩، مصدر سابق.
(١٥٦) **مختار الصحاح**، حرف الصاد.
(١٥٧) **القاموس المحيط**، فصل الصاد باب اللام.
(١٥٨) **المعجم الوسيط**.

أحد أعلام المحدّثين. ولكن تلك الأحوال تبدلت عندما انتفخت جيوب الفريقين وامتلأت خزائنهم من الأموال الاسطورية التي نُهشت من البلاد الموطوءة حتى نهكت[١٥٩].

وشيئاً فشيئاً اندثرت التفرقة بينهما بعد أن انطفأت جذوة العداوات والإحن والأحقاد إثر انشغالهم بالظروف الجديدة التي طرأت عليهم والتي لم يحلموا بها لا في منام ولا في يقظة.

٣ ــ هذه الوقعة تؤيد تماماً صحة ما ذهبنا إليه وهو أن نار العداوة وكانت مخبوءة في الصدور وأنها ما إن وجدت فرصتها حتى مرقت من كنانها وكشرت عن أنيابها وقد حدثت بعد السنة الخامسة لأنها جاءت في أعقاب غزوة بني المصطلق ولو أن سببها وقع إبّانها والتي يؤرخها الثقاة من المؤرخين في شعبان سنة خمس، أي في منتصف المدة التي قضاها محمد في أثرب/ المدينة، وبصريح العبارة أن تلك الأعوام لم تغير من شعور كل طرف نحو الآخر، هي تتعلق بحديث الإفْك المشهور وقد تولى كبره عبد الله بن أبيّ بن سلول، ولم يكن ذلك منتظراً منه، وفي كثير من الأحيان تطغى عاطفة الكراهية على الحِجَى وتغطي العقل وتلخم[١٦٠]، التفكير، فرغم ما عرف عنه بجودة الرأي وصواب المشورة إلاّ أنه تولى كبر الإفك

(١٥٩) في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب وفي زمن الرمادة (المجاعة) التي ضربت أثرب/ المدينة أرسل والي مصر عمرو بن العاص قافلة بكافة صنوف المؤن والطعوم وصل أولها المدينة أثرب وكان آخرها لا زال في الفسطاط!!!

(١٦٠) في **المعجم الوسيط**، اللخمة: الارتباك.

وتردى في حمأته وتمرغ في نتنه فآذى ذلك محمداً أبلغ الإيذاء.

(فقال رسول الله (ص) فاستعذر من عبد الله بن أبيّ وهو على المنبر فقال يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما يدخل على أهلي إلاّ معي... فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، فإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا فعلنا أمرك، فقام... سيد الخزرج سعد بن عبادة وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين... فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر فلم يزل رسول الله (ص) يخفضهم حتى سكتوا وسكت)[١٦١].

هذا الحديث أورده البخاري عن عائشة في صحيحه وفي سلسلة رواته محدثون أكابر مثل ابن شهاب الزهري وعروة بن الزبير وسعيد بن المسيّب وغيرهم، والخبر لا يخلو منه كتاب من كتب علوم القرآن ودواوين الحديث والسيرة النبوية، وإذا تفرسنا فيه خرجنا منه بحقائق على قدر كبير من الخطر (القدر):

١ ــ أن زعامة سعد بن معاذ الأوسي بلغت حداً جعله يقرر

(١٦١) **صحيح البخاري، كتاب المغازي**، حديث الإفك، **والسيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الرابع، ص ١١ مصدر سابق، **ومنهاج السنّة النبوية** لابن تيمية، المجلد الثاني، ص ٢٢١، مصدر سابق.

بمنتهى البساطة أنه قادر على قطع رقبة أي أوسي يرتكب خطأ أو خطيئة أي أن التنظيم القبلي لم يتبدل وأن قيام دولة قريش في أثرب لم يسلب زعماء العشائر سلطانهم التقليدي.

٢ ــ أنه لا مانع لدى الأوسيين من تنفيذ عقوبة القتل في أي واحدٍ من الخزارجة يشير إليه محمد ولم يقل ابن معاذ أنه على الخزرجيين أن يقوموا بذلك.

٣ ــ والأهم من ذلك أن سيد الأوس ترجم عبارة محمد (من يعذرني) بأنها القتل والتصفية الجسدية لأنه واثق أنه ليس من حيه بل من الجانب الآخر.

٤ ــ ولكن ربما نلتمس لسعد بن معاذ العذر في ترجمة تلك العبارة هذه الترجمة العنيفة، لأن اثنين من الذين آذوا محمداً هما كعب بن الأشرف وأبو رافع بن أبي الحقيق كان مصيرهما القتل وربما ما نسب إليهما من أذية لمحمد قد لا يبلغ الحد الذي تدنّى إليه حديث الإفك.

٥ ــ أنه لم يكن محظوراً أن يتسابّ الصحبة ويرموا بعضهم بعضاً بتهم شنيعة مثل الكذب والنفاق في المسجد وبحضور محمد نفسه، ولكن على أيدي الفقهاء تحوّل المسجد ــ أي مسجد ــ إلى قُدُس الأقداس لا يجوز الكلام فيه إلاّ همساً وفي أمر عبادي، وهذه صورة سريعة أو مثال خاطف للدور الذي قام به الفقهاء في تحجير الدين وتكليسه.

٦ ــ أُسيد بن حضير الذي ألصق بزعيم الخزرج سعد بن عبادة

تهمتيْن شائهتين الكذب والنفاق بل هما كبيرتان ولم يكتف بذلك بل نسب إليه حماية المنافقين وهو ما يقرب من جناية الخيانة العظمى، أُسيد هذا هو ابن حضير الكتائب زعيم الأوس يوم بُعاث الذي انتصر فيه الأوس على الخزرج، ولعل وقائع ذلك اليوم كانت حاضرة في ذهنه، قائمة في ذاكرته، وسبق أن قلنا إن هجرة (نزوح) محمد وأتباعه إلى أثرب حرمهم من جني محصول نصرهم في ذلك اليوم.

وأُسيد هذا الذي رمى سيد الخزرج سعد بن عبادة بثلاث تهم شنيعة، الكذب والنفاق والدفاع عن النفاق والمنافقين لم يكن مسلماً أو أنصارياً عادياً بل كان أحد العقلاء الكملة أهل الرأي وقد مدحه محمد وقال في حقه (نعم الرجل أُسيد بن حضير) وكان أبو بكر بكرمه ولا يُقدّم عليه واحداً[١٦٢].

وإذ أنه من زعماء الأوس ويتحلّى جيده، بهذه المناقب ومع ذلك لم يتمالك نفسه ووصم زعيم الخزرجيين بتلك الخطايا في محضر محمد وفي مسجده، فهذا يعطيك برهاناً على مدى تغلغل الحقد التبادلي بين الحييْن، ورغم ذلك يغفل البحثة المُحْدثون هذه الأدلة النواصع ويدّعون بكل جرأة على الحق أن فرعي بني قيلة كانا كالسمن على العسل ولتذهب الأمانة العلمية إلى الجحيم أو إلى حيث ألقت.

---

(١٦٢) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الأول، ص ١١٢، طبعة ١٩٧٠، دار الشعب، بمصر.

٧ ــ أنه لولا وجود محمد بشخصيته الآسرة الكارزمية لسل الحيّان السيوف ولقامت عركة لا يعلم مداها إلاّ الله.

٨ ــ لم يتورع الطرفان عن الشروع في الاقتتال في مسجد محمد، أقدس ثلاثة مساجد في الإسلام، وهذا بذاته يكفي كدليل ثبوت على عمق أحاسيس العداء التي يكنها كل فريق للآخر.

ولأُسيد بن حضير موقف ينم على أن صدره وصدور رهطه من الأوس مليئة بالحسد والكراهية للخزرج، ففي سقيفة بني ساعدة قدم الخزرج زعيمهم سعد بن عبادة ليلي الخلافة بعد محمد ودار حوار بين المهاجرين (النازحين) وبني قيلة (الأنصار) وكاد الأمر يتحول إلى قتال إذ انتضى أحد مشاهير الخزرج سيفه وقال: أنا أبو شبل في عريّسة الأسد (حسب رواية سيف بن عمر)، وفعلت كلمات الحبات بن المنذر، فعل السحر في نفوس الأثاربة العرب وهموا بمبايعة ابن عبادة خليفة للمسلمين لولا حدوث عاملين:

الأول: بشير بن سعد الخزرجي حسد ابن عمه سعد بن معاذ ونفس عليه الخلافة فأسرع بمبايعة ابن أبي قحافة المهاجري.

الآخر: تحركت كوامن الشنآن في قلوب الأوسيين وأدركوا أنه لو تأمر عليهم وعلى أثرب ابن عبادة الخزرجي لشالت كفتهم ووهن جانبهم وذهبت ريحهم وهم الذين انتصروا في يوم بعاث فاندفعوا يبايعون أبا بكر.

(ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أُسيد بن حضير وكان أحد النقباء: والله لو وليها الخزرج عليكم

مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم نصيبها أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كان أجمعوا من أمره)[١٦٣].

هكذا طـــارت الخلافة من يد سعد بن عبادة والسيادة من الخزرج بسبب حقد ابن عمه بشير بن سعد عليه والإحن والبغضاء والكراهية التي كانت تزخر بها نفوس الأوسيين إزاءهم في مقدمتهم أُسيد بن حضير الكتائب. الذي تزعم حضهم على الإندفاع لمبايعة أبي بكر وكان هو من السابقين لذلك ولعل هذه الوقائع فيها المقنع لمن لديه استعداد للقناعة أما العنيد الشكس لو انتصب أمام عينيه ألف دليل للجّ في غشمه وفيه.

(١٦٣) **تاريخ الطبري**، الجزء الثاني، ص ٢٢٣، مصدر سابق.

قريش وبنو هاشم

كانت العرب تعظم قريشاً والحق أنها حازت صفات تحض على ذلك إنْ في الحرب أو السلم ولا يكابر فيه إلاّ لجوج. فجزيرة العرب لم تشهد قبيلة تُساميها في المكانة، وكان محمد ابناً باراً شديد البر بقبيلته حتى في أشد حالات عداوة صناديدها له بل وحربهم إياه وقتالهم له. فقد قرأنا في كتب السيرة أن أحد الأنصار عقب عراك بدر أبدى ملاحظة عن أشراف قريش بأنهم عجائز صلح ذبحوهم وأجهزوا عليهم سريعاً فلم تُرق هذه العبارة في نظر محمد وأفهمه أنهم الملأ (أي الذين يملأون العين هيبة وبهاء) وأنه لو قاس فعاله بفعالهم لأدرك سمو قدرهم، وأثبتت قريش تفردها إذ أنجبت عباقرة في كل مجال:

في التجارة، والحرب، والسياسية، والإدارة، وشؤون الحكم، والخطابة والبلاغة والشعر.. الخ، كما أن نسوانها تميزن بالجمال والوضاءة والملاحة.

ولكن واحداً من بنيها لم يصل لعشر معشار عبقرية محمد التي ضربت بالسهم الأوفر في كل مضمار، بيد أن محمداً لم يخلط أبداً بين طواغيت قريش وسائر أفراد القبيلة، فقد أدرك منذ الوهلة الأولى البواعث الدوافع التي حركت أولئك للوقوف في وجهه وللحيلولة دونه وتحقيق ثورته؛ فالقِيم التي نادى بها والتي عمل على تطبيقها مثل: المساواة بين الناس والعدالة الاجتماعية والعدل في القضاء وإعلاء كرامة الإنسان (بعمومه)... الخ كلها ضربت مصالحهم في الصميم ومن ثمة انطلق العداء الذي تحول إلى قتال مسلح شرس.

أما القاعدة العريضة فمن الظلم البيّن أن تحمل أوزار فعال كبار

التجار والمرابين والنخاسين الذين راكموا ثرواتهم من عرق العبيد وبغاء الإماء وموائد الميسر وحانات الخمور...

وكان محمد يؤمن إيماناً راسخاً أن جزيرة العرب لا بد وحتماً أن تُلقى زمام أمورها بين يدي القرشيين وأنهم وحدهم حكامها وسادتها؛ ولقد صدقت فراسة محمد وشيّئت أحداث التاريخ اللواحي نبوءته حتى أن كاتب هذه السطور يرى أنّ التاريخ القديم والوسيط والحديث.

سواء في الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب لم يشهد قبيلة أو أسرة حكمت مدداً أطول من التي حكم فيها القرشيون[١٦٤].

والأحاديث التي أشاد فيها محمد بقريش وأكد ضرورة فرادة بنيها بالحكم وفيرة، نكتفي منها بالآتي:

١ ــ (إن قريشاً أهل صدق فمن بغاها العوائر، أكبه الله تعالى في النار على وجهه)[١٦٥].

٢ ــ (آخر من يحشر من هذه الأمة رجلان من قريش)، الحشر: السوق إلى المحشر[١٦٦].

٣ ــ لما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة قال أبو بكر لسعد بن عبادة الذي رشحه الأنصار لخلافة محمد (ولقد علمت يا سعد أن رسول الله (ص) قال وأنت قاعد:

---

(١٦٤) بحثنا هذه النقطة تفصيلاً في كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، الطبعة الأولى ١٩٩٣، دار سينا للنشر، القاهرة.

(١٦٥) الحديث في **مسند الشافعي** وفي **مسند أحمد**، والطبراني، **المعجم الكبير**، والضياء المقدسي في **المختارة**، وابن أبي شيبة في **المصنف**.

(١٦٦) **مصنف** ابن أبي شيبة عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء الأول، ص ١١، مصدر سابق.

قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم)[١٦٧].

٤ ــ أما أحاديثه عن ضرورة أن تكون الولاية في قريش فهي كثيرة (عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي (ص) قال: لا يزال هذا الأمر يعني الولاية في قريش ما دام فيهم رجلان وأشار بأصبعيه ولكن الويل لمن افتتن بالملك. وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله (ص) لقريش: لن يزال هذا الأمر فيكم وأنتم ولاته ما لم تحدثوا...)[١٦٨].

٥ ــ وكان يحض المسلمين على أن يجعلوا قريشاً قدوة لهم في القول دون العمل:

(عامر بن شهر الهمداني (صحابي) قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: انظروا قريشاً فخذوا من قولهم ودعوا فعلهم)[١٦٩].

ولكن لماذا نصح محمد أتباعه على التأسي بالقرشيين في الأقوال فحسب؟

والجواب: أن إكراهات الواقع المعاش تدفع في أحيان كثيرة إلى منافاة العمل للقول. وقد رأينا في السفْرين السابقين أن كثيرين من القرشين جاءت أعمالهم مناقضة للشريعة التي نادى بها محمد بل وحتى لموجبات المروءة التي كانت سائدة قبل الإسلام.

---

(١٦٧) الحديث في مسند الإمام أحمد وذكره السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير**، ص ١٢٣٠، عدد ١٠، مصدر سابق.

(١٦٨) **الجامع الصحيح**، مسند الإمام الربيع بن حبيب، الجزء الأول، ص ١٤.

(١٦٩) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٧٩٢، مصدر سابق.

٦ ــ وأي إنسان يعمل أو حتى يريد أن تهون قريش أو تنزّل فإن محمداً دعا عليه بالهوان من الله:

(من يرد هوان قريش أهانه الله)[١٧٠].

٧ ــ وكان محمد لا يبغض أحداً بغضه لمن يعادي قريشاً. عن المغيرة بن شعبة قال:

رأيت رسول الله (ص) وقف يوم حنين على رجل من ثقيف مقتول فقال: أبعدك الله فإن كنت تبغض قريشاً[١٧١].

ومن نفل القول أن نذكر أن قدسية أحاديث محمد لدى أتباعه هي التالية لقدسية القرآن، ولا شك أن هذه الأحاديث زادت مكانة قريش لدى العرب والمسلمين رسوخاً وثبتت أهليتهم للإمامة العظمى أو الخلافة حتى إن القرشية هي أول شرط يتطلبه عامة الفقهاء فيمن يلي الخلافة، ولو أن بعض الفرق مثل الخوارج تجاوزته ولكن عموم أهل السنّة والجماعة ما زالوا يتمسكون به امتثالاً لتلك الأحاديث.

* * *

بنو هاشم هم رهط محمد وكان يكنّ لهم تقديراً خاصاً:

(حدثنا أبو بكر بن أبي داود إملاءً، حدثنا عبد الرحمن بن مسلم المقري حدثنا يقنم بن قنبر قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول

---

(١٧٠) الحديث في **مسند أحمد** عن الزهري عن عمرو بن سعد عن سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص. وورد أيضاً في **سنن الترمذي** وفي **المستدرك** للحاكم وفي **مصنف** ابن أبي شيبة.

(١٧١) رواه الطبراني في **المعجم الكبير**، نقلاً عن **جمع الجوامع** للسيوطي، الجزء الأول، ص ٣٥، مصدر سابق.

الله (ص): لو أنني أخذت بحلقة باب الجنة ما بدأت إلاّ بكم يا بني هاشم)[١٧٢].

والأحاديث في هذه الخصوصية غزيرة وهذا الحديث فيه الغناء، لأنه يقطع بأولية الهواشم في دخول الجنة التي هي خلاصة ومنتهى أمل كل مسلم، ومن هو مميز فيها لا مشاحة أنه مفضل في الدنيا.

ومن أبرز معايير ذلك التقدير أنه خصّهم بميزة لم يمنحها لغيرهم من المسلمين وهو تحريم الصدقة عليهم وإذ وصف هو الصدقة بأنها أوساخ المسلمين فإنه قد نزههم عنها دون سائر أتباعه، وبلغ مدى إعزازه إياهم أنه حرمها على مواليهم أيضاً طبقاً للمبدأ القائل (مولى القوم منهم) أي أن الصدقات (أوساخ المسلمين) يجوز إعطاؤه لأي مسلم (يستحقها قرشياً أو غير قرشي) بيد أنها لا تحل لمولى لبني هاشم.

عن أبي رافع أن النبي (ص) بعث رجلاً على الصدقة من بني مخزوم فقال لأبي رافع: إصحبني فلك نصيب منها، قال: حتى آتي النبي (ص)، فاسأله، فأتاه فسأله فقال: مولى القوم من أنفسهم وإنّا لا تحل لنا الصدقة[١٧٣].

وأبو رافع هذا مولى لمحمد ومن ثم غدا في منزلة أرفع من المخزومي الذي أرسله محمد على الصدقة، مع أن مخزوماً من الفروع السوامق في قريش ويوصفون بأنهم ريحانة قريش ومنهم أم سلمة إحدى زوجات محمد التسع وخالد بن الوليد... الخ، وعرف المسلمون مكانة بني هاشم وقدروهم حق قدرهم وأنزلوهم منزلتهم وأحلوهم الدرجة اللائقة بهم ف:

---

(١٧٢) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي، ص ١١٦٧، من العدد ١٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

(١٧٣) **سنن أبي داوود.**

(ما سبى المسلمون ولله الحمد هاشمية قط ولا استحلت أمة محمد (ص) سبيّ بني هاشم قط... فإن الحجاج لم يقتل من بني هاشم أحداً قط مع كثرة قتله لغيرهم، فإن عبد الملك أرسل إليه يقول له: إياك وبني هاشم أن تتعرض لهم فقد رأيت بني حرب لما تعرضوا للحسين أصابهم ما أصابهم... والحجاج كان قد تزوج بنت عبد الله بن جعفر فلم يرضَ بذلك بنو أمية حتى نزعوها منه لأنهم معظمون لبني هاشم)[١٧٤].

ويكرر ابن تيمية اقتناع عبد الملك بن مروان بأن زوال ملك الفرع السفياني مرده إلى إقدامهم على قتل الحسين بن علي زهرة شباب بني هاشم:

(وكان عبد الملك قد أرسل إلى الحجاج أن لا يقتل أحداً من بني هاشم وذكر له أنه لما قُتل الحسين في ولاية بني حرب يعني ملك يزيد أصابهم شر فاعتبر عبد الملك بذلك فنهاه أن يقتل أحداً من بني هاشم)[١٧٥].

أي أن رتبة بني هاشم انتقلت من التقدير إلى التقديس ومن المعقول إلى ما وراء العقل على أيدي القرشيين أنفسهم بل بمعرفة قرشي اتصف بجودة الرأي وقوة الحجى ونفاذ البصيرة ورجاحة التفكير وهو عبد الملك بن مروان الذي يُعَدّ المؤسس الثاني لدولة بني أمية (بعد مؤسسها الأول معاوية) فهو ينحو منحى غيبياً لا يمت إلى المنطق بصلة فهو يعزو زوال ملك السفيانيين (نسبة إلى أبي سفيان) إلى اللعنة التي أصابتهم بقتل الحسين بن علي بدلاً من ذكر التعليل الصحيح والأسباب الموضوعية!!!

ويؤكد ابن تيمية أن مذهب أهل السنّة والجماعة والمنقول عن

(١٧٤) **منهاج السنّة النبوية** لابن تيمية، الجزء الثاني، ص ٢٤٩، مصدر سابق.
(١٧٥) **منهاج السنّة النبوية** الجزء الرابع، ١٧١، مصدر سابق.

أئمة السلف أن بني هاشم أفضل قريش وقريش أفضل العرب والعرب أفضل بني آدم[١٧٦].

ولم يكتفِ محمد بتفضيل رهط بني هاشم على قريش ومن ثم سائر المسلمين بل صدرت منه مواقف تقطع بذلك.

(عن ابن عباس (رض) أن رجلاً ذكر أبا العباس فنال منه فلطمه العباس فاجتمعوا فقالوا: والله لنلطمن العباس كما لطمه فبلغ ذلك رسول الله (ص) فخطب فقال: من أكرم الناس على الله؟ فقالوا: أنت يا رسول الله قال: فإن العباس مني وأنا منه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا به الأحياء. وزاد ابن عساكر: فقالوا يا رسول الله نعوذ بالله من غضبك فاستغفر لنا فاستغفر لهم).

أخرجه الحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه، وقال الذهبي: صحيح كما أخرجه ابن عساكر[١٧٧].

وللحديث رواية أخرى أوردها ابن سعد في الطبقات الكبرى:

(أخبرنا يزيد بن هارون عن داود بن أبي هند عن العباس بن عبد الرحمن: أن رجلاً من المهاجرين لقي العباس بن عبد المطلب فقال: يا أبا الفضل أرأيت عبد المطلب بن هاشم والغيطلة كاهنة بني سهم جمعهما الله جميعاً في النار، فصفح عنه ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك فصفح عنه ثم لقيه الثالثة فقال مثل ذلك فرفع العباس يده فوجأ أنفه فكسره فانطلق الرجل كما هو إلى النبي (ص) فلما رآه قال: ما هذا؟ قال: العباس فأرسل إليه فجاءه فقال له: ما أردت إلى رجل من المهاجرين؟ فقال: يا رسول الله والله لقد علمت أن عبد المطلب في النار ولكنه لقيني فقال يا أبا الفضل أرأيت عبد المطلب بن هاشم والغيطلة كاهنة بني سهم جمعهما الله في النار، فصفحت عنه مراراً ثم والله ما ملكت نفسي وما

(١٧٦) **منهاج السنّة النبوية** الجزء الرابع، ص ٦٦ مصدر سابق.
(١٧٧) نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ٢٨٧، مصدر سابق.

إياه أراد ولكنه أرادني، فقال رسول الله (ص): ما بال أحدكم يؤذي أخاه في الأمر وإن كان حقاً)[١٧٨].

وسبق أن أكدنا أن الأمر يأتي عند التمنع والتخلف فأنت لا تحض الكريم الجواد السخيّ على الإنفاق والبذل ولكنك تحث: البخيل الضنين، الممسك، وفي أوقات أخرى يجتمع عدد من القرشيين يتحادثون ويتباسطون ويتفاكهون فإذا أقبل عليهم هاشميّ انقبضوا وأمسكوا عن الكلام وكفوا عن الحكي:

(عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا نلتقي النفر من قريش وهم يتحدثون فيقطعون حديثهم فذكرنا ذلك لرسول الله (ص) فقال: ما بال أقوام يتحدثون فإذا رأوا الرجل من أهل بيتي قطعوا حديثهم والذي نفسي بيده لا يدخل قلب امرئ الإيمان حتى يحبهم لله ولقرابتهم مني)[١٧٩].

هذا المسلك من جانب القرشيين سلبي إذ لم تبدر منهم بادرة إيجابية تعبّر عن حقيقة شعورهم إزاء أفضلية الهواشم عليهم، ولكن من جانب آخر فإنه بليغ الدلالة في الكشف عما يعتمل في حنايا صدورهم.

ويبدو أن هذا الفعل تكرر والظاهر أن العباس تميّز بحساسية مفرطة تجاه هذه الأمور فأثارت غضبه ولم يجد بُداً من رفعها إلى القائد:

(عن المطلب بن ربيعة قال: جاء العباس (رض) إلى رسول الله (ص) وهو مغضب فقال: ما شأنك؟ فقال: يا رسول الله ما لنا ولقريش؟ فقال: ما لك ولهم؟ قال: يلقى بعضهم بعضاً بوجوه مشرقة فإذا لقونا لقونا بغير

(١٧٨) الحديث في **طبقات** ابن سعد، نقلاً عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي، المجلد الأول، ص ٢٤١، مصدر سابق.
(١٧٩) الحديث في **سنن ابن ماجة**، وفي **المستدرك** للحاكم، وفي **الزوائد** وأورده ابن عساكر في تاريخه.

ذلك قال: فغضب رسول الله (ص) حتى استدرّ عرق بين عينيه. قال: فلما أسفر عنه قال: والذي نفس محمد بيده لا يدخل قلب امرئ الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله ثم قال: ما بال رجال يؤذونني في العباس؟ عم الرجل صنو أبيه)[١٨٠].

ومحمد بثاقب نظره ونفاذ بصيرته وحسه المستقبلي الذي يتمثل في نبؤاته التي لا تخيب، أدرك خطورة هذا الموقف على الهاشميين (فغضب رسول الله (ص) حتى استدرّ عرق عينيه)[١٨١]. فدعا القرشيين وغيرهم من المسلمين إلى حب بني هاشم وجعله شرطاً لدخول الإيمان القلب، وفي أحيان لا يطيق أحدهم إمساك لسانه فيطلقه في حق الهواشم ولكنه يستثنى القائد محمداً حتى لا يقع في المحظور:

(عن عبد الله بن عمر قال: إنا لقعود بفناء رسول الله (ص) إذ مرت امرأة فقال رجل من القوم: هذه ابنة محمد فقال رجل من القوم: إنّ مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة وسط النتن، فانطلقت المرأة فأخبرت النبي (ص) فجاء النبي (ص) يُعرف في وجهه الغضب ثم قام على القوم فقال: ما بال أقوال تبلغني عن أقوام... ثم اختار مُضر فاختار قريشاً فاختار بني هاشم ثم اختار بني هاشم فاختارني فلم أزل خياراً من خيارٍ...) رواه الطبراني في الأوسط، وجاء في ميزان الاعتدال وفي مجمع الزوائد، وفي نوادر الأصول للحكيم الترمذي)[١٨٢].

حقيقة أن العباس عم محمد والعم صنو أبي الرجل كما قال هو

---

(١٨٠) أخرجه الحاكم في **المستدرك** نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي، المجلد الثاني، ص ٢٨٦، مصدر سابق.

(١٨١) معناها أن العرق الذي بين عينيه امتلأ بالدم من الغضب فارتفع.

(١٨٢) نقلاً عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي، ص ٢٠٧٦، العدد السابع من الجزء الثالث.

نفسه ومن ثمة نقدم الواقعة التالية التي حدثت لسيدة هي بنت عمه أبي طالب ــ أم هانئ:

(عن عبد الرحمان بن أبي رافع أن أم هانئ بنت أبي طالب خرجت متبرجة قد بدا قرطاها فقال لها عمر بن الخطاب: إعلمي فإن محمداً لا يغني عنك شيئاً فجاءت إلى النبي (ص) فأخبرته فقال رسول الله (ص): ما بال أقــوام يزعمون أن شفاعتي لا تنــال أهل بيتي، إنها تنال حا وحكم[١٨٣]. فهنا نجد أن عمر بن الخطاب لفت نظر أم هانئ بنت أبي طالب، وهي هاشمية، إلى هيئتها المتبرجة وظهور قرطيها... وإلى أنها سوف تُسأل عنه، ولن تنفعها قرابتها من محمد... فشكته إلى محمد الذي استاء وردّ بأن شفاعته تنال قبائل غير معروفة فكيف لا تنال أهل بيته أي بني هاشم؟

هاتان الواقعتان الأولى حدثت مع العباس بن عبد المطلب (عم محمد) والأخرى مع أم هانئ (ابنة عمه أبي طالب) تثبتان أن محمداً لم يميّز بني هاشم باللسان فقط بل بالمواقف العملية، ففي الحدث الأول لم يلتفت إلى ما وقع في ختامه وهو لطم العباس للمهاجريّ وأنفه الذي كسره بل عيّره بكامله، فالرجل استفز عمه مرة واثنتين وثلاثاً ولم يضع في اعتباره أنه (= العباس) عم قائد الثورة أي في مقام والده وأنه كبير بني هاشم ــ بعد محمد ــ وابن عبد المطلب سيد قريش بأسرها في زمانه، وفي الحدث الآخر أدرك محمد بثاقب نظره أن ابن الخطاب تعدّى طوره وجاوز حده ونسي أن أم هانئ هاشمية أي من أسمى فرع في قريش وهو من عديّ الرهط الخفيض وأنها ابنة أبي طالب عم محمد الذي كفله صغيراً بعد أن مات جده عبد المطلب وأن المخالفة التي بدرت منها لا

---

(١٨٣) الحديث رواه الطبراني وهو مرسل ورجاله ثقات وفي **مجمع الزوائد**، نقلاً عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي ص ٢٠٩٤ ــ ٢٠٩٥.

تستحق من عمر هذا التعنيف الذي انضوى أيضاً على خدش لشفاعة محمد يوم القيامة للمسلمين عامة ولبني هاشم خاصة.

فجاءت أحاديث محمد ومواقفه في تفضيل بني هاشم على باقي فروع قريش... ولكنهم إزاء أقوال القائد وأفعاله لا يسعهم إلاّ التسليم ولكن النفس البشرية تنضوي عن أغوار سحيقة وتستطيع أن تعبّر عن أحاسيسها ولو بالسلب؛ ومن ثم اتخذ القرشيون موقفاً معقداً من الهواشم فهم جميعاً أبناء قبيلة واحدة وفي بلد مهما طال قرارهم فيه فهو بالنسبة إليهم دار اغتراب وأهله بنو قبيلة لا بد أنهم سوف يحاوصونهم(١٨٤). ويعاينون فعالهم صغيرة وكبيرة كما أنه يستحيل عليهم مخالفة محمد وعصيان أمره ومن ثمة يأتي التعقيد الذي وصفنا به موقف سائر قريش، إذن كيف يظهرون ردهم على تمييز الهواشم عليهم؟

اتخذ ذلك صوراً متنوعة:

منها ما رأيناه في الحديثين اللذين كان العم العباس وابنة العم أم هانئ طرفيه، وفي حين آخر كان الاحتكك بالعباس باعتباره رمز الهواشم الأمر الذي كان يدفع محمداً إلى أن يأمرهم بحسم:

(احفظوني في العباس فإنه بقية آبائي، فإنه عمي وصنو أبي، فإنه بقية آبائي وإن عم الرجل صنو أبيه)(١٨٥).

في هذا الخبر غضب محمد فقد ثبت لديه أن رهطه الأدنين أصبحوا مصب شنآن القرشيين وسائر النازحين (المهاجرين) وهذا أمر له ما بعده إذ يثمر عواقب مُرّة ومن ثمة سارع إلى منح قريش

(١٨٤) في **المعجم الوسيط**، **حاوصه:** نظر إليه خلسة.
(١٨٥) الطبراني في **الأوسط**، وابن عساكر، والخطيب، وابن عديّ في **الكامل**، وابن أبي شيبة في مصنفه.

شطراً من التقدير كرره مرتين (فاختار قريشاً فاختار قريشاً) وبداهة أن أحاديث محمد القائد المحنك موزونة بدقة ومحسوبة على مهل وتأنٍ ولكن على ترداد التقدير امتص غضب القرشيين؟

نفرق هنا بين الفروع العالية التي تشتبك مع الهاشميين بقرابة حميمة وبتاريخها ورجالها وثرواتها التي تجعلها في درجة قريبة وإن لم تكن مساوية لهم وبين البطون المهمّشة (التي تستكن في الهامش) والمُسفّحة (التي تستقر في السفح)، إذ حدثت مفارقة من أغرب مفارقات التاريخ، فقد كان المنطق التاريخي يحتم أن يتولى (الفروع السوامق) الخطوة الأولى في طريق الثأر من الهاشميين ولكن حدث العكس المهمشون والمسفّحون هم الذين تقدموا واتخذوها، وأغضب ذلك بطون الذروة فحملوا عليهم حملة شعواء وسخطوا عليهم خطفهم زمام المبادرة وحرّضوا الهواشم على رد العدوان الذي وقع عليهم من الأفخاذ المهزولة والبطون الضامرة والفروع الضعيفة وحاولوا بكل ما أوتوا من منطق وما رُزقوا من بلاغة وما وُهبوا من ذلاقة، وكم فيهم من متحدث أذلق أن يفهّموهم أن هذا وضع مقلوب وأن المسفّحين سلبوهم حقهم وغضبوهم ملكهم وأنه مما لا تستقيم معه الأمور ولا تقبله طبائع الأشياء ولا تستسيغه قواعد العمران أن يتسيد الضعفاء ويحكم الزعانف ويتأمر الأباعد.

ولما لم يتحرك الهاشميون لاسترداد سلطانهم المغصوب برزوا هم وأزاحوا الحراشف[١٨٦] وأمسكوا صولجان الحكم، وبعد لأي شديد وخطوب نكراء أفاق الهواشم وتنبهوا وتربعوا على سدة السلطة وعاد الحق إلى أهله ولذلك ليس من المستغرب أن يحكم

(١٨٦) جمع حرشف: فلوس السمك، من **المعجم الوجيز**.

العباسيون وهم هواشم مئات السنين بخلاف هواشم آخرين مثل الفاطميين والأدارسة.

* * *

ونعود بعد هذه الإسطرادة لسياقة القول، بيد أنه في بدء الأمر نشد الانتباه إلى ضرورة قراءة النصوص التاريخية أو حتى النصوص الدينية التي تحمل في طياتها سطوراً من التاريخ قراءة مستأنية شديدة التمعن والتدقيق والتمحيص وننزع هالات التقديس والتمجيد؛ فنحن نطالع تاريخ نفر من بني آدم معجونين بالعواطف والغرائز والنوازع والشهوات والعقل الباطن والنفوس المطمئنة والأمارة بالسوء... الخ وذلك لكي نصل إلى الفهم الصحيح للتاريخ ونوازله لأن أوهام التقدير والإكبار والتفخيم تغبّش الرؤية وتشوش على البصيرة وتهرجل الفكر وتربك العقل، فلا يتوقف عند الوقائع متسائلاً لماذا وقعت هكذا؟ وما الذي دفع فلاناً للقيام بهذا الأمر والامتناع عنه... الخ ولكنه يأخذها حجة مسلّمة بل إنه يبررها ويسوّغها لأن هذا (الفلان) في نظره منزه عن الخطأ ومن ثم فإن كل ما يأتي به أو يحجم عنه هو الصواب بعينه الذي لا تشوبه شائبة ولا يعتوره غلط ولنبدأ بما حدث إثر وفاة قائد الثورة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً إذ في إبّان حياته لم يكن يجرؤ أي واحد أن ينبس ببنت شفة (كلمة).

ولنقرأ النص الذي أورده شيخ المؤرخين الطبري:

(لما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة نما حديثها نمياً ذريعاً حتى (أتى عمراً الخبر «فأقبل إلى منزل رسول الله (ص) فأرسل إلى أبي بكر وأبو بكر في الدار وعلي بن أبي طالب (ع) دائب في جهاز رسول الله (ص) فأرسل إلى أبي بكر أن أخرج إليَّ فأرسل إليه أني مشتغل فأرسل إليه أنه قد

حدث أمر لا بدّ لك من حضوره فخرج إليه فقال: أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة، يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة وأحسنهم مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة، فتماشوا إليهم ثلاثتهم)[١٨٧].

الذي يقرأ هذا الخبر قراءة تقديس يمصمص شفتيه تقديراً للرموز الثلاثة التي وردت به أو على الأقل يراه خبراً عادياً لا ملحظ عليه إنما الذي يتفرّس فيه يدرك:

١ ــ أن عمر بن الخطاب استدعى ابن أبي قحافة من داخل منزل محمد وأخبره باجتماع السقيفة وأغفل الهواشم الذين كانوا معه وورد من بينهم اسم علي بن أبي طالب، ولا يُبدي دفعاً لذلك أنهم كانوا في شغل عن هذا بتجهيز محمد، فالأمر كان جد خطير لأنه يمس في الصميم دولتهم التي أسسها سيدهم وقائدهم فكان يتوجب على عمر أن يخطرهم به فإن آثروا المضيّ فيما انهمكوا فيه فهم وشأنهم ويغدو عمر قد أبرأ ذمته، هذه واحدة، أما الأخرى فإن بني هاشم عصبة من الميسور أن يستمر بعضهم في تجهيز محمد ويذهب آخــرون للسقيفة فمثلاً: يظل علي مع محمد ويتوجه العباس بن عبد المطلب على رأس وفد من الهواشم إلى سقيفة بني ساعدة.

إن الذي يذهب على أن اختصاص ابن الخطاب وابن أبي قحافة بالاستدعاء دون الهواشم ثم الإسراع بخبر اجتماع السقيفة جاء مصادفة أو عفو الخاطر إما غرّ أو مأفون.

(١٨٧) **تاريخ الطبري**، الجزء الثاني، ص ٢١٩، مصدر سابق.

٢ ــ كيف هان على ابن أبي قحافة أن يترك جهاز محمد قائده الحبيب وصاحبه في الغار ويتوجه إلى السقيفة؟

لا شك أن الدافع كان حارقاً وهو اغتنام إنشغال الهواشم مع محمد لقنص الفرصة.

٣ ــ لم يقم أبو بكر وعمر بإخطار أي هاشمي (ليس من المعقول أن جميع الهواشم انشغل في تجهيز محمد) ولا حتى أي قرشي من الفروع السوامق مثل بني أمية ومخزوم والمغيرة... الخ. بتجمع بني قيلة لانتزاع ملك محمد. فإذا رُدَّ أن الوقت ضيق أجيب عليه أنه بل كان في مقدورهما ولكل منهما العدد الوفير من الأولاد والأتباع أن يبلغا رؤوس قريش، ويمضيا هما للسقيفة وليلحق بهما سادة قريش ومما يتعين ذكره أن أبا سفيان في نظر أبي بكر هو سيد صرح بذلك علانية أمام جمع من مشاهير الصحبة:

(عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سليمان وصُهيب وبلال (رض) في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها فقال أبو بكر (رض) أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم فأتى النبي (ص) فأخبره فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم! لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخواتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي) أخرجه أبو نعيم في (الحِلْية) وابن عبد البر في (الاستيعاب)[١٨٨].

فلماذا لم يقم ابن أبي قحافة بإشعار سيد قريش بأمر جلل بهم قريشاً كلها، نحن لا نرى أن أبا سفيان كان أهلاً

(١٨٨) نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ٢٦٢، مصدر سابق.

لتولي الخلافة ولكن ليشترك في المحاورات والمراوضات لكي تأتي نتيجة اختيار أحد القرشيين أميراً موضع اتفاقهم جميعاً، فإذا استبعدنا أبا سفيان لأنه من مسلمة الفتح ومن الطُلقاء ومغموز في إسلامه فلِمَ لم يُعلم أبو بكر أو عمر بن الخطاب: العباس بن عبد المطلب سيد بني هاشم (بعد محمد) أو عثمان بن عفان، هل يوجد سبب واحد كان يمنع من ذلك أو ثمة مطعن يوجه لأحدهما، هذا بخلاف عشرات الأشخاص من بني هاشم وأمية ومخزوم والمغيرة... ذُرى قريش وغُررها ودُررها!!!

أم أن قريشاً في نظره هي (بنو تَيْم ــ رهط أبي بكر) و(بنو عُديّ ــ رهط عمر) و(بني فِهر ــ رهط أبي عبيدة)، ألا يتبادر للذهن أن أبا بكر كان يخشى أن لو شهد اجتماع السقيفة علي أو العباس أو عثمان... الخ لما قوي على منافستهم؟ صحيح أنه كان يملك رصيداً وفيراً من الميتاتاريخية قد تفوق ما لدى واحد من هؤلاء الثلاثة ولكن القرابة الحميمة من محمد قائد الثورة ومؤسس الدولة كانت تعوزه وهي عنصر شديد الأهمية في ترجيح كفة المرشح لما للعصبية والقرابة من اعتبار وتقدير يفوقان غيرهما من العناصر في ذياك المجتمع القبلي.

٤ ــ حتى وإذا فرضنا أن أبا بكر وعمر كانا بعيدين عن الولد والتابع (وهذا فرض بعيد) وأنهما كانا في عجلة من أمرهما خشية أن يُطبق الأنصار على مبايعة ابن عبادة خليفة وساعتها من العسير نقض البيعة إلاّ بقوة السلاح. نقول إذا فرضنا ذلك ألم يكن في مقدورهما وقد قابلا أبا عبيدة بن الجراح أن يرسلاه إلى بيوت قريش ليستدعي

رجالها لشهود اجتماع السقيفة؟ ألا يزال هناك من يشك أن أبا بكر وعمر (دعك من أبي عبيدة بن الجراح) قد تعمدا كتمان خبر السقيفة عن الهواشم خاصة والقرشيين عامة ليضمنا عدم المنافسة ويفوز أحدهما بالإمامة العظمى؟

ألا يذكّرنا هذا الموقف بموقف سبقه بأيام أو ربما بساعات عندما كان محمد على فراش المرض وطالب أن يُملى وصية لا يختلف أتباعه بعدها، وكان عمر حاضراً فعارض ذلك بشدة لأنه فهم أنها تتعلق بمن يخلّفه في رئاسة الثورة والدولة ونُسبت إلى عمر في إحدى الروايات كلمة صعيبة في حق محمد وبرّر معارضته بأن عندهم كتاب الله فيه الغناء وعاونه في نجاح خطته وجود محمد في حجرة عائشة بنت أبي بكر، ومن ثمة ضاعت فرصة بني هاشم ــ إلى حين ــ في خلافة محمد.

أليس هذان الموقفان ــ الوصية المرفوضة ومسلك الشيخين في اجتماع السقيفة يمتحان من معين واحد؟ وقد أورد اليعقوبي نصوصاً تضيء لنا مسلك الفروع النحيفة من قريش في سعيها من وراء الفروع الكبيرة حتى تولت السلطة وبتعبير أدق حتى هبشتها[١٨٩].

(وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم بويع أبو بكر فقال بعضهم لبعض ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمدٍ فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة)[١٩٠].

(١٨٩) يقال هو **يهبش** لعياله أي يحتال لهم في الكسب، من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.
(١٩٠) **تاريخ اليعقوبي** الجزء الثاني.

يبين من هذا الخبر أن بني هامش كانوا:

أ ـــ مخمومي القلب وعلى درجة كبيرة من الطيبة التي بلغت حد السذاجة إذا اعتقدوا أن المسلمين ما كانوا يحدثون حدثاً في غيبتهم.

ب ـــ على قناعة تامة بأنهم أولى بخلافة محمد في حكومته ممن عداهم من أفخاذ قريش وسائر المهاجرين والأنصار.

جـ ـــ أن العبـــاس بحكم سنه وتجربته كان يخشى أن المهمشين من قريش يدبرون للإتيان بـ(عملة) بيد أنه لم ينتظر أن تجيء بهذه السرعة المفاجئة.

والسؤال: ما دام العباس قد نما إلى علمه أو أنه توقع من باب الحدس أو الفراسة تحرك السوافح (المسكّنين في السفح) فلماذا لم يعدّ العدة لتلاقي ذلك وينبه إليه الهواشم وهو كبيرهم، ولعل تأخير بعث أسامة الذي كان القائد محمد يلحّ في إرساله والظروف الحافّة به والملابسات التي حايثت التباطؤ في إنفاذه كلها مؤشرات أوحت إلى العباس بوجود تدبير من البطون الخفيضة إذ أيقنوا أن محمداً غدا وشيك الانتقال إلى رحاب الله.

أما ابنه الفضل وكان لسان قريش فقال: (يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم)[١٩١]، في هذا الخبر المتكلم الرسمي لقريش (أو لبني هاشم بالأخص) يخاطب المسقّحين الذين خطفوا الخلافة منهم قائلاً لهم إنه لا حق لهم فيها لأنهم أخذوها بالتمويه؛ وفي معاجم اللغة ـــ موه الحق: لبّسه بالباطل وموّه الحديث زخرفه ومزجه من الحق

(١٩١) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

والباطل[١٩٢]. هذا توصيف الفضل بن العباس ابن عم قائد الثورة محمد لفعلة ابن أبي قحافة وابن الخطاب صراحة دون مواربة أو جمجمة!!!

ومع ذلك لا يزال بين ظهرانينا من الكتبة المعاصرين من يبررها ويسوّغها بل ويضفي عليها أثواب القداسة!!!

* * *

واستشاط الهواشم غضباً وعمهم السخط من كيد أبى بكر وعمر، فقال عتبة بن أبي لهب وكان شاعراً:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أول النـــاس إيماناً وسابقة واعلم الناس بالقرآن والسنن[١٩٣]

وإعلاناً لرفضهم تخلفوا عن بيعة ابن أبي قحافة وتحالف معهم عدد من أعيان الصحبة من النازحين (المهاجرين): وبني قيلة أو العرب اليثربيين (الأنصار) منهم:

العباس بن عبد المطلب وابنه الفضل والزبير وخالد بن سعيد والمقداد بن الأسود وسلمان وأبو ذر وعمّار والبراء بن عازب وأبيّ بن كعب وكان هواهم مع أبي الحسنين، وأسقط في يد الزعانف المهمّشين وهداهم تفكيرهم إلى تخذيل وتفكيك جبهة الهواشم بدق إسفين بينهم، فذهب ثالوث السقيفة ــ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومعهم داهية (بصير بالأمور) من دهاة العرب المغيرة بن شعبة

(١٩٢) من **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.
(١٩٣) المصدر السابق ص ١٢٤، من يريد باقي القصيدة، فعليه بها هناك.

إلى العباس لينخلع من العصبة الهاشمية بأن يجعلوا له من الحكم نصيباً ولعقبه من بعده، ولكن عم القائد وشيخ الهواشم لم يبلع الطعم وصكّهم (= دفعهم بقوة) ووجه قوله إلى أبي بكر:

(فأما ما قلت إنك تجعله لي فإن كان حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه وإنْ كان لنا فلم نرض ببعض دون بعض وعلى رسلك فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها، فخرجوا من عنده)[١٩٤]، فإن الغاية تبرر الوسيلة ففي سبيل أن يبقى الحراشف متربعين على سدة الحكم وبأيديهم الغاصبة يبقى صولجانه فلا مانع من أن يفرتكوا[١٩٥] جمع الهاشميين بأي وسيلة وليكن بإغراء شيخهم بأن ينفحوه شطيراً من السلطة ويورثه لأولاده وأحفاده إلى يوم الدين!!! ولا اعتبار لـ (النصوص) ولا مكان لمشورة الصحاب ومنهم الأنصار الذين وعدهم ابن أبي قحافة أن يستوزرهم، ودعك من الرعية (في قواميس اللغة أصلها الماشية التي ترعى) فهم هنا يتصرفون في الولاية كيفما يريدون يمنحون من يشاءون قسطاً منها ويمنعون، بيد أن العباس لم يقع في الآخية ورفض عرضهم وألزمهم الحجة!!!

* * *

والذي يشك أن أبا بكر وعمراً تعمداً إغفال بني هاشم لحضور اجتماع السقيفة لأنهم لو حضروا لبطلت حجتهما وشالت كفتهما ورجحت كفة الهواشم وخاصة أبا الحسن، نقول إن الذي يشك في ذلك فليقرأ النصوص التي أوردها ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) قراءة مستبصرة واعية منها:

إنه بعد امتناع علي عن البيعة لأبي بكر حدث حوار ساخن بين علي وعمر وخشي أبو بكر أن يتطور ويبلغ بهما حد العنف فتدخل بينهما

---

(١٩٤) المصدر السابق، ص ١٢٦.
(١٩٥) في **المعجم الوجيز فرتك** النسيج ونحو = نقضه وأتلفه.

وقال (فإن لم تبايع فلا أكرهك) واتجه الضلع المكمّل لثلاثي المكيدة أبو عبيدة إلى أبي الحسين متلطفاً فقال: «يا بن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور... هنا ثار علي وقال: الله الله معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم... ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما دام فينا القارئ لكتاب الله، العالم بسنن رسول الله... وكان بشير بن سعد حاضراً هذا القول فيما يروى رواته فلما سمعه قال: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل أبي بكر ما اختلف عليك»[١٩٦].

بشير بن سعد هذا هو الذي بادر بمبايعة ابن أبي قحافة حسداً منه لسعد بن معاذ ابن عمه وبعده بايعه أُسيد بن حضير الكتائب مقدم الأوسيين الذين تابعوه ثم لحق بهم الخزارجة، ففي هذا الخبر يؤكد بشير أن لو كان علي بن أبي طالب حاضراً وسمعت الأنصار حجته ما عدلت به أحداً ولبادر هو نفسه بمبايعته، ثم جاء بقية الأنصار على قدمه، أهناك ذرة من ريب بقيت في أن حجب بني هاشم وعلي عن اجتماع السقيفة مكيدة دبرها الثالوث: ابن أبي قحافة وابن الخطاب وابن الجراح ليفوز واحد منهم بالإمارة!!!

وإليك برهاناً آخر.

خرج علي محنقاً غاضباً، فذهب إلى فاطمة فخرج بها من دارها فحملها على دابة فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار تسألهم النصرة فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد وضعت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به[١٩٧].

---

(١٩٦) **الإمامة والسياسة** لابن قتيبة، نقلاً عن **الصديق أبو بكر**، لمحمد حسين هيكل، ص ٦٤ ــ ٦٥، الطبعة السابعة ١٩٧٥م، دار المعارف بمصر.
(١٩٧) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

فهذا الخبر صريح النص والدلالة معاً على أن أبا الحسنين لو شهد اجتماع سقيفة بني ساعدة لبزّ ابن أبي قحافة وفلج عليه وكشطه بل كسحه. وثالوث المكيدة (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة) كان يدرك ذلك جيداً ومن ثم أخفى خبرها عنه، والأنصار الذين أجابوا السيدة فاطمة بنت محمد بذلك الجواب هم الذين بايعوا ابن أبي قحافة لأنهم لم يجدوا أمامهم أحداً من الهواشم الذين لو شهدوا الاجتماع أو واحد منهم وهو علي حصراً وتحديداً لما اختلفوا عليه ولما عدلوا به أحداً لا أبا بكر ولا غيره. والذي يؤكد أن فعل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة لم يأتِ عفو ساعته بل عن تدبير لإبعاد أبي بكر وعمر وأبي عبيدة لم يأتِ عفو ساعته بل عن تدبير لإبعاد أبي الحسن وسائر الهواشم عن اجتماع السقيفة أن الأنصار عندما كانوا يسألون علياً عن علة تخلفه عن شهوده يرد عليهم:

(أفكنت أدع رسول الله (ص) في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه... وتردف فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه وطالبهم به)[١٩٨].

كلمات فاطمة بنت القائد تقطع بأن ثالوث المكيدة صنع صنيعاً سوف يحاسبه الله عليه ويجازيه عليه، ولا يحق لأي شخص أن يدّعي بعد تصريح فاطمة هذا أن وصفنا لما فعله أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بالمكيدة فيه مبالغة أو قساوة... وهل من كان في مثل طهارة فاطمة ونقائها وصفائها، وقد منحها أبوها لقب سيدة نساء العالمين، يلقي الكلام إلقاءً على عواهنه، وبعد ما أعلنته على رؤوس الأشهاد وبمسمع من صحاب محمد الأكابر أن ثلاثي السقيفة أتى بما سوف يحاسبه الله عليه ويطالبه به.

هل ثمة مجال للمجادلة في نعت تلك العَمْلة بأنها مكيدة؟

(١٩٨) المصدر السابق والصفحة نفسها.

نعود مرة أخرى لسياقة الحديث:

البطون الفاخرة القرشية أسخطها أن يصطاد الخلافة واحد من أبناء بطونها العجاف وأفصح عدد من رجالاتها عن نقمتهم على رأسهم سيد قريش حسب تقويم أبي بكر له:

(وأخرج ابن عساكر عن سويد بن غفلة (رض) قال: دخل أبو سفيان على علي والعباس (رض) فقال: يا علي وأنت يا عباس ما بال هذا الأمر في أذلّ قبيلة من قريش وأقلها والله: لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال علي: لا والله ما أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجالاً... كذا في الكنز.

وأخرجه عبد الرزاق عن ابن الجبر قال:

لما بويع لأبي بكر الصديق جاء أبو سفيان إلى علي فقال: أغلبكم على هذا الأمر أقل بيت في قريش أما والله لأملأنها خيلاً ورجالاً فقال علي: ما زلت عدواً للإسلام وأهله...

وأخرجه الحاكم[١٩٩].

وصوّر اليعقوبي موقف أبي سفيان بن حرب تصويراً مقارباً:

وكان فيمن تخلف عن بيعة أبي بكر: أبو سفيان بن حرب قال: أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم وقال لعلي بن أبي طالب: أمدد يدك أبايعك وعلي معه قَصيّ وقال:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة وعديّ
فما الأمر إلاّ فيكم وإليكم وليس لها إلاّ أبو الحسن علي...[٢٠٠]

(١٩٩) نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، المجلد الثاني، ص ١١ مصدر سابق.
(٢٠٠) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ١٢٦، مصدر سبق لنا ذكره.

ونناقش الجملة التي أوردها عبد الرزاق في مصنفه وهي رد أبي الحسن والحسين على أبي سفيان **(ما زلت عدواً للإسلام وأهله)**:

نحن نرى أنّ هذه الإضافة من عمل أعداء بني أمية أُلصقت فيما بعد بالخبر وتشويه الآثار سواء بالإضافة أو الحذف أو التعديل أو التحوير أو حتى بالوضع أمر معروف ونقدم البراهين على لصقها بالخبر:

أ ـــ أن علياً كان في ذياك الوقت يبحث عن مناصرين له لأخذ حقه في إمرة المؤمنين الذي اغتصبه منه ابن أبي قحافة بمعاونة ابن الخطاب وابن الجراح فليس من المعقول أن يصك من جاء يبايعه ويمده بالخيل والرجال لاسترداده.

ب ـــ أن أبا سفيان أسلم عام الفتح (تحديداً قبيل فتح مكة في الطريق إليها) وعلي يعلم أن الإسلام يجبّ ما قبله.

جـ ـــ أن أبا الحسنين من علماء الصحابة بإطباق الجميع بل من أكابر علمائهم بل هو باب مدينة العلم ولا شك أنه سمع محمداً يشدّد النكير على من يرمي مسلماً بالكفر أو عداوة الله (من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلاّ حار عليه)[٢٠١]، ومن غير المعقول أنه يجهل هذا الحديث وأمثاله.

د ـــ كيف يكون أبو سفيان عدواً للإسلام وأهله وقد (شهد حنيناً مسلماً وفقئت عينه يوم الطائف فلم يزل أعور حتى فقئت عينه الأخرى يوم اليرموك أصابها حجر فشدخها فعمى)[٢٠٢]. فهل يسوغ أن يتهم علي من ضحّى بعينه

(٢٠١) **صحيح مسلم**.
(٢٠٢) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٤ ص ١٦٨، مصدر سابق.

يوم الطائف بالعداوة للإسلام والمسلمين؟

هـ ــ ثم بعد ذلك أبلى بلاءً حسناً في فتوح البلدان (عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلاّ رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب والمسلمون يقتلون هم والروم فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد)[٢٠٣]. وفيها فقئت عينه الأخرى ففقد بصره وأصبح أعمى.

نخلص من ذلك أن العبارة التي رواها عبد الرزاق في المصنف والتي نسب فيها إتهام أبي الحسنين لأبي سفيان بالعداء للإسلام هي من وضع خصوم الأمويين.

ويهمنا بعد ذلك أن نسلط الضوء على ما جاء على لسان أبي حنظلة (كنية أبي سفيان التي كان يناديه بها قائد الثورة محمد تقديراً لمكانته في قريش) في وصف رهط أبي بكر (بني تيم) بأنهم أذل وأقل بيت في قريش ــ وبداهة مثلهم في ذلك فرع ابن الخطاب (بني عديّ) ومن ثم فلم نتجاوز الحد عندما أطلقنا عليهم ألقاب (الزعانف والحراشف والفلوس...).

ولم يجرؤ واحد من بني تيم أو من بني عُديّ أن يتصدى لأبي سفيان وينفي تلك الصفات لأنها حقائق مع أن منهم من كان عضواً في مجلس شورى محمد (العشرة المبشرين بالجنة) مثل طلحة بن عبيد الله من بني تيم وسعيد بن زيد بن نفيل من (بني عديّ) ولم ينفرد أبو حنظلة بالحنق على تولي الأذلّين من قريش إمارة المؤمنين بل شاركه فيه كثير نكتفي بذكر واحد منهم لأنه جدير ببالغ التقدير ولا مغمز عليه.

(٢٠٣) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(وكان خالد بن سعيد غائباً فقدم فأتى علياً فقال: هلم فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك)[٢٠٤].

ولننتبه إلى القسم الذي صدر من خالد بن سعيد ــ وبعد قليل سوف نكشف عن رتبته ــ بأن علياً أولى بمقام محمد من أي شخص كائناً من كان.

وموقف خالد بن سعيد معروف مهور تجده مسطوراً لا في كتب السير والتواريخ فحسب بل وفي دواوين السنّة والطبقات مما يقطع بتواتره، وترتيباً عليه فلا مطعن فيه:

وأخرج ابن سعد (في الطبقات) عن أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص قالت: قدم أبي من اليمن إلى المدينة بعد أن بويع لأبي بكر فقال لعلي وعثمان (رضي الله عنهما) أرضيتم بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم فنقلها عمر إلى أبي بكر فلم يحملها أبو بكر على خالد وحملها عليه عمر وأقام خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر)[٢٠٥].

وهذه هي الأوسمة التي يعلقها خالد بن سعيد على صدره والتي تبرز مقامه الرفيع:

١ ــ قديم الإسلام ويقال إنه أسلم بعد أبي بكر فهو الثالث أو الرابع أي كان في وقت من الأوقات ثلثه أو حتى ربعه.

٢ ــ هاجر إلى الحبشة مرتين.

٣ ــ ثم قدم في حصار خيبر وأُسهم له فيها.

(٢٠٤) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ١٢٦، مصدر سابق.
(٢٠٥) نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي، المجلد الثاني، ص ١١، مصدر سابق.

٤ ــ شهد بعدها عمرة القضاء وفتح مكة وحنيناً والطائف وتبوك.

٥ ــ بعثه محمد على صدقات اليمن وتوفي محمد وهو هناك واستعمله على صنعاء اليمن وصدقات مذحج.

٦ ــ أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم[٢٠٦].

ولم تكن الذرى السوامق من قريش هي التي سخطت على مكيدة الثلاثي: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح بل ساهم في الغضب رجال من المهاجرين بل ومن الأنصار كما سبق وأوردنا.

وكان هذا النفر يجتمع في دار فاطمة فبلغ الخبر أبا بكر وعمراً فأتيا بجماعة حتى هجموا وخرج علي ومعه السيف فلقيه عمر فصرعه وكسر سيفه ودخلوا الدار فخرجت فاطمة وقالت: والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجّن إلى الله، فخرجوا وخرج من كان في الدار[٢٠٧].

ويذكر اين قتيبة واقعة أخرى عن تعرض عمر وذهابه في عصابة إلى بني هاشم مجتمعين في بيت علي طالباً منهم الخروج لمبايعة أبي بكر وخرج الزبير بن العوام إلى عمر بالسيف[٢٠٨].

وهناك رواية تؤكد أن عمراً همّ بتحريق بيت فاطمة بمن فيه ولكن أبا بكر زبره زبراً شديداً، ونحن لا نعوّل على هذه الرواية كثيراً وتكفينا الروايتان اللتان سبقتاها ونطرح بشأنهما الملاحظات الآتية:

١ ــ بأي حق يهجم أبو بكر وعمر على بيت فاطمة لمجرد أن

---

(٢٠٦) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٤٢٤، مصدر سابق.
(٢٠٧) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ١٢٦، مصدر سابق.
(٢٠٨) **الإمامة والسياسة**، لابن قتيبة ــ نقلاً عن (**الصديق أبو بكر**) محمد حسين هيكل ص ٦٤.

أفراداً اجتمعوا فيه لم يصدر من أحدٍ حتى ساعة الهجوم غير المشروع أي بادرة عنف أو فتنة.

٢ ــ ما هو النص الذي خوّل الشيخين اقتحام منازل المعارضين السياسيين بالقوة ومن المعجب أنه ما زال هناك حتى الآن من يتحدث عن الأولوية في تقرير حقوق الإنسان، بما فيها حق الاجتماع والمعارضة السلميين.

٣ ــ لم يتورع أبو بكر وعمر عن التعدي على بيت فاطمة ابنة قائدهما الحبيب ولم يمض على وفاته أيام تعد على أصابع اليد الواحدة أم أن الشيخين لا يهمهما في سبيل الاحتفاظ بالحكم أي شيء حتى إنتهاك حرمة دار بنت قائدهما الذي كانا منذ أمد قريب لا يجرؤان على رفع النظر إليه.

٤ ــ تخبرنا الواقعتان السابقتان أنّ ثمة من انحاز لبني هاشم لأنه استشعر بفداحة ما ارتكبه في حقهم ثالوث مكيدة السقيفة ومنهم الزبير بن العوام، ليتذكر القارئ أننا في مجال البحث عن علاقة القرشيين بالهواشم، والوقائع التي سردناها تجسّم حقيقتها حتى إنها بلغت مداها على يد واحد من أكابر الصحاب إلى حد الشروع في تحريقهم بالنار بل تحريق الدار بما فيها عليهم ودار من؟ فاطمة بنت محمد وعلي ابن عمه!

لماذا لأنهم يعارضون سلمياً المكيدة التي دبرها لهم ومعه آخران!

واستكمالاً للوقائع نورد تعليل علي في إحجام بني هاشم عن استخدام العنف رداً على تلك المكيدة:

لما خرج طلحة والزبير كتبت أم الحارث إلى علي بخروجهم فقال علي لطلحة والزبير: إن الله عزّ وجل لما قبض رسول الله (ص) قلنا نحن أهله وأولياؤه لا ينازعنا سلطانه أحد فأبى علينا قومنا فولّوا غيرنا وأيم الله لولا مخافة الفرقة وأن يعود الكفر ويبوء الدين لغيرنا فصبرنا...)[٢٠٩].

ثلاثة أسباب قدمها أبو الحسنين على صبر الهواشم على افتئات الفرعين النحيفين (تيم وعديّ) على حقوقهم في وراثة القائد محمد:

أ ــ مخافة الفرقة.

ب ــ عودة الكفر.

جـ ــ أن يبوء الدين لغيرنا أي الخضوع لغيرنا مما يعني خروج السلطة من قريش.

هل أخطأ أبو الحسنين إذ لم يدافع هو والهواشم بالعنف عن حقهم ويمتشقوا السيوف لاسترداده بعد أن سُلب منهم بالحيلة؟ الجواب عن هذا السؤال يندّ عن مجال بحثنا الذي يتحدد وينحصر في علاقة الهواشم بسائر القرشيين والنوازل التي سردناها والتي استقيناها من مصادر التراث العوالي تنوب عنا في توصيفها.

* * *

تلك كانت جولة سريعة اتسمت بالهرولة أوضحنا فيها:

العلاقة بين المهاجرين (النازحين لأثرب) واليهود، ثم بين الأنصار (بني قيلة) وبني إسرائيل والمهاجرين (القادمين) بالأنصار والأنصار بالأنصار (الأوس والخزرج) وأخيراً قريش ببني هاشم.

---

(٢٠٩) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٤٩٧، مصدر سابق.

حاولنا فيها أن نقدم الصورة الحقيقة كما حملتها لنا كتب التراث القيمة التي لا مطعن عليها دون تلوين أو تزويق أو برقشة أو نقوش... الخ.

وسوف يدرك القارئ بعد إتيانه على السطر الأخير من هذه الفاصلة أنها مغايرة تماماً لما يقرأه في كتابات جوق التفخيم والتعظيم والتبجيل، لأننا التزامنا فيها الأمانة العلمية وتمسكنا بالموضوعية وهي الصورة الحقيقية لأن الصحاب ــ كما قلنا مراراً وتكراراً ــ بشر من بشر، لا عصمة لهم ولا قداسة وهم أنفسهم وصفوا ذواتهم بذلك وانتقدوا أعمالهم وخطّأوا أقوالهم علانية وعلى المنابر.

ومن ثم نخلص إلى أن التجربة (تجربة المدينة) لم تكن ذهبية ولا هي مثالية أو نموذجية إنما هي تجربة بشرية قام بها بنون لآدم الذين هم بشهادة محمد هم خطّاءون.

* * *

[Blank Page]

الباب الثاني

مع الخمر

[Blank Page]

قبل التّحريم

كان الخمر والميسر من الأدواء الاجتماعية التي ضربت مجتمع أثرب وتغلغلت في أحشائه وتمكّنت منه (فإنه (ص) قدم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون القمار)[1]. وهو كما وصفه القرآن على خلق عظيم كان يدرك أن الخمر منقصة في حق الرجل ذي المروءة والشرف، وكان المتحنفون ــ الذي ينسبه البعض إليهم في بدء أمره ــ قد حرموا على أنفسهم شربها وكذا من تبصر أنها تخل بالكرامة مثل جعفر بن أبي طالب والرجل الذي لما سكر عبث بعكن (طيات بطن) ابنته الصليبة وسب والديه وخاطب القمر... الخ.

كما أن محمداً من جانب آخر فطن إلى أن الجندي من أتباعه إذا تعود على شرب المدامة (الخمر) فت ذلك في كفايته وأوهن من قوته وقلل من صلاحيته مما يؤثر على تنفيذ مشروعه الذي نذر نفسه إليه ألاّ وهو تحقيق حلم أجداده في تسييد قريش على العرب قاطبة

---

(١) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** أو **السيرة الحلبية** لعلي بن برهان الدين الحلبي، الجزء الثاني ص ٥٥٧، مصدر سابق.

وإقامة دولتها بيد أنه لتمكن الإسفنط[٢]، من نفوس الصحبة فليس من الحكمة حظر تناول الرحيق دفعة واحدة بل التدرج فيه حتى أدى في نهاية المطاف إلى تحريمها:

فقال عمر اللهم زدنا في البيان فنزل قوله تعالى:

﴿إنما الخمر والميسر﴾ الآية فقال عمر (رض) انتهينا ربنا[٣].

والأدلة على سعة ذيوع تعاطي السلافة لديهم كثيرة منها:

أن بعضهم فزع إثر تحريمها وتساءل ما بال إخواننا الذين ماتوا والقهوة في بطونهم وهم مؤمنون بل ومجاهدون فطمأنهم القائد المحنك أنه لا تثريب عليهم فقد فعلوه وهو مباح.

ومنها (= الأدلة) ما حدث بعد التحريم:

(روى الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر أمرني رسول الله (ص) أن آتيه بمدية وهي الشفرة فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال: أغد عليَّ بها ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته كلها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي ويعاونوني وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلاّ شققته ففعلت فلم أترك في أسواقها زقاً إلاّ شققته)[٤]، ولذلك من البديهي أن تحولت سكك

---

(٢) الإسفنط أحد أسماء الخمر ومنها القهوة والسلافة والعقار والراح والخندريس والرحيق... الخ من كتاب **نظام الغريب في اللغة** لعيسى بن إبراهيم الوحاظي الحميري تحقيق محمد علي الأكوع الخوالي الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا.

(٣) كتاب **المبسوط** لشمس الأئمة السرخسي، المجلد ١٢ (٢٣/ ٢٤) ص ٥، د. ت. ن.، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٤) **المغني** لابن قدامة، ص ٦٠٢، المجلد الخامس، طبعة دار الغد العربي بمصر.

وحواري وأزقة المدينة/ أثرب إلى قنوات من الخمر.

في حديث أنس... فكسرت الدنان وأريقت الخمر حتى جرت في سكك المدينة[٥].

ولكي يتيقن القارئ من مدى تفشي الصهباء لدى أولئك القوم فليضع في حسبانه أن عدد سكان أثرب آن ذاك كان محدوداً نسبياً إذ إنها كما وصفت لنا قرية صغيرة لا مدينة كبيرة وسوف يأتي في خبر أبي طلحة الأنصاري أنه أمر أنس بن مالك الذي كان يسقيه وضيفانه الفضيخ (نوع من السلسبيل أو الخمر) قم فاكسر هذه القلال (جمع قلة)[٦].

فهذا صحابي واحد، لم يشتهر بالثراء العريض أو المال الوسيع يخزن في بيته جرات عظيمة من الصرف (الخمر غير الممزوجة). ألا يبرهن هذا على مدى فشوها بينهم وأن تخزينها في مساكنها أمر مألوف وعرف شائع.

وإذا كان هذا هو حالها عند فرد فكم تبلغ مقاديرها في الأسواق ولدى الخمّارين؟

الخلاصة أن القهوة أو الشمول (من أسماء الخمر) كانت أثيرة لديهم حبيبة إلى قلوبهم وشكّل تعاطيها عندهم طقساً يومياً مثل مخالطة النساء وكانوا يشربونها غدوة ويسمونها (الصبوح) أما وجبة المساء فهي (الغبوق) ومن ثم فمن الطبيعي أن نقرأ في العوالي

(٥) **أحكام القرآن** لابن العربي، القسم الثاني، تحقيق البجاوي، ص ٦٥٧، طبعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار المعرفة، بيروت، وعقب على هذا الخبر ابن العربي: وهو ثابت وصحيح.

(٦) **القلة:** الجرة العظيمة من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، فصل القاف باب اللام ا. هـ. وفي الحديث (مثل قلال هجر).

من كتب التراث بمختلف صنوفها وقائع عن تناول (المزاء) أو الخمر أبطالها من الرتب الكبيرة من الصحبة:

١ ـ (وروى أن الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر... ﴾ نزلت في ملاحاة جرت بين سعد بن أبي وقاص ورجل من الأنصار وهما على شراب لهما وقد انتشيا فتفاخرت الأنصار وقريش فأخذ الأنصاري لحيى جمل فضرب به أنف سعد بن أبي وقاص ففرزه (شقه) فنزلت الآية... وروى أن ذلك الأنصاري كان عتبان بن مالك روى ذلك الطبري والترمذي وغيرهما)[٧].

وورد الخبر نفسه في مصدرين آخرين لا يقلان عن الأول في الدرجة:

(وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت فيَّ آيات من القرآن وفيه قال: وأتيت على نفر من الأنصار فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حش، والحش البستان، فإذا رأس جزو مشوي عندهم وزق خمر، فأكلت وشربت معهم قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار قال: فأخذ رجل لحيى جمل فضربني فجرح أنفي وفي رواية أخرى ففزره (شقه) وكان أنف سعد مفزوراً، فأتيت رسول الله (ص) فأخبرته فأنزل الله فيَّ ــ يعني نفسه ــ شأن الخمر، ﴿إنما الخمر والميسر...﴾ الآية)[٨].

---

(٧) **أحكام القرآن**، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المتوفى ٥٤٣هـ/ تحقيق علي محمد البجاوي، المجلد الثاني، ص ٦٥٦ طبعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م دار المعرفة، دار الجيل، بيروت، لبنان.

(٨) **الجامع لأحكام القرآن** المعروف **بتفسير القرطبي**، لأبي عبد الله محمد القرطبي، في **تفسير سورة المائدة** ص ٢٢٨ كتاب الشعب، مصر، **وأسباب النزول**، لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، ص ١٣٨، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي بمصر.

وأول القطبين في هذا الأثر هو سعد بن أبي وقاص أو سعد بن مالك أحد العشرة المبشرين بالجنة والذي وطئ بجنوده العراق ففعلوا فيه الأفاعيل وأنعم عليه بلقب (بطل القادسية) من أجل ذلك.

أما الآخر فهو عتبان بن مالك أنصاري خزرجي من بني العجلان شهد بدراً الكبرى وإنْ لم يدرجه ابن إسحاق في البدريين ومن رواة حديث محمد فقد أخذ عنه أنس بن مالك ومحمود بن الربيع، أي أنه حمل وسامين رفيعين، شهود بدر الكبرى ورواية الحديث المحمدي[٩].

٢ ــ (روى عن أنس قال كنت أسقي أبا طلحة وأبيّ بن كعب وأبا عبيدة شراباً من فضيح: فأتانا آتٍ فقال: إن الخمر قد حُرّمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذه الدنان فاكسرها)[١٠].

وله طرق أخرى حملتها الذُرى من كتب العلوم الإسلامية المتنوعة:

(وروى حميد الطويل عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبيّ بن كعب وسهيل بن بيضاء في نفر في بيت أبي طلحة فمر بنا رجل فقال: إن الخمر قد حُرّمت...)[١١].

---

(٩) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثالث، ص ١٢٣٦، **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري المجلد الثالث، ص ٥٥٨، سابقان.

(١٠) **المغني** لابن قدامة، المجلد الخامس، ص ٦٠٣، مصدر سابق.

(١١) **أحكام القرآن** لعماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي المتوفى سنة ٥٠٤هـ، ص ٩٩ من الجزء الثالث، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، **وأحكام القرآن** لأبي بكر الجصاص، المجلد الثاني ص ٤٦١، د. ت. ن، دار الفكر، القاهرة.

(وفي البخاري عن أنس (رض) قال: وإني لقائم أسقي أبا طلحة وأنا أيوب وأبا دجانة ومعاذ بن جبل وسُهيل بن بيضاء وأبيّ بن كعب وأبا عبيدة بن الجراح (رض) إذا جاء رجل وقال: هل بلغكم الخبر؟ قالوا وما ذاك؟ قال: حُرّمت الخمر، قالوا أهرق هذه القلال يا أنس فأهرقت وفي لفظ قال أنس (رض): فقمت إلى مهراس فضربتها بأسفله حتى تكسرت)[١٢].

وهكذا غدا متواتراً لا سبيل إلى التشكيك في صحته، ومما يقطع بأن (القهوة) ــ الخمر حازت على شعبية كاسحة في ذياك المجتمع، أن الخبر تضمن أسماء نجوم لوامع من الصحبة منهم نوازح «مهاجرون» وأثاربة عرب أصحاب البلد (أنصار) ونلفت النظر إلى أبي عبيدة بن الجراح الذي سوف يغدو بعد أعوام أقلاّء أحد أضلاع مثلث المكيدة التي أطاحت بحق الهواشم عامة وأبي الحسن خاصة في وراثة مُلك محمد كما رأينا.

٣ ــ (عن ابن شهاب قال أخبرني علي بن الحسن أن حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب قال:

كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر وكان رسول الله (ص) أعطاني شارفاً من الخُمس ولما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله (ص) واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به في وليمة عرسي فيما أجمع لشارفيّ من الأقتاب والغرائر والحبال وشارفاي مناخان إلى حجرة رجل من الأنصار فإذا أناب شارفيّ قد أُجبّت أسنتهما وبُقرت خواصرهما وأُخذ من أكبادهما فلم أملك

(١٢) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** أو **السيرة الحلبية** لعلي بن برهان الدين الحلبي، الجزء الثاني.

عينيّ حين بصرت ذلك المنظر، قلت من فعل هذا فقالوا: فعله حمزة وهو في البيت في شرب من الأنصار عنده قينة وأصحابه فقالت في غنائها:

ألا يا حمـــز للشرف النواء   وهـــن معقـــلات بالفنـــاء
زج السكين في اللبات منها   فضرجهن حمزة بالدمـــاء
فأطعم من شرائحها كبـــاباً   ملهوجة على رهج الصلاء
فأنت أبا عمـــارة المرجى   لكشف الضر عنـــا والبلاء

فوثب إلى السيف فأجبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما قال علي (ع) فانطلقت حتى أدخل على النبي (ص) وعنده زيد بن حارثة، قال: فعرف رسول الله (ص) الذي لقيت فقال: ما لك؟ فقلت: يا رسول الله ما رأيت كاليوم عدا حمزة على ناقتيّ وجبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما هو ذا في بيت معه شرب شُرب قال: فدعا رسول الله (ص) بمردائه ثم انطلق يمشي فاتبعت أثره أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه فاستأذن فأذن له فإذا هم في شِرب فطفق رسول الله (ص) يلوم حمزة فيما فعل فإذا حمزة ثمل احمرت عيناه فنظر حمزة إلى رسول الله (ص) ثم صعّد فنظر إلى وجهه ثم قال: هل أنتم إلاّ عبيد أبي فعرب رسول الله (ص) أنه ثمل فنكس على عقبيه القهقري فخرج وخرجنا.

وهذا الحديث ورد ذكره في العديد من المصادر ممّا يشهد بصحته.

رواه البخاري عن أحمد بن صالح، وكانت هذه القصة من الأسباب الموجبة لنزول تحريم الخمر)[١٣].

وقد جاء أن حمزة (رض) لما شربها قال للنبي (ص) ومن معه هل

(١٣) **أسباب النزول** لأبي الحسن الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، ص ١٣٩، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م مؤسسة الحلبي وشركاه بمصر.

أنتم إلاّ عبيد لأبي؟ أي ففي البخاري أن حمزة (رض) لما شرب الخمر خرج فوجد ناقتين لعلي بن أبي طالب (ع) فعلاهما بالسيف وبقر خواصرهما ثم أخذ من أكبادهما وجبّ سناميهما، قال علي (ع) فنظرت إلى منظر أفزعني فأتيت نبي الله (ص) ومعه زيد بن حارثة فأخبرته الخبر فانطلقت معه فدخل على حمزة فتغيظ عليه، فرفع حمزة (رض) بصره وقال: هل أنتم إلاّ عبيد لأبي، فخرج النبي (ص) يقهقر حتى خرج وذلك قبل تحريم الخمر، ولكون السكر كان مباحاً لم يرتب على قول حمزة مقتضاه، مع أن من قال لنبي أنت عبدي أو عبد أبي كفر)[١٤].

حمزة بن عبد المطلب كان من الفرسان وهو عم محمد، وشهد بدراً الكبرى وأُحداً وأبلى فيهما بلاءً حسناً وفي العركة الأخيرة استأجرت هند أم معاوية وزوج أبي سفيان مَنْ قتله غيلة وغدراً.

ومع كل هذه الصفحة الناصعة البيضاء كان حمزة ممن يتعاطون الخندريس، وفي هذه المرة التي يقُصها علينا الخبر سكر حتى فَقَدَ وعيه[١٥]. فاستثارته أبيات من الشعر غنتهم الجارية فاعتدى اعتداءً منكراً على ناقتين لابن أخيه علي بن أبي طالب، ولما عاتبه محمد فاجأه بكلمة غيظ جافية لم يسبق لمسلم ولا لغير مسلم أن وجهها إليه، ويرى برهان الدين الحلبي أن هذه العبارة لو قالها مسلم في حالة صحو لكفر وبالتالي اعتبر مرتداً، ولكن محمداً القائد الحكيم أدرك أن عمه حمزة قد غلبته على عقله

(١٤) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** أو **السيرة الحلبية** لعلي بن برهان الدين الحلبي، الجزء الثاني، ص ٥٥٧.

(١٥) تقول العامة في مصر عمن يفعل ذلك أنه (سكران طينة) أو (سكر سكرة يَنيّ).

حُميا الخمر وسورتها ودبيبها وأنه دخل في طور الهذيان فلم يشأ أن يصعّد الموقف وتغاضى عن هفوة حمزة الذي طالما دافع عنه وعن الديانة التي كان يفشوها. وهكذا يفعل القائد المحنك.

٤ ــ (روى أبو داود والترمذي والنسائي والحـاكم عن علي قـال: صنع لنا عبد الرحمان بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون!!! فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[١٦].

والقرطبي في تفسيره يورد الخبر ولكنه يقصره على رواية الترمذي:

(روى الترمذي عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمان بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح)[١٧].

* * *

تلك كانت وقائع متعددة أعطتنا مزيداً من البرهان على أن شرب الخمر كان شائعاً في مجتمع أثرب في تلك الحقبة حتى إن

(١٦) **أسباب النزول** للسيوطي، ص ٥٢، طبعة ١٣٨٢هـ، كتاب التحرير رقم ٢، دار التحرير، القاهرة.
(١٧) **الجامع لأحكام القرآن** المشهور بـ «تفسير القرطبي» ص ١٧٧٠ طبعة كتاب الشعب بمصر.

عدداً من مشاهير الصحاب كانوا يتعاطونها، وبداهة أنه لا تثريب عليهم في ذلك لأنها كانت مباحة.

ولكن هل توقف تناول المزة (الخمر) فوراً إثر التحريم؟

سوف تجيب الوقائع أو النوازل أو الأخبار التي سوف نسردها عن هذا السؤال؟

* * *

بعد التحريم

اتضح لنا فيما سقناه من أخبار أن ما يسمى في علم النفس (المرضى) بـ «الظاهرة الكحولية» واحدة من أهم شارات المجتمع الأثربي آنذاك، وأن نسبة (الكحوليين) فيه مرتفعة ويندّ عن نطاق مبحثنا إيراد علل انتشارها وكأي مجتمع كحولي تتفاوت درجات الكحوليين فيه:

فمنهم من يكتفي بتعاطي الكحول وهناك من يتعود عليها وفريق ثالث يعتمد عليها والاعتماد رتبة أعلى من التعوذ وأخيراً نصل إلى نهاية الشوط في هذا السلم الكحولي وهو الإدمان بيد أنها جميعها باختلاف مقاماتها تعرف بـ (الاعتماد الكحولي)، وهي تناول الشخص شراباً كحولياً والإقبال عليه باعتباره طقساً حياتياً أو معاشياً من الصعب أحياناً ومن المستحيل أحياناً أخرى الإقلاع عنه، هذه السطور قدمناها لنصل إلى أن تحريم الخمر لم يؤدِ إلى الكف عن تناولها لأن الظواهر الاجتماعية السلبية أو الجانحة لا ترتفع بصدور النواهي ولكن هناك أسباباً أخرى فاعلة ومؤثرة وهي تغيير الظروف المادية لـ (البنى التحتية) هذا بصفة عامة أما بالنسبة لـ (الظاهرة الكحولية) فإن لها خصوصية تنفرد بها عن جميع أو

غالبية الظواهر الاجتماعية النظيرة، وهي أن لها تأثيراً نفسياً وفسيولوجياً على (الإنسان الكحولي) وخاصة على مناطق معينة في المخ والأعصاب. وهذا واضح وملموس فإن (الإنسان الكحولي) إذا حُرم من الكحول انتابته الكآبة وركبه القلق وعمّه الاضطراب ما يؤدي به إما إلى العدوانية أو الانتحار.

ومن ثمة فإنه عندما تلا محمد على الصحبة آية الاجتناب أو التحريم تفاوتت ردود أفعالهم إزاءها:

أما الفريقان الأول والثاني ونعني بهما فريق المتعاطين وفريق المتعودين فقد فارقا شرب الخندريس وقالوا انتهينا يا رب إجابة عن السؤال الذي ورد بالآية: فهل أنتم منتهون؟

أما الفريق الثالث (المعتمدون) فقد التفوا حول نص الآية بزعمهم أنهم يكسرون شدة الشراب أي يضيفون إليه نسبة كبيرة أو متوسطة أو صغيرة من الماء القراح، أو أنهم أكدوا أن آية التحريم أو الاجتناب ارتبطت بظروف خاصة لم يعد لها وجود ما يعني وقتيتها وهو أمر بالغ الخطورة إذ يعتبر أحد الجذور الهامة لنظرية (تاريخية النصوص)، أما الفريق الرابع الذي حاز رتبة الإدمان فلم يمتنع رغم توقيع الحد (العقوبة) عليه مثنى وثلاث ورباع.

وهذه صور لسلوكيات بعض الصحاب بعد ورود الآية بالاجتناب (التحريم):

١ ـــ شرب السلافة في السر داخل البيوت وراء الأبواب المسككة:

أ ـــ عن الشعبي أن عمر بن الخطاب (رض) فقد رجلاً من أصحابه فقال لابن عوف (رض): انطلق بنا إلى منزل فلان فننظر فأتيا منزله فوجدا بابه مفتوحاً وهو جالس

وامرأته تصب له في الإناء فتناوله إياه فقال عمر لابن عوف: هذا الذي شغله عنا فقال ابن عوف لعمر: وما يدريك ما في الإناء؟ فقال عمر: أتخاف أن يكون هذا هو التجسس؟ قال: بل هو التجسس؟ وقال: وما التوبة من هذا؟ قال: لا تُعلمه بما اطلعت عليه من أمره ولا يكونن في نفسك إلاّ خيراً ثم انصرفا. أخرجه ابن المنذر، كذا في الكنز (كنز العمال).

ب ــ عن طاووس أن عمر بن الخطاب (رض) خرج ليلة يحرس رفقة نزلت بالمدينة حتى إذا كان في بعض الليل مرّ ببيتٍ فيه ناس يشربون فناداهم أفسقاً؟ فقال بعضهم: قد نهاك الله عن هذا فرجع عمر وتركهم.

أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كذا في كنزل العمال.

جـ ــ عن أبي قلابة أن عمراً (رض) حُدّث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحاب له فانطلق عمر حتى دخل عليه فإذا ليس عنده إلاّ رجل فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين إن هذا لا يحلّ لك قد نهاك الله عن التجسس فقال عمر: ما يقول هذا؟ فقال له زيد بن ثابت وعبد الرحمان بن الأرقم (رض): صدق يا أمير المؤمنين، هذا من التجسس فخرج عمر وتركه.

أخرجه الطبراني، وكذا في الكنز[١٨].

في هذه الأخبار تعاطى أصحابها السكَر (بفتح الكاف) في دورهم ولكن عمراً الذي كانت عينه دائماً على الرعية لم تخف عليه أمورهم ففاجأهم وهم في حالة

(١٨) **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩، مصدر سابق.

تلبس ولكنهم دفعوها بدفع شكلي وهو انتفاء حق عمر في التجسس عليهم وسوف نعرّج على تقويم صنيع عمر بن الخطاب في التجسس على المحكومين وهم في عقر دورهم إنما نبرز استمرار تناول المزاء بعد النهي.

د ــ النعمان بن عديّ بن نضلة قدم من أرض الحبشة فبقي حتى كانت خلافة عمر فاستعمله على ميسان من أرض البصرة فقال أبياتاً من شعر وهي:

ألا هل أتى الحسناء أنى حليلها ... بميسان يسقى من زجاج وحنتمي
إذا شئت غنتني دهـــاقين قرية ... ورقـــاصة تجـــذو على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تســـقني بالأصغـــر المتـــثلم
لعـــل أميـــر المؤمنين يســـوؤه ... تنادمنـــا في الجوســـق المتهرم

فلما بلغت أبياته عمر قال: نعم والله إن ذلك ليسؤني فمن لقيه فليخبره أني قد عزلته وعزله[١٩].

إذا كان الثلاثة الذين تجسس عمر عليهم واقتحم عليهم خلوتهم في بيوتهم رغم وجود نص صريح ينهي عن التجسس ويشمل الحاكم والمحكوم بل هو في حق الحاكم أوعر لأنه لا يليق به أن يستغل سلطاته لاقتحام خصوصيات المحكومين وتتبع نقاط ضعفهم وكشف عوراتهم... فإن النعمان هذا، وكان فناناً يقول الشعر، قد صرح بهيامه بالشمول ويبدو من وصفه إياها التي حملته الأبيات أنه صاحب مزاج[٢٠]، وشرّيب مكين[٢١].

(١٩) **السيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الرابع، ص ٥٥، مصدر سابق.
(٢٠) **المزاج:** التكوين العضوي والفسيولوجي للفرد ويطلق مجازاً على اتجاه الفكر عند الإنسان وبخاصة عند الفنانين والكتّاب، ج: أمزجة، **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.
(٢١) العامة في مصر تقول: سُكَري قراري.

ولما كان النعمان بن عديّ من مهاجري الحبشة فنرجح أن داء الغربة ومرارة الإستلاب (نفسياً ومكانياً) والبعد عن الأهل والعشيرة كلها قد ضربته فلجأ إلى (القهوة ــ الخمر) يسكّن بها ما اضطرب من أمره ويرفع عنه ما ركبه من غم وهم وإحباط ولطول شربها واعتماده عليها ولشدة ولعه بها غازلها في شعره كما يفعل العاشق بمن يهيم بها.

التأويل المغلوط الناشئ من الاعتماد

(كما أن جماعة استحلوا شرب الخمر على عهد عمر منهم قدامة ورأوا أنها حلال لهم ولم تكفرهم الصحابة حتى بيّنوا لهم لهم خطأهم فتابوا ورجعوا، وهو قدامة بن مظعون من السابقين الأولين)[٢٢].

وقد شهد على قدامة سيد بني عبد قيس وأبو هريرة:

(وروى الزهري قال: أخبرني عبد الله بن عامر بن ربيعة أن الجارود سيد بني عبد القيس وأبا هريرة شهدا على قدامة بن مظعون أنه شرب الخمر...)[٢٣].

قدامة بن مظعون هذا بدري وسبق أن قلنا إن هذا وسام رفيع بيد أنه وقد تمكّن حب المزّاء (الخمر) منه فقد دعاه إلى أن يلتف حول آية الاجتناب بأن يتأول آية أخرى يقطع بأنها تجبّ النهي الذي ورد بالأولى:

(وروى البخاري عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة قال: استعمل عمر قدامة بن مظعون على البحرين وقد كان شهد بدراً وهو خال ابن عمر وحفصة زوج النبي (ص) وزاد البرقاني: فقدم الجارود من البحرين فقال: يا أمير المؤمنين إن قدامة بن مظعون قد شرب مسكراً وإني إذا رأيت حداً

(٢٢) **منهاج السنة النبوية** لابن تيمية، ص ٢١، المجلد الثالث، مصدر سابق.
(٢٣) **أحكام القرآن** للجصاص، ص ٤٦٥، المجلد الثاني، د. ن. ت. ن. دار الفكر بمصر.

من حدود الله تعالى حق عليَّ أن أرفعه إليك فقال له عمر: من يشهد لي على ما تقول فقال: أبو هريرة... فقال أبو هريرة وهو جالس: يا أمير المؤمنين إن كنت تشك في شهادتنا فسل بنت الوليد امرأة ابن مظعون. فأرسل عمر إلى هند ينشدها بالله فأقامت هند على زوجها قدامة الشهادة فقال عمر: يا قدامة إني جالدك...)[٢٤].

وشهادة زوج قدامة عليه وردت في العديد من العوالي من كتب الحديث:

(عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عمراً (رض) استعمل قدامة بن مظعون (رض) على البحرين وهو خال حفصة وعبد الله ابني عمر ــ فقدم الجارود (رض) ــ سيد عبد القيس على عمر من البحرين وقال: يا أمير المؤمنين إن قدامة شرب فسكر... وشهد أبو هريرة أنه رآه سكران يقيئ ثم شهدت عليه زوجته هند بنت الوليد... فأمر به عمر، فجُلد) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كما ورد في الإصابة[٢٥].

ولا يوجد أوثق من شهادة المرأة على بعلها، بيد أن تأويل قدامة المغلوط لم يفُت على عمر ودعا ترجمان القرآن وحبر الأمة عبد الله بن العباس للرد عليه بعد أن سكت من كان موجوداً من الصحب آنذاك. ولكن لماذا آثروا الصمت؟

في رأينا أن ذلك مرده لسببين:

أ ــ إما أن تأويل قدامة المفسود أعجبهم وودوا لو فلج فيه فيعطيهم رخصة للعودة إلى معاقرة الصرف (الخمر).

ب ــ أو أنهم راعوا أن قدامة خال بعض ولد عمر ومنهم حفصة زوج قائد الثورة وأمهم (أم المؤمنين) فكيف يُفتون

(٢٤) **أحكام القرآن** لابن العربي، تحقيق البجاوي، القسم (الجزء) الثاني، ص ٦٦٠، طبعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧، دار الجيل، بيروت، لبنان.
(٢٥) **حياة الصحابة** ص ٢٢٩، الجزء الثاني، الكاندهلوي، مصدر سابق.

ضده بيد أن ابن عباس وكان حديث السن نسبياً لم يأبه لهذه الاعتبارات خاصة وأنه ابن عم القائد نفسه، فتصدى وفند تأويل قدامة اللقس:

(في حديث ابن عباس أن قدامة بن مظعون شرب الخمر فقال له عمر: ما يحملك على ذلك فقال إن الله يقول: ﴿ليس على الذين عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذ ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ (الآية) وإني من المهاجرين الأولين من أهل بدر وأُحُد فقال عمر: أجيبوا الرجل فسكتوا عنه فقال لابن عباس: أجبه فقال: إنما أنزلها عذراً للماضين لمن شربها قبل أن تُحرم)[٢٦].

النبيذ

أ ــ (حدثنا أبو إسحق عن عمرو بن ميمون قال:

شهدت عمر بن الخطاب حين طُعن وقد أُوتي بالنبيذ فشربه... وروى إسرائيل عن أبي إسحق عن الشعبي عن سعيد وعلقمة أن أعرابياً شرب من شراب عمر فجلده عمر الحد فقال الأعرابي: إنما شربت من شرابك فدعا عمر شرابه فكسره بالماء ثم شرب منه وقال من رابه من شرابه شيء فليكسره بالماء، ورواه إبراهيم النخعي عن عمر نحوه وقال فيه: إنه شرب منه بعدما ضرب الأعرابي)[٢٧].

هذه الأخبار وردت في كتاب «أحكام القرآن» للجصاص وهو من أجلّ كتب مذهب الأحناف، ورواتها من الثقاة الذين لا مطعن عليهم وفيها أن عمراً جلد الأعرابي الذي شرب من الشراب عينه الذي كان يتناوله عمر نفسه فبأي حق أقام عليه الحد؟

(٢٦) **منهاج السنّة النبوية** لابن تيمية ص ١٤٩، الجزء الثالث، مصدر سابق.
(٢٧) **أحكام القرآن** للجصاص، المجلد الثاني، ص ٤٦٥، د. ت. ن. دار الفكر بمصر.

وفي عُجُز الخبر أن عمراً شرب منه بعد حدّ الأعرابي أي دون أن يكسره بالماء؛ وراويه هو إبراهيم النخعي وهو من خيرة التابعين ومن أعلام فقهاء الكوفة (العراق) ومن أساتذة الإمام الأعظم أبي حنيفة شيخ المذهب، فما هو تعليل ذلك؟

هناك من الأسئلة ما نترك الإجابة عنه لفطانة القارئ اللبيب!!!

ب ــ فمن ذلك حديث زياد (قال سقاني ابن عمر (رض) شربة ما كدت أهتدي إلى منزلي، فغدوت عليه من غدٍ فأخبرته بذلك فقال ما زدناك على عجوة وزبيب...)[٢٨].

وسبق أن أوردنا بأسانيد عوال أن ابن عمر عندما تضلّع من المال، بعد تدفق الأموال الأسطورية من البلاد الموطوءة، كان يقتني الجواري الوضيئات ويلبسهن ملابس الحرائر ويحلّيهن بالذهب وكان من بينهن إماء من بنات بني الأصفر (روميات)!

ولا تتم المتعة إلاّ بتعاطي الشراب الذي يفقد الوعي حتى يعسر على شاربه أن يهتدي إلى بيته، وكيف يستحيل عبد الله بن عمر ذلك، ألأنه رأى أباه يشرب النبيذ الشديد وكان يعتبره قدوة ومن شابه أباه فما ظلم!!!

والخبر أورده شمس الأئمة وفخر الإسلام شمس الدين السرخسي في كتابه (المبسوط) الذي يُعدّ من عُمُد الفقه الحنفي، وإذا كانت مثل هذه الموسوعة الفقهية التي تنال

(٢٨) كتاب **المبسوط** لشمس الأئمة فخر الإسلام شمس الدين السرخسي، المجلد الثاني عشر، ٢٣، ٢٤، ص ٥، د. ت. ن. دار المعرفة، لبنان.

عظيم الاحترام وبالغ التقدير ومنتهى الإكرام والتكريم تحتوي على أخبار مضروبة[٢٩]، فقل على الفقه الإسلامي كله وفي جميع المذاهب السلام!!!

جـ ــ ولم يكن عمر وابنه هما اللذان انفردا بذلك فـ:

(قد تواترت الآثار عن جماعة من علية السلف شرب النبيذ الشديد منهم عمر وعبد الله وأبو الدرداء وبُريدة وآخرون.. فينبغي على قول هذا القائل أن يكونوا قد شربوا خمراً)[٣٠].

الخبر أورده الجصاص في (الأحكام) وفيه كرر شرب عمر وابنه عبد الله للنبيذ الشديد[٣١]. وأضاف إليهما أبا الدرداء وبُريدة وآخرين وبداهة كلهم من الصحبة، ويهمنا أن نذكّر القارئ بما سبق أن سطرناه: أن (الظاهرة الكحولية) على وجه الخصوص لا تختفي بصدور الزواجر والنواهي!!!

د ــ (روى عن عبد الرحمان بن أبي ليلى قال: سقاني علي (رض) نبيذاً فلما رأى ما بي من التغير بعث معي قنبراً يهديني)[٣٢].

النبيذ الذي كان يشربه علي يغيّر حال شاربه حتى يستحيل عليه أن يهتدي إلى داره وهذا ما فعله بعبد الرحمان بن أبي ليلة مما اضطر علياً أن يأمر غلامه قنبراً أن يوصله إلى منزله!!!

وخبر آخر عن شرب علي للنبيذ المشتد:

(٢٩) العامة في مصر تقول على أي شيء فاسد أو مغشوش أنه مضروب.
(٣٠) **أحكام القرآن** للإمام أبي بكر الجصاص، المجلد الثاني، ص ٤٦٣، د. ت. ن. دار الفكر بمصر.
(٣١) الكحوليون يسمون هذا النوع من النبيذ الشديد (سِكْ) أي صرف لم يمزج بماء ولا يفعل ذلك سوى الشريبة القرارين.
(٣٢) **المبسوط** للسرخسي، المجلد الثاني عشر، ص ١٢، مصدر سابق.

(حدثنا أبو بكر بن عياش (رحم) قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة (رحم)، أنه شرب عند عبد الله بن مسعود، نبيذاً مشتداً صلباً وكذلك علي بن أبي طالب (رض) نبيذاً مشتداً كان يعتاده)[٣٣].

هذان الخبران رواهما شمس الأئمة في كتابه الذي يعتبر بالإجماع أحد أركان فقه الأحناف ورواتهما هذه الكوكبة اللامعة من كبار التابعين الفقهاء الأثبات لا يشكك فيهم إلاّ شكس لجوج، تقرع سمعك كلمات مثل: (نبيذ مشتد، صلب، كان يعتاده، رأى ما بي من التغير، بعث معي قنبراً يهديني) وهي تدلك على ماهية الشراب، وسبق أن ذكرنا أن علياً (قبل التحريم) شرب خمراً في دار عبد الرحمان بن عوف، ولما حان وقت الصلاة قدموه ليؤمهم فقرأ سورة الكافرون ولكنه خربقها ووصل الخبر محمداً وكما ذكرنا مراراً أنه في الحالات المعضلة يتلو عليهم آيات من القرآن تحل المشكلة، فقرأ عليهم الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾[٣٤].

هـ ــ عبد الله بن مسعود:

من أدنى له مُسكة من فقه يعرف أن العراقيين يحلون النبيذ ولهم في ذلك أسانيد لا مجال لذكرها ولما كان الصحابي عبد الله بن مسعود هو رأس العراقية في الفقه فقد رجّحت أن استحلال النبيذ ميراث من ابن مسعود وقد صدق حدسي فقد تواترت الأخبار على ذلك وغدا

(٣٣) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.
(٣٤) **القرآن الكريم**، سورة النساء، الآية ٤٢.

دفعها أو التشكيك فيها ضرب من المحال:

(عن إبراهيم عن علقمة والأسود قال: كنا ندخل على عبد الله بن مسعود (رض)، فيسقينا النبيذ الشديد... حدثنا الأعمش بن إبراهيم عن علقمة قال: شربنا عند عبد الله بن مسعود نبيذاً صلباً آخره يُسكر)[٣٥].

مرة أخرى الخبر أورده الجصاص في (الأحكام) ورواته من علية التابعين الفقهاء وأوتاد مدرسة العراق في الفقه وفي الشطر الأول من الخبر (النبيذ الشديد) وفي الشطر الآخر (نبيذاً صلباً آخره يسكر). وأين ذهبت آية الاجتناب إذن؟ وخبر آخر من مصدر مغاير:

(قال حماد: دخلت على إبراهيم النخعي وهو يأكل فأكلت معه فدعا لي بنبيذ فلما رآني أبطأت عنه، حدّثني عن علقمة أنه دخل على عبد الله بن مسعود وهو يأكل فأكل معه ثم أتوا بنبيذ تنبذه له أم ولده سيرين في جر أخضر فشرب منه ابن مسعود وعلقمة)[٣٦].

ومعنى (أم ولده) أي جارية ولدت له أولاداً، ويدل اسمها على أنها من أصل غير عربي[٣٧]. ونرجّح أنها كانت أخصائية خرِّيتة في صنع النبيذ!!!

(وعن حماد (رض) قال دخلت على إبراهيم (رحم) وهو يتغدى فدعا بنبيذ فشرب وسقاني فرأى فيَّ الكراهة فحدثني عن علقمة رحمه الله أنه كان يدخل على عبد الله بن مسعود (رض) فيتغدى

(٣٥) **أحكام القرآن** للجصاص، المجلد الثاني، ص ٤٦٤، د. ت. ن. دار الفكر بمصر.
(٣٦) **موسوعة فقه إبراهيم النخعي**، تجميع د. محمد رواس قلعة جي الجزء الأول، ص ٢٨٦، مادة (أشربة) الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦، دار النفائس، بيروت.
(٣٧) في كتب السيرة أن اسم الجارية الأخرى التي أرسلها المقوقس حاكم مصر إلى محمد مع مارية كانت تسمى (سيرين) وقد أهداها لشاعره حسان بن ثابت وقد مر عليهم محمد فوجدها تتهادى وتغني بين سماطين (وليمة) أقامها حسان.

عنده ويشرب عنده النبيذ يعني نبيذ الجر وقد روى أن ابن مسعود كان يعتاد شربه حتى ذكر عن أبي عبيدة أنه أراهم الجر الأخضر الذي كان يُنبذ فيه لابن مسعود (رض) وعن نعيم بن حماد (رض) قال كنا عند يحيى بن سعيد بن القطان (رحم) وكان يحدثنا بحرمة النبيذ فجاء أبو بكر بن عياش (رحم) فقال: أسكت يا صبي حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة (رحم) أنه شرب عند عبد الله بن مسعود (رض) نبيذاً مشتداً صلباً)[٣٨]. وعبد الله بن مسعود كانت زوجته في بدء الأمر تنفق عليه وعلى عياله منها من صدقة مالها ولما وطئوا ما جاورهم من البلاد أصبح من أصحاب الإقطاعات!!!

كما أوردنا في السِفر الثاني من كتابنا هذا، وبعد تدفق المال لا تكتمل المتعة ولا يتم الإنبساط ولا تبلغ النشوة ذروتها إلاّ بتناول النبيذ وأي نبيذ؟ المشتد الصلب الذي يغيّر الحال حتى يضل الشارب عن داره!! ولكن ما العمل وآية الاجتناب تقف بالمرصاد؟ الحل هو التأويل الباطل والتلاعب بالألفاظ والإلتفاف والتجاوز والتمحك... الخ.

و ــ ولكن في معتقدنا أن أجرأها وأصرحها ما ورد على لسان أبي طلحة الأنصاري:

(حدّثني عطاء بن أبي ميمونة عن أنس بن مالك عن أم سليم وأبي طلحة أنهما كانا يشربان نبيذ الزبيب والتمر يخلطانه فقيل له يا أبا طلحة إن رسول الله (ص) قد نهى عن هذا، فقال: إنما نهى عنه للعوز في ذلك الزمان كما نهى عن الإقران)[٣٩].

(٣٨) **المبسوط** للسرخسي، المجلد الثاني عشر، (٢٣، ٢٤) ص ١٢، مصدر سابق.
(٣٩) **أحكام القرآن** للجصاص، ص ٤٦٥، المجلد الثاني، د. ت. ن. دار الفكر بمصر.

قبل أن نعلّق على هذا الخبر يتعين أن نذكّر بأن أبا طلحة هذا هو الذي ورد فيما سبق أنه وبعض أصحاب الأسماء اللوامع من الصحبة كانوا يتعاطون الخمر في منزله وكان ساقيهم أنس بن مالك (خادم رسول الله) وأن آية الاجتناب أو التحريم وصلهم خبرها وهم على تلك الحال فأمر أبو طلحة أنساً أن يُهريق جرار الخمر التي كانت في منزله.

الأمر الذي يعني أن أبا طلحة كان قبل التحريم كحولياً وصل إلى درجة الاعتماد، ومن ثم فليس مستغرباً أن يلجأ إلى الالتفاف حول نص الاجتناب حتى يبرر تعاطيه الخندريس بعد تحريمها!!!

بعد ذلك ننتقل إلى التعليق على الخبر:

بكل حسم ووضوح قرر أبو طلحة أن (النهي) كان للعوز أي في وقت كان فيه أتباع محمد وجنود ثورته فقراء محاويج أما وقد غزوا بخيولهم الميمونة الطالع البلاد الخصيبة المجاورة فتدفقت عليهم الأموال بسائر أنواعها وضروبها والجواري الحسان من كل جنس ولون وسن والغلمان المُرد كاللؤلؤ المكنون... فما حاجتهم إلى النهي، ونحن بهذا نعد أبا طلحة الأنصاري رائداً من رواد النظرية التي ننادي بها نحن وآخرون وهي (تاريخية النصوص) بربطها بأسباب نزولها (بالنسبة للآيات) ومناسبات ورودها بالنسبة للأحاديث، وبداهة نحن أبعد ما نكون عن تشجيع شرب السلافة أو إباحتها ولعل سطورنا السوابق في هذا المضمار تشي بذلك ولكن ما نريد أن نؤكده أن (تاريخية النصوص) ليست بدعة كما يحلو للبعض أن يصفها ولكنها قديمة ويمكن لأي دارس أن يقوم بـ (حفرية معرفية) ليتوصل إلى أصولها الأولى، بعد هذه الاستطرادة نعود إلى سياقة الدراسة:

أبو طلحة حلّل شرب النبيذ الزبيب والتمر بطرح فكرة أن النهي ارتبط بفترة محدودة كان العوز فيها فاشياً أما وقد انقضى الإملاق وحلّ محله العز والبُلهينة بفضل عرق (علوج) البلاد المغزوة فما هو الداعي للحظر والتحريم؟؟؟

وفي الخبر لمحة موحية لا تفوت الألمعي وهي تناول النبيذ (الزبيب والتمر) لم يقتصر على أبي طلحة بل طال زوجته أم سُليم وهي صحابية لا تقل شهرة عن زوجها.

ولكن ما دلالة هذه الشظية من الخبر؟

لعل من نفل القول أن نذكّر أن النسوان والرجال في ذلك سواسية وسوف نرى في الفقرة الخاصة بـ (النساء) أن عائشة زوجة القائد كانت تعظ المهاجرات وتأمرهن أن يتقين الله ويجتنبن ما يسكرهن!!! والذي لا يماري فيه أحد أن أولئك الصحبة جميعهم بلا استثناء وبعضهم كان شديد اللصوق بمحمد ومن ثم فهم يعرفون أنه حرّم بصورة صارمة لا هوادة فيها النبيذ الشديد والنبيذ الصلب.. الخ:

(عن أبي هريرة (رض): علمت أن رسول الله (ص) كان يصوم فتحينت فطره بنبيذ صنعته في دُبّاء ثم أتيته فإذا هو ينشّ فقال: اضرب بهذا الحائط فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر)[٤٠].

فكيف استحلّوا شربه؟ لا تفسير لذلك سوى عرامة (الظاهرة الكحولية) لديهم ذكوراً وإناثاً.

---

(٤٠) أبو داوود في **السنن** ومن شاء التوسع فعليه بباب الأشربة في موسوعات الحديث.

المدمنون

بلغ بعض الصحبة من الكحوليين رتبة الإدمان، عدد منهم استتر وتخفّى ومارس إدمانه وراء السُجُف الكثيفة في الحجرات المسكّكة وبعيداً عن العيون (الجواسيس) إنما هناك من أخفق في الاحتجاب فظهر أمره وانكشف فأقبل عليه الحد أكثر من مرة ونكتفي باثنين منهم:

الأول: أبو محجن الثقفي:

في مبتدأ الأمر نعرّف به فهو:

(أبو محجن الثقفي.. أسلم حين أسلمت ثقيف وسمع النبي (ص) وروى عنه... وكان من الشجعان الأبطال في الجاهلية والإسلام.. وكان شاعراً مطبوعاً... إلاّ أنه كان منهمكاً في الشراب وكان أبو بكر الصدّيق يستعين به وجلده عمر بن الخطاب في الخمر مراراً ونفاه إلى جزيرة في البحر)[٤١].

ويبدو أن هنـــاك وشيجة من نوع خفي بين الشعراء والمزاء، فقد قرأنا قبل قليل أن النعمان بن عديّ بن نضلة جمع بينهما بجدارة يحسد عليها!!!

ويقول خبر ابن عبد البر أن عمراً جلده مراراً ونفاه وهذا يقطع بإدمانه وبلغ هيام أبي محجن بالسلافة منتهاه إذ يتمنى عند وفاته أن يُدفن بجوار كرمة لكي ترتوي منها عروقه وعظامه أي حتى وهو ميت مدفون في قلب الثرى يتحرق شوقاً إلى السَكَر (بفتح الكاف):

---

(٤١) **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ ص ١٧٤٦ ــ المجلد الرابع ــ مصدر سابق.

وروى ابن الأعرابي عن المفضّل الضبّي لأبي محجن الثقفي قوله:

إذا متّ فادفني إلى جنب كرمة   تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفــــلاة فــإنني   أخـــاف إذا مـــا مت ألاّ أذوقهـــا

وحدّه عمر الحد عليها مراراً ونفاه إلى جزيرة في البحر فلحق بسعد (يعني ابن أبي وقاص) وكان أحد الشجعان البُهم (المغاوير) فلما كان من أمره في حرب القادسية ما هو معروف حلّ قيوده وقال: لا نجلدك على الخمر أبداً، قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبداً فلم يشربها بعد ذلك)[٤٢]. وروى ابن عبد البر بالتفصيل الخبر عينه[٤٣].

ومرة أخرى: هل ثمة علاقة بين الخمر والفروسية والشجاعة؟

لقد رأينا فيما سبق في فاصلة (قبل التحريم) أن حمزة بن عبد المطلب كان أيضاً فارساً مغواراً مقداماً ويشرب الخمر حتى يغيب عن وعيه ولا يدرك معنى ما يتلفظ به أو بمعنى أدق ما يهذي به.

الآخر: نعيمان بن عمرو الأنصاري:

نعيمان بن عمرو أنصاري من بني النجار شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدها وكان من قدماء الصحابة وكبرائهم وكانت فيه دآبة زائدة... وكان يشرب الخمر فكان يُؤتى به إلى النبي (ص) فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ويحثون عليه التراب، فلما كثر ذلك منه قال

(٤٢) **الجامع لأحكام القرآن**، المعروف بـ (تفسير القرطبي)، ص ٨٦٤، طبعة كتاب الشعب بمصر.
(٤٣) **الاستيعاب** ص ١٧٥٠ ــ ١٧٥١، المجلد الرابع، مصدر سابق.

له رجل من أصحاب النبي (ص): لعنك الله فقال النبي (ص): لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله)[٤٤].
ويضيف ابن عبد البر (في جلد رسول الله (ص) إياه في الخمر أربع مرات نسخ لقوله (ص) فإن شربها الرابعة فاقتلوه)[٤٥].

هذا صحابي يحمل على صدره نياشين من الدرجة الأولى فهو (عقبي) و(بدري) و(شهد المشاهد كلها بعد بدر الكبرى) ومن (قدماء الصحابة) و(كبرائهم) وكل رتبة منها ترفع صاحبها إلى مقام عالٍ، ومع ذلك كله تمكنت القهوة (الخمر) منه فلم يستطع أن يفارقها حتى إن محمداً جلده أربع مرات ونسخ بفعله هذا حديثاً سابقاً يقضي بقتل من يتعاطى الشمول (الخمر) بعد حدّه ثلاث مرات أي في الرابعة لا يُجلد بل يُقتل.

النسوان الكحوليات

من الطبيعي بل قل من البديهي أن توجد نساء كحوليات في ذلك المجتمع لأنهم بنص حديث محمد شقائق الرجال ومن غير المعقول أن ترى الزوجة بعلها ينتشي بالمزاء ولا تشاركه فيها بل من المتوقع أن يدعوها هو لمشاركته إذا قام يخالطها وجدها أمتع وألذّ.

وقد قرأنا قبل سطور أن أم سُليم كانت تشرب من شراب زوجها أبي طلحة وكانت توافقه على رأيه بتاريخية آية الاجتناب وأنها جاءت وقت العوز. وأبو طلحة هذا كما أسلفنا كانت في بيته جرار الخمر وفي الوقت الذي تلا فيه محمد آية التحريم

---

(٤٤) **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لعز الدين بن الأثير، المجلد الخامس، ص ٣٥٢، **والاستيعاب** لابن عبد البر، ص ١٥٣٠، المجلد الرابع.
(٤٥) **الاستيعاب** المجلد عينه والصفحة نفسها.

(الاجتناب) كان أبو طلحة وعصبة من أعيان الصحابة يشربون الخمر في داره وكان ساقيهم هو أنس بن مالك (خادم رسول الله) فلما وصلهم نبأ التحريم أمر أبو طلحة أنساً فكسر جرار الخمر وأراق ما فيها، إذن كان في دار أبي طلحة مخزنٌ للخمور فكيف تترك أم سليم ما فيه من جرار دون أن تتذوق ما فيها؟؟؟

ولم تكن أم سليم هي الكحولية الوحيدة بل كانت تشاركها فيه كثيرات:

(روى التميمي عن أبيه عن مريم بنت طارق امرأة من قومه قالت: كنت في نسوة من النساء المهاجرات حججنا فدخلنا على عائشة أم المؤمنين (رض) قالت: فجعل النساء يسألنها عن الظروف فقالت: يا معشر النساء إنكن لتذكرن ظروفاً ما كان كثير منها على عهد رسول الله (ص) فاتقين الله واجتنبن ما يسكركن فإن رسول الله (ص) قال: كل مسكر حرام وإن أسكر ماء فلتجتنبنه، الحديث في سنن النسائي، وفي المستدرك وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه)[٤٦].

هذا الحديث رواه النسائي في السنن والحاكم في المستدرك وقال عنه إنه صحيح الإسناد.

وفيه تقول عائشة للمهاجرات الحاجات (اتقين الله واجتنبن ما يسكركن) أي أنها تنهاهن بصراحة عن اجتناب تعاطي الشراب المسكر، أي أنها تعلم عنهن ذلك وتذكر أنهن يستعملن ظروفاً (أوعية) استجدت بعد محمد، وهي تعني بالظروف أو الأوعية ما يوضع فيها من الأشربة، وكان من البديهي وقد تغيرت أحوال المهاجرات بعد الغنائم والفتوحات أن تتبدل أحوالهن المعاشية كلها

(٤٦) **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** لـ السيوطي ــ الجزء الثالث ــ العدد ٢ ص ١٨٠ من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

بما فيها الآنية والأشربة، والتغير الاجتماعي لا يمس الرجال دون النسوان.

وإذا كنّ يرين بأعينهن أزواجهن وهم يشربون النبيذ ويستحلونه بشتى الوسائل فهل من المنطقي أن يظللن مكتوفات الأيدي خاصة وهن يعلمن أن الشراب يزيد من متعة المعافسة أو الملامسة أو المفاخذة التي هي طقس يومي في ذلك المجتمع.

* * *

خلاصة القول إن الظاهرة الكحولية كانت منتشرة في ذلك المجتمع إنْ بين نسائه أو رجاله وأن القائد المحنك أدرك خطورتها على مشروعه فقرأ عليهم آية الاجتناب وأن منهم من استجاب إلى حين ومنهم من لم يستطع وأنه بعد تبدل الظروف المادية وانهمار الأموال من البلاد المغزوة، كان من المحتم الالتفاف حول طوق آية الاجتناب لأن تناول الخمر من سمات المجتمعات التي تتغير أحوالها المادية وتتبدل ظروفها تغيراً لم يكن يخطر لأفرادها على بال.

* * *

الباب الثالث

الأفق العقلي
والمستوى الحضاري

[Blank Page]

بسبب الجفاف والتصحر ولأسباب أخرى ربما يكشف عنها لنا العلماء الأخصائيون فيما بعد، خاصمت الحضارة والمدنية من دون أقطار المنطقة ــ شبه جزيرة العرب ــ خلا اليمن خاصة وسطها وغربها وهي التي تضم الحجاز فعاش أهلها في جفاوة وبداوة حتى فجّر محمد ثورته المجيدة وبدأت أشعة التنوير تتخلل طبقاتها الكثيفة بيد أنه من المستحيل أن تمحو حقبة لا تصل إلى ربع قرن بصمات مئات السنين. وإذ إن غالبية الصحبة، كما ذكرنا في السِفْر الأول عاشت الشطر الأكبر من عمرها في ذلك التبدي المتراكم، حتى الذين أدركوا الإسلام وهم صغار فإنهم قد تربوا على أيدي آباء وأمهات وأقارب عاشوا ردحاً وسيعاً من حياتهم في تلافيف ذلك المجتمع البدائي ورضعوا مع لبان مراضعهم أساطيره وتهاويله وعجائبه وقيمه وعوائده وتقاليده وتصوراته وتخيلاته، لذلك لم أندهش عندما قرأت عنهم إيمانهم المطلق بكائنات غير مرئية وتعاملهم معها في سائر المعاملات من الكلام العادي إلى مطارحة الشعر إلى المداعبة الثقيلة والمصارعة فالقتل... واعتقادهم الجازم بإمكان مخاطبة الحيوانات العجماء وسماع لغة الجمادات الخرساء

واقتناعهم الكلي بتخلف العلة عن المعلول، فالسم لا يقتل والنار لا تحرق ولعله أحد الجذور التاريخية لما قال به الغزالي بعد ما يقرب من خمسة قرون، ومن ثم فلم يكن حجة الإسلام مبتدعاً بل متبعاً لسلفه الصالح والذين شددوا النكير عليه واتهموه بإشاعة اللاعقلانية في التفكير الإسلامي قد ظلموه في خصوصية محدودة وهي تحميله كامل الوزر وكل التبعة والمسؤولية كافة.

وكانوا يوقنون بأن الظواهر الطبيعية من الميسور أن تتبدل إذا هم أرادوا ذلك، فالماء العميق لا يغرق والسماء تمطر بمجرد رفع اليدين إليها مع التمتمة بكلمات معيّنة أو بحضور أشخاص مباركين ونهر النيل العظيم يفيض فور إلقاء رسالة جاءت إليه من أثرب/ المدينة مرقوم فيها سطران فحسب والسحاب يحمي من الهجير بالمقاس وحسب الطلب والبحر ينصاع للأمر فيخرج من أغواره السحيقة ولجه الموّارة إبرة سقطت من واحد منهم، والصوت ينتقل مئات الأميال فيسمعه المخاطب به القابع في البلد البعيد فيرد عليه والأرض تبتلع من دفن فيها بعد دقائق معدودة والقدح الذي غرق يخرج متهادياً على الشاطئ ليلتقطه صاحبه والخيول وهي تعبر دجلة تجد أمكنة ارتفعت إكراماً لها لكي تستريح عليها فتبدو وكأنها تسير الهوينى على الأرض... الخ.

مئات الصور اللاعقلية والأمور اللامنطقية والأخبار العبثية حملتها كتب التراث العوالي ذوات الرتب السوامق ألفها أو جمعها أو صنّفها... أئمة أعلام لا نكون مغالين إذا قلنا إنهم النجوم السواطع في الصف الأول بلا مراء يكفي أن نذكر منهم:

البخاري والبيهقي والحاكم النيسابوري وأبو نُعيم وأحمد بن حنبل والترمذي والحافظ الذهبي والهيثمي وابن أبي الدنيا

والطبراني وابن كثير والضياء المقدسي وابن حجر العسقلاني والسيوطي وابن قدامة (صاحب المُغنى) وشمس الدين المقدسي (صاحب الشرح الكبير) وفي التاريخ: شيخ المؤرخين الطبري والواقدي وغيرهم، وإذا كان هؤلاء ينقلون إلينا أخباراً مضروبة[١]، فماذا يبقى لدينا من الفكر الإسلامي، وإذا حكمنا عليها بالوضع والتلفيق والاختلاق فإننا نكون قد حكمنا على التراث بالإعدام المعنوي.

إذن هي صحيحة لا شائبة فيها ولا أدل على صحتها من أن الكتابات المعاصرة التي تتناول مناقب الصحابة لا تستند إلاّ إليها.

فإذا انتهينا إلى هذه النتيجة التي لا يماري فيها إلاّ الشكس اللجوج، فإن ما يذهب إليه معظم البحّاث (ما إنْ يطلع أحدهم بفكرة حتى يرددها الآخرون وراءه كالببغاوات دون مراجعة أو تمحيص. ا. هـ) من أن اللاعقلانية والقدرية ومعاداة مبدأ العلّية ومخاصمة التفكير العلمي والمنطق والموضوعية والاعتقاد في كائنات غير منظورة والاعتماد على قوى لا مرئية ولا مسموعة في الصغير والكبير من الشؤون هذه القيم التي تسيطر على شعوبنا بل حتى من يُسمون منهم بـ(النخب الثقافية)... ليست ميراثاً من العصور التي نعتوها بالتخلف والانحطاط، لا، ولنتكلم بصراحة ونتسلح بقدر معقول من الشجاعة ولنقل إنها ميراث قديم وتركة مضى عليها أربعة عشر قرناً وما زلنا متشبثين بها لأن من خلّفوها لنا وهم الصحاب، لهم في النفوس مكانة لا يساميهم فيها أحد!!!

---

(١) العامة في مصر تقول عن أي شيء مغشوش أنه مضروب ونحن لا نرى بأساً من استعارتها فهي كلمة فصيحة وتعبر عن المدلول واللغة كائن حي يتطور. ا. هـ.

بعد هذه الفرشة شديدة القصر وبالغة الإيجاز (لأن هذا الموضوع في نظرنا يحتاج إلى سِفْر مستقل ا. هـ) لعل الأوان قد حان لندخل في الموضوع ونتناول في بدء الأمر (الأفق العقلي) وتكون فاتحته:

الغيلان

الغيلان جمع غول، وعلى الرغم من أن القرآن لم يذكر الغول كما أن الوجدان العربي يحكم باستحالة وجودها فيقول المثل عن أي شيء محال إنه كالغول والعنقاء والخِلّ الوفيّ، فإن عدداً من لوامع الصحابة أكد لقاءه بها وأنه جرت أحداث لها معه، ويعرّف القزويني الغول تعريفاً شاملاً ثم يؤكد لنا رؤية جماعة من الصحاب لها ويحكي لنا ما وقع مع أحدهم معها:

(ومن المخلوقات المتشيطنة الغول: حيوان شاذ مشوّه لم تحكمه الطبيعة وأنه لما خرج مفرداً لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يناسب الإنسان والبهيمة وأنه يتراءى لمن يسافر وحده في الليالي وأوقات الخلوات فيتوهمون أنه إنسان فيصد المسافر عن الطريق... وذكر جماعة من الصحابة (رض) أنهم رأوا الغول في أسفارهم منهم عمر بن الخطاب (رض) رأى الغول في سفره إلى الشام قبل الإسلام فضربه بالسيف وذكر ثابت بن جابر الفهمي (رحم) أنه لقي الغول وجرى بينهما ما ذكر...)[٢].

وقد ينتصب اعتراض ربما يكون على قدر من الوجاهة مفاده أن القزويني وعجائبه لا يُستحب التعويل عليها في هذا النطاق، فيرد عليه بإيراد خبر ارتكز على ثلاثة عمد أرسخ من الجبال فقد تضمنه:

---

(٢) **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** لزكريا بن محمد القزويني (٦٠٠/ ٦٨٢هـ) ص ١٣٤، د. ت. دار الشروق العربي، بيروت.

أ ــ تفسير ابن كثير واستند فيه إلى

ب ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل

جـ ــ وفضائل القرآن للترمذي.

وبطله صحابي من الأعلام (عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري أنه كان في سهوة (طاق) وكانت الغول تجيء فتأخذ وذكر حديثاً دار بينه وبين الغول، رواه الإمام أحمد في المسند، والترمذي في فضائل القرآن)(٣).

في هذا الخبر أبو أيوب الأنصاري وهو من متقدمي الأصحاب، نزل محمد في داره أول ما وصل إلى أثرب/ المدينة يؤكد أن الغول كانت تجيء وتأخذ من طعام أو نحوه موضوع في طاق ليس ذلك فحسب بل إنه كان يجاذبها أطراف الحديث!!!

وذكرنا الرتبة العالية التي «تتمتع بها المصادر التي نقلت الخبر وإذا كان تفسير ابن كثير، في مجال علوم القرآن ومسند الإمام أحمد في نطاق كتب السنن والأحاديث موضع ريبة ومحل شك فهذه دعوى خطيرة» تهز التراث من أساسه!!!

وهذا صحابي ثالث يحكي عن الغول خطفت أحد بنيه الذي استنجد بصحابي آخر واستجار به ولكن الغول خدعته إذ ادعت أنها حاضنة الطفل فتركها وانصرف:

(عن أبي أسيد الساعدي... وكان النبي (ص) لا يمنع شيئاً يُسأله فأعطاه (= أرقم بن أبي الأرقم) السيف وخرج بُنَيّ لي يَفَعَة فاحتملته الغول فذهبت به متوركة ظهراً فقيل لأبي أسيد: وكانت الغيلان ذلك الزمان؟ قال: نعم ولكنها قد هلكت، فلقي ابني ابن الأرقم فبهش (أسرع) إليه

(٣) **تفسير ابن كثير**، الجزء الأول، ص ٤٥١، طبعة دار الشعب، بمصر.

وبكى مستجيراً به فقال: من أنت؟ فأخبره، فقال الغول: أنا حاضنته فلها عنه...)[٤].

وأبو أسيد الساعدي هو مالك بن ربيعة من بني ساعدة (أصحاب السقيفة المشهورة التي كانت مثل دار الندوة بمكة. ا. هـ) خزرجي أنصاري، بدري أي شهد عركة بدر الكبرى وهو إن كان أقل شهرة من عمر بن الخطاب وأبي أيوب إلاّ أنه لم يكن نكرة وقيل إن محمداً أوفده ليخطب له امرأة...

وفي رواية امتد به العمر حتى زمن معاوية ولذلك لما روى حكاية الغول وخطفها لابنه اليَفَعَة كانت أحوال المجتمع قد تغيرت من ناحية بتبدل الظروف المادية ومن جانب آخر باحتكاكهم بثقافات وحضارات الدول التي دعسوها بخيولهم المباركة ولذلك عندما حكى فيما بعد أبو أسيد تلك الأقصوصة أو الأحدوثة[٥]، تعجب سامعوه وسألوه عما إذا كانت هناك غيلان في ذلك الزمان المعجب فجاءت إجابته: نعم. هكذا رأينا من الأصحاب منهم إثنان طبّقت شهرتهما الآفاق قد أكدوا وجود الغيلان، أولهما تعامل معها بالسيف والثاني تسرق منه الطعام وتتحادث معه والثالث فجعته في أحد أولاده الصغار ثم خدعت صاحباً آخر بعد أن تحاورت معه، وعندما يستنكر سامعو الثالث حكايات الغيلان يجزم بوجودها آنذاك ثم يعلل عدم ظهورها وقت الرواية بانقراضها كما تنقرض بعض الطيور والحيوانات النادرة في عصرنا هذا.

وإذ أن عمر بن الخطاب نازح (مهاجر) قادم من مكة وأبا أيوب وأبا أسيد أنصاريان أي مستقران في أثرب فنستطيع أن نخرج

(٤) كتاب **المغازي** للواقدي، الجزء الأول، ص ١٠٤، تحقيق مارسدن جونز، مؤسسة الأعلمي، بيروت، مصدر سابق.
(٥) تقول العامة في مصر عن مثل حكاية أبي أسيد إنها حدوتة.

بنتيجة شديدة وهي أن الأساطير في كلا البلدين واحدة ولا غرو في ذلك فهما من منطقة واحدة هي الحجاز التي كانت من أشد بقاع الأرض تبدياً وانحطاطاً قبل قيام محمد بثورته المظفرة.

الجن

على الرغم من أن الجن قد ورد ذكره في القرآن ثلاثين مرة على وجه التقريب وتسمية إحدى سوره باسمه ما يقطع بأن هذا الموضوع يستوطن مكاناً له جذور غائرة في ثقافة القوم لأنهم هم المخاطبون به، فإنه لم يرد في واحدة منها ما يفيد تعامل البشر مع هذه النوعية من الكائنات لا على سبيل الأمر أو الندب والاستحباب أو حتى الإباحة، واقتصرت كيفية التعامل معها في الإسلام على استماع نفر منها إلى القرآن (الآية التاسعة والعشرون سورة الأحقاف والآية الأولى من سورة الجن). أما قبل الإسلام فكان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً (الآية السادسة من سورة الجن) وهؤلاء الأخيرون هم الكهان والعرافون ويقال إنه كان كل واحد منهم رِئّي من الجني، نعود فنقول رغم ذلك فحكايا الجن كانت فاشية فشواً يلفت النظر ويشد الانتباه بين الأصحاب والصواحب ما بين حوار وعشق ومداعبة (لا تصل لحد المباطنة) إلى القتل إلى المشاركة في الغزوات والرغبة في الاستماع لحديث محمد ممن يرويه بعد وفاته إلى المساهمة الوجدانية الجميلة التي تتمثل في نعي من يتوفى من رجال الصحابة.

وكانت أقاصيص الجان من المكوّنات الهامة لجلسات السمر التي يعقدونها وسوف نرى أحد الخلفاء الأكابر بدل أن يشغل وقته في رعاية شؤون الأمبراطورية التي نعموا بخيرات بلادها دون توقع

أو تربص إذا به يغرق لأذنيه في الاستماع إلى حكايا الجن المشوقة... علام يدل هذا؟

هذا لا يدل فقط بل يقطع بأن المجتمع الذي عاشوا في حناياه بثقافته وقيمه وأنساقه لم يفارقهم بل حايثهم حتى بعد أن اعتنقوا الديانة التي بشرهم بها محمد فقط دخلت في بعض الأقاصيص مسحة أو نكهة إسلامية مثل تعليم الجن للصاحب آية من القرآن لو قالها لحدث... كذا وكذا أو أن الجن كان يستمع لأحاديث محمد وهي تُروى أو أنه (= الجن) جاء يطوف بالكعبة ويؤدي نسكه.. الخ. بيد أن هذا الشعار الإسلامي الذي حاول الصحب أن يضفوه على نوادر الجان... لم يفلح في إخفاء دثارها القديم الذي حفظوه وهم صغار وسمعوه من الآباء والأمهات والأجداد والجدات؛ والذي لا مرية فيه أن البيئة الصحراوية كان لها دخل كبير في تصور آبائهم وجدودهم وجود كائنات مدهشة ومُعجبة لها قوى خارقة ومقدرة فذة على التشكل ومواطنها البراري والطرق الموحشة والمفازات المقفرة... الخ.

وإذا كان ظهورها (في الحق هم يتخيلون ذلك. ا. هـ) يقترن بالليل والظلام والوحشة والخوف والرهبة فكان من البديهي أن تجيء أشكالها شوهاء بشعة وأن تأتي بأفعال شريرة وأن تكون هي نفسها ماكرة خادعة خلاّبة.

ولكن بمَ نعلل ظهور أسماء لوامع، في حكايا الجن، عُرف أصحابها بالعلم واشتهروا بالفقه وتضلعوا من المعارف كافة (ولا نقول العلوم) التي كانت سائدة زمنهم؟

الجواب عن ذلك ليس باليسر الذي نتوقعه إذ لا يكفي أن نقول إن الإنسان ابن بيئته وربيب مجتمعه وأن هؤلاء الأصحاب

والصاحبات (أبطال قصص الجن) قد عاشوا شطراً من أعمارهم في مجتمع تهيمن على ذهنيته الهئول والأعاجيب والمخاريق فتشبعوا بها وغدت إحدى بنات ثقافتهم، بل يتعين في نظرنا دراسة أحوال الصحاب والصواحب الذين اقترنت أسماؤهم بتلك الأقاصيص.

والتنقيب عن ظروفهم النفسية والاجتماعية حتى نستطيع أن نجيب عن أمثلة مثل:

هل قص الصاحب أو الصاحبة لحكاية الجن نوع من التعويض المعنوي؟

أم هل هو استثمار لرأس مال رمزي أوشك أن يضيع وتضيع معه فوائد جمة؟

كيف يمكن أن تحل حكاية الجن مشكلة اهتمام بها يوشك أن يغرب؟

أم أنها (أقصوصة الجان) تنفيس عن رغبة مكبوتة؟

أو من الجائز أن نعتبرها المعادل الموضوعي للحلم أو الرؤيا وأنها تقوم بالوظيفة نفسها؟

ولماذا برز العنصر النسائي في تلك الحكايا بمعنى أن عدداً من أطرافها كان نسوة؟

هل لهذا الأمر صلة بما يقال إن مجتمع الجزيرة كان في الأصل مجتمعاً أموياً (نسبة إلى الأم) ومن أدلته انتساب عدد غير قليل من القبائل إلى امرأة مثل بني قيلة (الأنصار أو العرب اليثاربة) ثم تحوّل إلى مجتمع ذكوري تهشمت فيه المرأة بعد أن انتُزعت منها الرئاسة

هل لهذا الأمر صلة بما كرّسه الإسلام من زيادة هيمنة الذكور (وقرن في بيوتكن) و(الرجال قوامون على النساء)... الخ.

والذي يرجّح الكفة أن البطلات الثلاث للحكايا الجنية اشتهرن بالعلم إنْ في الصحبة أو في التابعية وقعود الرجال ذوي الشوارب في حضرتهن مقاعد التلاميذ فيغدو قتل الجني الذكر أو قهره وانسحابه ذليلاً هو ترميز للمصير الذي يجب أن يلاقيه الرجل الذي ما زال ينكر مكانة المرأة ويذل كبرياءها ويبخسها حقها في حين أنه يقعي أمامها طالباً علمها!!!

أياً كان الأمر فإن الحكي عن الجن يتعين علينا ألا نتناوله بخفة وعجلة، فعلاوة على تمثيله لثقافة ذلك العصر فإن له دوراً اجتماعياً ونفسياً لا يجمل بنا الغض من قدره أو تهزيل شأنه أو التهوين من مكانته. تلك كانت مقدمة لازمة لإضاءة الحكايا التي سوف نسردها تساعد على فهمها من جانب وعلى تقويمها التقويم السديد من جانب آخر.

أ ــ (عائشة بنت طلحة، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر قالت: كان جان يطلع على أم المؤمنين خالتها، عائشة (رض) فحرّجت عليه، أنذرته، مرة بعد مرة فأبى إلاّ أن يظهر فعدت عليه بحديدة فقتلته فأُتيت في منامها فقيل لها: أتقتل فلاناً وقد شهد بدراً، وكان لا يطلع عليك لا حاسراً ولا متجرداً إلاّ أنه كان يسمع حديث رسول الله (ص) فأصبحت فزعة فأمرت باثني عشر ألف درهم فجعلتها في سبيل الله)[٦].

هذا الخبر نقله إلينا الحافظ الذهبي في (أعلام النبلاء) وأبو نعيم في (حلية الأولياء) والتي روته هي عائشة بنت طلحة بنت عبيد الله (أحد العشرة

(٦) **أعلام النبلاء**، للحافظ الذهبي ٢/ ١٩٦، **وحلية الأولياء** لأبي نعيم ٢/ ٤٩، نقلاً عن **كرامات الصحابة** (رض)، ص ١٢٢.

المبشرين بالجنة) وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر بن أبي قحافة، ومن ثم فلا سبيل إلى تهزيله أو تضعيفه (من الضعف).

وفيه أن عائشة أم المؤمنين وأحب زوجاته والتي اشتهرت بالعلم وأوصى هو أتباعه أن يأخذوا نصف دينهم منها قتلت جنياً تبين أنه كان مؤمناً وحارب مع المسلمين في غزوة بدر الكبرى أي أنه كان بدرياً، وهذه كما قلنا مراراً رتبة عالية يتمتع من يحظى بها بمكانة رفيعة في مجتمع الصحابة ولدى سائر المسلمين سواء كان إنساً أم جناً، وكان يأتي إليها لينتفع بعلمها ويسمع منها حديث محمد، بيد أنها كانت تجهل عنه كل ذلك. إنما كيف علمت؟ عن طريق الرؤيا أو الحُلم وقد لعبت الرؤى والأحلام دوراً متميزاً في ذلك المجتمع.

يبقى سؤالان لم أستطع الإجابة عنهما:

الأول: لماذا لم يتخفَ ذلك الجني عن أعين عائشة ويسمع منها روايتها لحديث محمد وهو مستتر وقد كان قادراً على ذلك؟

الآخر: لماذا لم يخاطب عائشة ويخبرها أنه مؤمن بدري جاء لينهل من علمها خاصة بعد أن أمسكت بالحديدة وهمّت بقتله؟

وقد رأينا فيما سلف وفيما سيجيء أن الجن في مكنتها أن تخاطب الأناسي بلسان عربي فصيح؟

ب ــ وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن يحيى بن سعيد قال: لما حضرت عمرة بنت عبد الرحمان الوفاة اجتمع عندها ناس من التابعين مثل عروة والقاسم إذ سمعوا نقيضاً من السقف فإذا ثعبان أسود قد سقط كأنه جذع عظيم فأقبل يهوي نحوها إذ سقط رق أبيض فيه مكتوب: بسم الله الرحمان الرحيم من رب كعب إلى كعب ليس لك على بنات الصالحين سبيل فلما نظر إلى الكتاب سما (= ارتفع) حتى خرج من حيث نزل)[٧].

(٧) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ٦١٠، تحقيق النشرتي وآخرين، طبعة ١٩٩٦م، القاهرة.

عمرة بنت عبد الرحمان بن أسد بن زرارة... روى عنها الزهري وعبد الرحمان بن أبي بكر بن حزم وروت هي عن عائشة وأم سلمة وكانت راوية للأحاديث وكانت تفتي بالمدينة بعد وفاة أصحاب رسول الله (ص) إذن هي تابعية وليست صحابية وتتلمذت على يدي عائشة وأم سلمة، زوجتي محمد وحفظت منهما أحاديث كثيرة وتعلم على يديها جمع من فقهاء التابعين مثل الزهري وعبد الرحمان بن أبي بكر بن حزم وعروة بن القاسم وخلق كثير، والثعبان الأسود الذي وصف (كأنه جذع عظيم) هو جن باتفاق، فما الذي دفعه إلى السعي نحوها وهي تحتضر؟ ربما لم يكن يعلم باحتضارها وأراد أن يعالجها كما فعل زميله في الخبر الذي سوف نورده بعد قليل ولكن كيف يقدم على ذلك وحولها جمع غفير من تلاميذها أتوا ليشهدوا وفاتها؟

ونفهم من الخبر أنه جنى مثقف إذ استطاع أن يقرأ ما هو مسطور في الرق الأبيض وأن اسمه كعب وأن الرسالة خاطبته باسمه وأنها كانت من رب كعب!!!

والأقصوصة حملها إلينا الإمام السيوطي في (الخصائص الكبرى) نقلاً عن ابن أبي الدنيا والبيهقي وثلاثتهم من الأعلام الذين لهم مقام محمود لدى أهل السنة والجماعة وتآليفهم تحظى بفائق الاحترام.

جـ ــ (أخرج البيهقي من طريق عائشة بنت أنس بن مالك عن أمها الرّبيع بنت معوذ بن عفراء قالت: بينما أنا قائلة في (القيلولة) قد ألقيت عليَّ ملحفة إذا فاجأني أسود يعالجني (ما يكون بين الرجل والمرأة ما عدا المجامعة) عن نفسي قالت: فبينما هو يعالجني أقبلت صحيفة من ورق أصفر تهوي من السماء حتى وقعت عنده فقرأها فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم من رب لكين إلى لكين أما بعد: فدع ابنتي بنت عبدي الصالح فإني لم أجعل لك عليها سبيلاً فانتهزني بقرصة وقال: أولى لك فما زالت القرصة

فيّي حتى لقيت الله، أخرجه البيهقي في الدلائل، ج/ ٧، ص ١١٥)[٨].

ونبدأ بالتعريف بالرُبيّع:

صحابية أنصارية (ربما غزت مع رسول الله (ص) فتداوي الجرحى وترد القتلى إلى المدينة وكانت من المبايعات تحت الشجرة بيعة الرضوان)[٩].

أي أنها جندية مناضلة في جيش محمد، ولذلك كافأها بأن توجه لتهنئتها بزواجها في اليوم التالي مباشرة لليلة الزفاف[١٠].

(عن الرّبيع بنت معوذ قالت: جاءنا رسول الله (ص) فدخل عليَّ غداة بُنى بي فجلس على فراشي كمجلسك مني وجويريات لنا يضربن بدفوفهن)[١١].

ويضيف ابن عبد البر أن (النبي (ص) ناولها حلياً أو ذهباً وقال تحلّي بهذا)[١٢]، والبادي أن الرُبيّع كانت على قدر غير يسير من العلم فقد ذهب إليها عبد الله بن العباس حبر الأمة وترجمان القرآن (فسألها عن وضوء رسول الله (ص) وأن ابن عمر أتاها فسألها قضاء عثمان حين اختلعت من زوجها)[١٣].

---

(٨) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٨، تحقيق د. حمزة النشرتي وآخرين، الطبعة الأولى ١٩٩٦، مصر.
(٩) **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري، المجلد السابع، كتاب النساء، ص ١٠٧، كتاب الشعب، مصر.
(١٠) تسميه العامة في مصر (يوم الصباحية).
(١١) **أسد الغابة** المجلد السابع، ص ١٠٨، **والاستيعاب**، لابن عبد البر، المجلد الرابع، ص ١٨٣٧، دار الجيل، بيروت.
(١٢) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.
(١٣) المصدر السابق نفسه.

والتي يتوجه إلى دارها ويسألها عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر لا مشاحة أن لديها فقهاً ينتفع به ومن ثم فلم يك غريباً أن يروي عنها (من التابعين: سليمان بن يسار وعباد بن الوليد وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ونافع وخالد بن ذكوان وعبد الله بن محمد بن عقيل)[١٤].

وقد وصفها موسى بن هارون الحمال بقوله: (الرُبيع بنت معوذ بن عفراء قد صحبت النبي (ص) ولها قدر عظيم)[١٥]، إذن هؤلاء الثلاثة: الصحابيتان (عائشة والرُبيع) والتابعية (عمرة) كن من عالمات النسوان فهل ثمة رابطة بين تفقه النسوة وظهور الجن لهن؟

بيد أن الجن الذي ظهر للرُبيع كان وقحاً لأنه أخذ يعالجها وقد شرحه المحقق بأنه (ما يكون بين الرجل والمرأة ما عدا المجامعة) ويورد السيوطي وصفاً آخر لفعل الجني بأنه وثب على صدرها ووضع يده في حلقها وكلها أفعال خارجة:

(وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي من وجه آخر عن أنس بن مالك قال: كانت ابنة عفراء مستلقية على فراشها، فما شعرت إلاّ بزنجي قد وثب على صدرها ووضع يده في حلقها فإذا صحيفة صفراء بين السماء والأرض، حتى وقعت على صدري فأخذها الزنجي فقرأها، فإذا فيها من رب لكين إلى لكين اجتنب ابنة العبد الصالح فإنه لا سبيل لك عليها فقال وأرسل يده من حلقي وضرب بيده على ركبتي فاسودت حتى صارت مثل رأس الشاة)[١٦].

حتى بعد أن أتى الأمر من السماء إلى الجني بضرورة مفارقة

---

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٨٣٧.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٨٣٧.
(١٦) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٩، تحقيق النشرتي وآخرين، طبعة ١٩٩٦م، مصر.

الرُبيع لم يتركها إلاّ بعد أن قرصها في ركبتها! وهذا الجني مثل سابقه كعب مثقف يجيد القراءة والكتابة إذ إنه قرأ الرسالة السماوية التي نزلت (تهوي من السماء حتى وقعت عنده) ولفت انتباهنا أنها (= الرسالة) مكتوبة على (ورق) أصفر والذي تعرفه أنه لم يكن لديهم ورق آنذاك ولم يعرفوه إلاّ بعد أن اندمجوا في البلاد المتحضرة إذ كانوا يكتبون على العظام العريضة (الأكتاف) وسعف النخيل والأحجار الرقيقة، إنما قد يدفع هذا الاعتراض أن الورقة سماوية ومن ثم لا تنطبق عليها المقاييس الأرضية؟

ومن الغريب وقد قرأنا سيرة محمد عدة مرات وفي مصادر متعددة أُلّفت في أعصر متنوعة فما طالعنا أنه ادعى أن أوراقاً مكتوبة نزلت إليه من السماء؟

وقد روت الرُبيع أولاً أن الذي فاجأها وطفق يعالجها (أسود) أما في القصة الأخرى فإن الذي وثب على صدرها ووضع يده في فمها (زنجي) وإذ إننا لا نرجّح تكرار الواقعة إنما هي واحدة بروايتين خاصة بسبب اتحاد الاسم الجني فيهما وهو (لكين) فإن الملاحظ أنهم كانوا يصفون الجنة بالسواد، ففي خبر عمرة (ثعبان أسود) وفي حالة الرُبيع مرة (أسود) وأخرى (زنجي)، فهل مرده أن السواد يقترن بالبشاعة والترهيب والتخويف وهم كانوا ينظرون إلى تلك الكائنات من هذا المنظور.

أما عن مصادر السيوطي:

ففي الخبر الأول: البيهقي في الدلائل، وفي الآخر، انضم ابن أبي الدنيا إلى البيهقي.

وقد قوّمنا هؤلاء الثلاثة: البيهقي وابن أبي الدنيا والسيوطي قبل قليل.

إذن السبيل مقطوع أما من يحاول أن يتحامل على هذين الخبرين أو يصفهما بالوضع، أما من حيث منافاة هذه الأخبار للعقل ولطبائع الأمور والسنن بنوعيها كونية وطبيعية، فهذا لا يجوز إثارته من المعترض لأنه يسلم أساساً بوجود الجن!!!

ــ الخبر القادم مشترك ما بين رجل وامرأة وجنيّ أما الرجل فهو سعد بن أبي وقاص أو سعد بن مالك أحد العشرة المبشرين بالجنة وغازي العراق، أما المرأة فهي زوجته من عُذرة أما الجني فقد كان يعشقها وبلغ من هيامه بها أنه تبعها من مضارب قبيلتها حتى أثرب/ المدينة حيث نقلها سعد إثر زواجه منها، وبنو عُذرة اشتهروا بالحب العفيف الطاهر الذي لا تدنسه أدران الشهوة ونوازع الجسد، ولذلك يقال للحب الشريف الخالص (حي عذري)، ويبدو أنه جِنّهم مثلهم لأن الجني عاشق زوجة ابن مالك كان قابعاً بجوارها يتأملها في صمت ويتولّه لها في سكون بعكس لكين جني الرُبيع بنت معوذ بن عفراء الذي وقع على صدرها وأخذ يعالجها أي يداعبها مداعبة ثقيلة وانتهت بأن قرصها في ركبتها كما رأينا، وفي إحدى المرات لاحظ سعد بن أبي وقاص ذلك الجني على فراش زوجته أو هي دلته عليه فغضب سعد وخاطبه قائلاً له: إن هذه المرأة هي زوجته أحلها الله له وأصدقها مهرها من حرّ ماله ومن ثم لا يحل له (= الجن) منها شيء ولا النظرة وطرده وتوعده بالقتل إن عاد لذلك، فارتعدت فرائص الجني من هذا الوعيد وخرج (حتى دخل من باب مسجد الرسول (ص) فلما كان في وسطه وثب وثبة في السقف) وفارق معشوقته إلى الأبد.

أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي من طريق الليث عن ابن عجلان أن سعد بن أبي وقاص تزوج امرأة من بني عُذرة فأتاها يوماً فإذا حية على الفراش فقالت: ترى هذا؟ فإنه كان يتبعني إذا كنت في أهلي فقال له سعد: ألا تسمع: إمرأتي تزوجتها بمالي وأحلها الله لي ولم يحل لك منها شيء فاذهب فإنك إن عدت قتلتك فانساب حتى خرج من باب البيت فلم يعد إليها بعد ذلك.

وفي دلائل النبوة للبيهقي إضافة هي:

(وأمر سعد إنساناً أن يتبعه أين يذهب فاتبعه حتى دخل من باب مسجد الرسول (ص) فلما كان في وسطه وثب وثبة فإذا هو في السقف، قال: فلم يعد إليها بعد ذلك، الدلائل، ج ٢ ص ١١٧)[١٧].

هذا الخبر مثل سابقه أورده السيوطي في (الخصائص) عن ابن أبي الدنيا والبيهقي، وقد لفت نظرنا أن الجن في الأخبار التي أوردناها تقفز دائماً إلى أعلى وتثب إلى السقوف مع أن هيئة الأفاعي التي تتشكل فيها كانت توجب عليها أن تتسرب إلى الشقوق أو في باطن الأرض.

وفهم هؤلاء الجان للغة العربية وكلامهم بها وقراءتهم للأوراق المكتوبة بها والمرسلة لهم من السماء أمر طبيعي لأنهم يعيشون مع العرب فلو أنهم كانوا في فارس لتحدثوا بالفارسية وقرأوها ولو عاشوا في الحبشة لكان خطابهم بالحبشية... وهكذا...

(١٧) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٨، تحقيق د. حمزة النشرتي، وآخرين الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، مصر، وفي هامش الصفحة، كانت هذه الحية جنّياً يريد هذه المرأة.

ــ (قال جرير بن عبد الله البجلي (رض): وفدت إلى رسول الله (ص) فأمسيت بوادٍ وحدي فإذا شخص واقف عليَّ فقال لي: انطلق، قلت: وأنا آمن؟ قال: نعم، فذهبت معه إلى جمع شيب وشِبان فقالوا: إنسيّ: قال: إنسيّ قالوا: أنشدنا فأنشدتهم: ودّع هريرة إن الركب مرتحل... فضحكوا وقالوا: شعر سجل ادْعُه يا غلام فأقبل شخص كأنه رمح ورأسه مثل قُلة فقالوا: هذا إنسيّ أنشدنا من شعرك قال جرير: فحدثتهم إلى الصبح وعلموني دواء لا أحد يعرفه حتى اليوم)(١٨).

جرير البجليّ من الصحابة بلا خلاف وقد تأخر إسلامه (أسلم جرير قبل وفاة النبي (ص) بأربعين يوماً)(١٩).

وقد فعل الأفاعيل في غزو العراق خاصة في القادسية (وكان له في الحروب بالعراق: القادسية وغيرها أثر عظيم)(٢٠)، ولعل عبارة (له أثر عظيم) لا تحتاج إلى شرح: وترجمته في (الأسد) و(الاستيعاب) تقطع برصانته ورجاحة عقله وحنكته إذ إنه بهذه المناقب وبشخصيته المسيطرة استطاع أن يجمع (بجيلة) بعد أن كانت متفرقة، ومثله لا يُشك في كلامه ولا تُكذب روايته. وفي هذه الأحدوثة (بفتح الهمزة) المليحة يؤكد البجلّي أنه قابل جِنّياً فقاده إلى مجموعة من الجن فيهم الفتيان والشيوخ على قدر من التأدب والرقي والتحضر لأنهم

(١٨) **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** لزكريا بن محمد القزويني (٦٠٠/ ٦٨٢هـ) ص ٣١٤، د. ت. دار الشروق العربي، بيروت.
(١٩) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الأول، ص ٣٣٣، مصدر سابق.
(٢٠) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.

طلبوا منه سماع الشعر وطربوا لجيّده وظلوا يطارحونه ويطارحهم حتى الصباح، ومكافأة له كتبوا له «روشتة» وصفة دواء لا يعلمها إنسيّ، ولا أدري لماذا ضنّ بها البجلّي على قومه وعلى المسلمين ولو فعل لاستراحت الإنسانية من أوجاعها!

هذا البجلّي عينة من العصبة الميمونة التي دهست بأحصنتها المباركة بلاداً ذوات حضارات عريقة منها فارس والعراق وهيمنوا عليها وغدوا سادتها، أليس من مفارقات التاريخ المُعجبة أن هذا البجلّي الذي يؤمن بكائنات لم يرها أحد بعد زمنهم المبارك يتحكم في العراق صاحب المدنية العريقة!!!

ــ (هو أُبيّ بن كعب، روى الحديث عبد الله: كان له (لأبيّ) جرن فيه تمر، فكان يتعاهده فوجده ينقص، فحرسه ليلة فإذا دابه شبيه الغلام المحتلم فسلّم عليه فرد السلام فقال: ما أنت جِنيّ أم أنسيّ؟ قال: جنيّ قال: ناولني يدك فناوله فإذا يد كلب وشعر كلب فقال: هذا خَلْق الجن... الخ)[٢١].

أُبيّ بن كعب صحابي أنصاري كان من علماء الصحابة ذكر السجستاني في (المصاحف) أن له مصحفاً مستقلاً (قبل حرق المصاحف وجمع المسلمين على مصحف عثمان ا. هـ) ووصفه محمد بأنه أقرأ المسلمين وفي روايات متعددة أنه من بين الأربعة الذين حفظوا القرآن

(٢١) رواه الحاكم في **المستدرك** وقال صحيح الإسناد ولم يخرّجاه، **تفسير ابن كثير**، المجلد ١ ص ٤٥٠، طبعة دار الشعب، مصر.

في حياة محمد، وهو أول من كتب له مقدمة المدينة (= عند قدومه يثرب) (وروى الحسن بن صالح عن مطرف عن الشعبي عن مسروق قال: كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله (ص) ستة: عمر، علي، عبد الله، أبيّ، زيد، أبو موسى)[٢٢].

هذا الصحابي الذي حاز هذه المزايا السامقة يؤكد أنه قابل جِنياً صغير السن اعتاد على سرقة تمر من جرنه (= أُبيّ) وأنه دار بينهما حوار وأنه عاين يده فتأكد لديه أنه جني لأنها على خلقهم. أي أن لها خَلْقاً خاصاً، مع أن المتفق عليه أن في مقدورها أن تتصور في أي شيء شاءت ما يعني أنه ليس لها خَلْقٌ خاصٌ كالأناسي، والخبر جاء في المستدرك للحاكم النيسابوري ووصفه بالصحة والمستدرك من عوالي كتب الأحاديث وإن لم يبلغ رتبة الصحاح الستة ونقله إلينا ابن كثير في تفسيره الذي هو من أوثق التفاسير.

ـ (وأخرج أبو نعيم عن عطاء بن أبي رباح قال: بينما عبد الله بن عمرو في المسجد الحرام إذ بصرحية رقطاء (= في سوادها بياض) جاءت حتى طافت بالبيت سبعاً ثم أتت بالمقام كأنها تصلي فجاء عبد الله بن عمرو حتى قام عليها فقال: يا هذه لعلك أن تكوني قد قضيت نُسكاً وإني لا آمن عليه سفهاء بلادنا فتطوقت ثم ذهبت في السماء)[٢٣].

(٢٢) **أسد الغابة** للجزري، المجلد ١، ص ٦٣، مصدر سابق.
(٢٣) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦١١ تحقيق النشرتي وآخرين، طبعة ١٩٩٦م، مصر.

بطل هذه الأقصوصة عبد الله بن عمرو بن العاص من أفضل صحاب محمد وكانت له صحيفة يكتب فيها أحاديثه وفي رواية أن اسمها (الصادقة) وكان أبو هريرة يتحسّر على أنه لم يكتب مثله وكان عبد الله على اطلاع على بعض كتب أهل الكتاب وكان ناسكاً عابداً وقد نبّه أباه ومعاوية بن أبي سفيان عندما قتل عمّار بن ياسر في عركة صفِّين إلى حديث محمد (تقتلك الفئة الباغية يا عمار) فطلب معاوية من عمرو أن يُسكته، هذا الصحابي الذي يحتاز كل هذه المناقب يؤكد رؤية جِنيّ في صورة حيّة رقطاء أي يشوب سوادها بياض (المهم أنها سوداء كسائر الجان الذين ورد ذكرهم فيما سلف. ا. هـ.) تطوف حول الكعبة وتصلّي في مقام إبراهيم مثلها مثل أي مسلم متحنّث ويبدو أنها كانت في نهاية المطاف في حج أو عمرة، فيخاطبها ابن عمرو متلطفاً أنها وقد أدت ما عليها من مناسك فرجا أن ترحل لكي لا يؤذيها أحد سُفهائهم فاستجابت لهذا الرجاء وتطوقت أي جعلت نفسها كالطوق ثم ذهبت في السماء كالعادة فكلهم يصعدون إلى أعلا إما إلى السقف أو السماء (في بعض اللهجات يسمى السقف: سماء. ا. هـ.)

ولا بد أن لها قدرات خارقة تمكنها من الطيران إلى فوق لأن الحيات الطبيعية ليست لها طاقة إلاّ على الزحف على الأرض!

والخبر رواه عطاء بن أبي رباح وهو من خيرة فقهاء التابعين ومن ثقات رواة الحديث وأخرجه أبو نعيم في (حلية الأولياء) وهو من الكتب المستجادّة لدى أهل السنّة

والجماعة وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى.

أي أن دعائم الثقة تحوطه من أقطاره كافةً.

ـ (أخرج أبو نعيم عن طلق قال: كنت عند ابن عباس وهو جالس عند زمزم إذ أقبلت حية فطافت حول الكعبة أسبوعاً ثم أتت المقام فصلت ركعتين فأرسل إليها ابن عباس أن الله تعالى قد قضى نسكك وأن لنا أعُبداً ما نأمنهم عليك، فتكومت ثم ظعنت (= رحلت)[٢٤].

القصة عينها تتكرر ولكن هذه المرة مع ترجمان القرآن وحبر الأمة عبد الله بن عباس ونظراً لمكانة بني هاشم ولأنه ابن عم قائد الثورة المظفرة فإنه لا يخاطب الجِنيّ مباشرة بل يرسل إليه أحد أتباعه يطلب إليه الرحيل بعد قضاء نسكه ويلمح إليه بالقتل على يد العبيد إذا أصرّ على البقاء فلا يسع الجان أو الحية إلاّ أن (تكومت ثم ظعنت أي رحلت).

ـ وكانت حكايا الجان المسلية وأحدوثاتهم المدهشة تشغل حيّزاً وسيعاً من تفكيرهم لأنها جزء من ثقافتهم (الثقافة بمعناها الواسع) ومن الطبيعي أن تغدو مادة شديدة الدسامة وطعاماً شهياً على مائدة سمرهم:

(وقد جرى ذكر الجن في مجلس عمر بن الخطاب (رض) فقال رجل من بني الحارث: خرجت عاشر عشرة أريد الشام فتأخرت عن أصحابي حتى اختلط الظلام فزحفت لي نار فقصدتها فإذا بخيمة أمامها جارية جميلة فقلت لها: ما تصنعين في هذا المكان فقالت: أنا جارية من فزارة اختطفني عفريت وهو يغيب عني

(٢٤) **الخصائص الكبرى**، للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦١٠، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، مصدر سابق.

بالليل ويأتيني بالنهار... وبقية الأَحدوثة[٢٥] أن الرجل تغلب على الجني واستخلص منه الجارية وسار بها إلى أهلها فزوجوه إياها وله منها أولاد)[٢٦].

وإذا كان الخليفة بجلال قدره يدور في مجلسه قصص الجان والعفاريت ففيم كان يسمر العامة في ذلك الزمان المجيد؟

ــ والظاهر أن الجنّ اتسمت بدرجة عالية من الوفاء إذ حزنت على عمر بن الخطاب الذي اعتاد أن يحيي مجالس سمره بحكاياها الطريفة أو أنها كانت مُسلمة فرأت في قتل عمر خسارة فادحة على الإسلام والمسلمين فهو الذي أرسل قواده البُهْم المغاوير فغزوا البلاد المجاورة وأذلّوا أهلها وكشطوا خيراتها وأسروا رجالها وغلمانها واستعبدوهم وسبوا نساءهم وفتياتهم إماءً وملك يمين... الخ فكيف لا يتفجعون عليه ولا يرثونه كما فعل إخوانهم في الدين من بني آدم:

(خرّج الحاكم (ج ٣ ص ٩٤) عن مالك بن دينار قال: سمع صوت بجبل تبالة (باليمن) حين قُتل عمر بن الخطاب (رض):

لبّيكِ على الإسلام من كان باكياً — فقد أوشكوا هلْكَى وما قدم العهد
وأدبــرت الــدنيا وأدبر خيــرها — وقد ملّها من كان يوقن بالوعــد

(٢٥) تسميها العامة في مصر: الحدوتة.
(٢٦) **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** لزكريا بن محمد القزويني، ٦٠٠هـ/ ٦٨٢هـ، ص ٣٢٠، د. ت. دار الشروق العربي، بيروت.

فنظروا فلم يروا شيئاً وأخرجه أبو نعيم في الدلائل ص ١٢٠ عن معروف الموصلي وأخرجه الطبراني عن معروف وأخرج ابن سعد (أي في الطبقات ج ٣ ص ٢٧٤) عن عائشة (رض) قالت: سمعت ليلاً ما أراه إنسيّاً نعى عمراً (رض) وهو يقول:

جزى الله خيراً من أمير وباركت   يد الله في ذاك الأديم الممزق

ثم ثلاثة أبيات بعدها، وعنده أيضاً عن سليمان بن يسار أن الجن ناحت على عمر (رض):

عليك سلام من أمير وباركت   يد الله في ذاك الأديم الممزق

ثم ثلاثة أبيات بعدها، مقاربة للأبيات التي روتها عائشة، وأخرج أبو نعيم في الدلائل (ص ٢١٠) عن عائشة (رض) قالت:

(بكت الجن على عمر بن الخطاب (رض) بعد ثلاث وذكر هذه الأشعار بغير هذا الترتيب. وأخرج الطبراني عن أم سلمة (رض) قالت: سمعت الجن تنوح على الحُسين بن علي (رض) قال الهيثمي (ج ٩ ص ١٩٩) رجاله رجال الصحيح)[٢٧].

ضمت هذه الأحاديث أسماء لوامع: عائشة، أم سلمة، مالك بن دينار، سليمان بن يسار، وخرّجها أصحاب كتب ثقات: الحاكم، ابن سعد، الطبراني، أبو نعيم، أي أن الشكوك من المستحيل أن تحوم حولها، وهي تقطع بأن الجن ناحت على عمر بن الخطاب، ثم من بعده على الحسين بن علي وبين طعن عمر ومذبحة الحسين قُتل

(٢٧) **حياة الصحابة** للكاندهلوي، المجلد ٣، ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣، الطبعة الثانية، غرة شوال المعظم ١٣٩٩هـ آب/ أغسطس ١٩٧٩م، الناشر دار الوعي، حلب.

أصحاب أكابر منهم: عثمان وطلحة والزبير وعمّار وعلي وغيرهم كثير فلماذا لم تأسف الجن عليهم وتؤبنهم، وما هو مقياس أسى الجان ومتى تتفجع وتنطق بقصائد النوح؟

ـ ونصعد درجة مع هذه الكائنات المدهشة التي افتقدها المسلمون بعد جيل الصحابة ومتقدمي التابعين والتابعات ونترقى من حكايا الجن إلى أقاصيص الشياطين التي هي أعلى رتبة لنقرأ عن صحاب معروفين بل إنهم يتربعون على القمة ممن حظوا بمقابلة الشياطين والتحاور معها بل ومصارعتها، نعم مصارعتها!!!

(عن أبي وائل قال عبد الله (رض) لقي الشيطان رجلاً من أصحاب النبي (ص) فصارعه فصرعه المسلم وأزم (عضّ) بإبهامه فقال:

دعني أعلمك آية لا يسمعها أحد منا إلاّ ولّى فأرسله فأبى أن يعلّمه فصارعه فصرعه المسلم وأزم بإبهامه فقال أخبرني بها فأبى أن يعلّمه فلما عاوده الثالثة قال: الآية في سورة البقرة ﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ إلى آخرها، فقيل لعبد الله: يا أبا عبد الرحمان من ذلك الرجل قال: من عسى أن يكون إلاّ عمر (رض) رواه الطبراني، وله رواية أخرى عنده لابن مسعود، أكثر طولاً)[٢٨].

من رواة هذا الحديث عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وهما من المحمودين بين الصحاب، والأخير هو رأس مدرسة العراق الفقهية وأورده الطبراني والهيثمي، إذن فهو صحيح لا طعن عليه. وفيه أن عمر بن الخطاب صرع الشيطان ثلاث مرات وكنت أعتقدت قبل أن أقرأ

(٢٨) قال الهيثمي ٩/ ٧١ رواهما الطبراني بإسنادين ورجال الرواية الثانية (الأخرى، رجال الصحيح إلاّ أن الشعبي لم يسمعه من ابن مسعود ولكنه أدركه، نقلاً عن كتاب **كرامات الصحابة (رض)** ص ١٢٢، مصدر سابق.

هذه الأُحدوثة أن الشيطان لا يقدر عليه أحد إلاّ الله وأنه (= الشيطان) بملكاته الفاذة الخارقة للطبيعة وطاقته على التشكّل ومكره ودهائه وخبثه... من المستحيل أن يتصدى له إنسيّ بله أن يصرعه بيد أن ابن الخطاب فعلها وفلج فيها، وفيه أن عمراً علّمه الشيطان آية... الخ.

ولو أنك قلت لأي مسلم معاصر أن ابن الخطاب تتلمذ على يد الشيطان لاستهول ذلك ولرماك بالمروق من الدين واتهمك بالتجديف ونسب إليك الحط من قدر الصحابة ولكن كتب التراث تحوي كنوزاً لا تقدر من الحقائق المذهلة التي هي أغرب من الخيال عينه والتي تصيب بالدوار من شدة الدهش والانبهار!!!

ـ ونختم حكايات الشيطان الطريفة بخبر ورد في أصح كتب المسلمين بعد القرآن وبطله واحد من كبار الصحاب وأكثرهم رواية لحديث محمد: (عن أبي هريرة أنه وكّل إليه رسول الله (ص) حفظ زكاة رمضان فأتى آتٍ ثلاث مرات يحثو من الطعام ودار حوله بينهما في كل مرة وأن ذلك كان شيطان.

رواه البخاري في الصحيح، ورواه النسائي في اليوم والليلة من وجه آخر وبسياق قريب، وكذا الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره)[٢٩].

أخرج هذا الحديث ثلاثة من الأئمة الأثبات ١، البخاري ٢، النسائي ٣، ابن مردويه، الأول في الصحيح والثاني في اليوم والليلة والثالث في التفسير، ويكفي أنه ورد في صحيح البخاري حتى

(٢٩) **تفسير ابن كثير**، المجلد ١ ص ٤٥٢، مطبعة دار الشعب، مصر.

يسلّم بصحته المعاند الخصيم، وفيه أن أبا هريرة قابل الشيطان إذ ضبطه وهو يحثو من الطعام وأنهما تحادثا ويؤكد ابن كثير الذي حمل الخبر تفسيره، الذي يحظى لدى الجمهور بمكانة عليّة، أن التلاقي تم ثلاث مرات ولا مرة واحدة[٣٠].

إذن لا سبيل إلى المجادلة في هذه الواقعة ويتعين على كل مؤمن أن يسلّم بها لأن من يماري فيها يشكّك في صحة أحاديث صحيح البخاري أوثق دواوين السنّة.

من جماع النوازل التي سقناها فيما سلف ثبت أن أصحاباً وصاحبات أكابر قابلوا الشيطان والجان والغول وتحادثوا وتعاملوا معها بشتى ضروب المعاملات وذلك بموجب أخبار حملتها إلينا مصادر مكينة لا يرتفع إليها التضعيف أو التهوين أو التهزيل وأن نسبة ولو ذرة من الريب إليها يعد طعنة نجلاء في الصميم لتراث أمة لا إله إلا الله وهو أمر لا يقدم عليه أي مسلم.

إذن هي حقيقة ثابتة.

* * *

(٣٠) **تفسير ابن كثير**، المجلد الأول ص ٤٥٣، مصدر سابق.

[Blank Page]

الباب الرابع

الظواهر الطبيعية

[Blank Page]

حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على وادي جبعون ويا قمر على وادي ايلون فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر يوشع ــ فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل الذي اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب صوت إنسان لأن الرب حارب عن إسرائيل[١].

ثم بعث الله بعد موت يوشع بن نون بن افرايم وأمره بمقاتلة الجبارين فسار بنو إسرائيل بعد شهر من موت موسى إلى بلاد الشام وقد غلب عليها العماليق، فسار إليهم ملك الشام وهو السميع بن هوبر فقاتلهم يوشع يوم الجمعة قتالاً شديداً حتى غربت الشمس فدعا الله أن يرد عليه الشمس فردها عليه فزاد في النهار يومئذ فهزم الجبارين واقتحموا عليهم يقتلونهم[٢].

(١) ١٢/ ٤ من الإصحاح العاشر من سِفر يوشع **الكتاب المقدس**.
(٢) كتاب **المسالك والممالك** لأبي عبير البكري، الجزء الأول، ص ١٤٥، فقرة ١٤٦، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيرى الطبعة الأولى ١٩٩٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس.

السماء استجابت لنداء يشوع أو يوشع تلميذ موسى وتابعه فأوقفت الشمس ليوم كامل، ولما كانت الكتب السماوية تصدّق بعضها البعض وإن كان ما جاء القرآن مهيمناً عليها، فإن خرق السنن الكونية لم يتأت لأحد من أتباع الرسل بعد ذلك ــ ومن ثم كان الأمر بالنسبة لصحابة محمد مقتصراً على خرق الظواهر الطبيعية فحسب:

فتحَ عمرو بن العاص مصر سنة عشرين من الهجرة فتأخر فيضان النيل عن موعده حتى مسرى (توافق ديسمبر) حتى همّ أهلها بالجلاء فلما رأى ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب (رض) فكتب إليه عمر... قد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فإذا فيها: (من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ــ أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجرِ وإن كان الواحد القهار يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك، فألقى عمرو بالبطاقة في النيل وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنهم لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل فأصبحوا يوم الصليب (يوافق ١٩ مارس من كل عام) وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر ــ باختصار[٣] ــ عمر بن الخطاب يرسل بطاقة إلى نهر النيل العظيم بها سطران، فما إن يتلقاها حتى ينتفض ويفيض ويبلغ ستة عشر ذراعاً وبذا انقطع السوء عن مصر وأهلها الذين كانوا قد عزموا على الجلاء. (لا يوجد في مدونات تاريخ مصر القديمة أن المصريين عزموا على ترك وطنهم مهما تأخر فيضان النيل أو قلّ منسوبه). والخبر هنا موثق أشد ما يكون التوثيق إذ ورد في عدد من المصادر المعتبرة ما بين تفسير وحديث وتاريخ ــ وكما يفيض النيل ويتدفق ماؤه كطلب أحد الصحبة فكذلك

(٣) رواه عبد الحكم في **فتوح مصر**، وأبو الشيخ في **العظمة** وابن عساكر عن قيس بن الحجاج عمن حدثه، كذا في **منتخب الكنز** ٤/ ٣٨٠، رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي في كتاب **السنّة** عن قيس بن الحجاج نحوه، وابن كثير في **التفسير**، نقلاً عن **كرامات الصحابة** (رض) ص ١١٦، مصدر سابق.

يستجيب المطر وينهمر إثر دعاء واحد منهم سواء ليستفي الجم الغفير الذين يُعدّون بالمئات أو الجماعة المحدودة العدد أو الفرد الداعي وحده: عن أنس (رض) قال: جهّز عمر بن الخطاب (رض) جيشاً واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي وكنت في غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد بدروا بنا فعفوا آثار الماء والحر شديد فجهدنا العطش ودوابنا وذلك يوم الجمعة. فلما مالت الشمس لغروبها صلّى بنا ركعتين ثم مد يده إلى السماء وما نرى في السماء شيئاً فقال أنس: فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً وأفرغت حتى ملأت الغُدُر (مفردها غدير) والشِعاب فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة فوقف على الخليج وقال: يا عليّ يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال: أجيزوا باسم الله قال: فأجزنا ما يبل الماء حوافز دوابنا فلم نلبث إلا يسيراً فأصبنا العدو فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال: مثل مقالته، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا[٤].

والعلاء الحضرمي هو عبد الله بن عماد أو ابن عمار أو ابن ضمار وهو من حضرموت فتح البحرين فولاّه محمد عليها وأقره أبو بكر ثم ولاّه عمر البصرة ولكنه توفي وهو في الطريق إليها وهو أخو الصعبة بنت الحضرمي كانت (تحت) أبي سفيان فطلقها فخلف عليها عبيد الله عثمان التيمي (على عادتهم في التعاقب على نسوانهم بعضهم البعض. اهـ) فولدت طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة... وكان يقال إن العلاء بن الحضرمي (رض) كان مجاب الدعوة وأنه خاض البحر بكلمات قالها ودعا بها وذلك مشهور عنه[٥]. إذن لم تقتصر إستجابة السماء للعلاء على إنزال المطر مدراراً بل تعدته إلى خوض البحر هو وجنوده دون أن تبتل سوى حوافر خيولهم المظفرة.

والخبر لا شك فيه بعد أن ساقه البخاري في التاريخ وكذلك البيهقي،

---

(٤) أخرجه البيهقي، وذكر البخاري في **التاريخ** لهذه القصة إسناداً آخر نقلاً عن **كرامات الصحابة** (رض) ص ١٢٦، مصدر سابق.
(٥) **الاستيعاب** المجلد الثالث ص ١٠٨٧، مصدر سابق.

ومن الغريب أن أتباع الرسل بدل أن يشكروا السماء على وقوفها معهم وإنجادهم بخرق الظواهر لهم سواء كونية أم طبيعية إذ بهم يُمعنون في قتل عباد الله من أعدائهم قتلاً ذريعاً ويأسرونهم ويسبون نساءهم ويحوزون أموالهم...!! فقد رأينا يشوع يُمعن في قتل الأموريين والعلاء الحضرمي ومن معه من الأصحاب على لسان أنس بن مالك خادم محمد (فلم نلبث إلا يسيراً فأصبنا العدو فقتلنا وأسرنا وسبينا)!!!

فهل هي سنة أو تقليد يتبعه تلاميذ الرسل؟ أم أن هذه طريقتهم في شكر السماء على معاضدتها إياهم؟ لا ندري على وجه التحقيق ولكن ما نعلمه يقيناً أنْ لو كان موسى أو محمد على قيد الحياة لما أقر واحد منهما الأتباع والتلاميذ على ذلك. وقد رأينا في السفر الأول من كتابنا هذا كيف أن محمداً كان يفزع لمثل هذه الأفعال فزعاً بالغاً ويستنكرها ويعنّف من يرتكبها ويزجره بشدة ويرفع يديه إلى السماء حتى يُرى بياض إبطيه من شدة تأثره ويقول بصوت مسموع: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل فلان بن فلان.

يروي ابن سعد عن سليم بن عامر الجنائزي أن السماء قحطت فخرج معاوية بن أبي سفيان (رض) وأهل دمشق يستسقون فلما قعد معاوية على المنبر قال ابن الأسود الجرشي؟ (رض) قال فناداه الناس وأقبل يتخطى فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد الأسود الجرشي يا يزيد ارفع يديك إلى الله فرفع يزيد يديه ورفع الناس أيديهم فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب وهبّت لها ريح فسقينا حتى كان الناس لا يصلون إلى منازلهم[٦].

معاوية الأموي القرشي كاتب الوحي في رواية أو كاتب الرسائل لمحمد في رواية أخرى وصهره إذ هو أخو أم حبيبة بنت أبي سفيان يستشفع

(٦) **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٧/ ٢/ ١٥٥، نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١٠١، مصدر سابق.

بيزيد بن الأسود الجرشي وهو صحابي عادي حتى لم يكن من رواة الحديث[٧]. ومع ذلك فما إن رفع يديه نحو السماء حتى استجابت وانهمر المطر حتى عجز الناس عن الوصول إلى منازلهم ــ وإذا كان معاوية قد توسل إلى السماء لإنزال المطر بيزيد بن الأسود الجرشي وهو أدنى رتبة منه في النسب والصحبة ولا قرابة ولا صهر له بمحمد فعلى ذلك كان عمر بن الخطاب محقاً عندما استسقى بالعباس بن عبد المطلب عم محمد:

أخرج البخاري والبيهقي عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وأخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عمر قال: استسقى عمر عام الرمادة بالعباس[٨] ولم ينفرد السيوطي بهذا الخبر الذي رواه عن الحاكم النيسابوري في (المستدرك) بل أورده ابن عبد البر في (الاستيعاب) مطولاً وذكر أنه جمعه من أحاديث واختصره وجاء في نهايته (... فأرخت السماء عزاليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام وأخصبت الأرض وعاش الناس)[٩]. وكان من الطبيعي أن يتحوّل العباس بعد ذلك إلى شخصية قدسانية تجلب البركة لمن يلمسها و(لما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك سابقي الحرمين)[١٠].

ومما هو جدير بالذكر أننا قرأنا في سيرة عبد المطلب أبي العباس أن المطر احتبس عنهم في إحدى السنين فخرج بأهل مكة يتقدمهم ودعا فنزل المطر فأنقذ المكاوية من هلاك محقق ــ إذن الدعاء للسماء عند الجدب وانحباس الغيث طقس توارثوه من الآباء والجدود ــ ودلالته أن مما هو

---

(٧) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الرابع ص ١٥٧٠، مصدر سابق، **وأسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الخامس، ص ٤٧٠، مصدر سابق.
(٨) **الخصائص الكبرى** للسيوطي تحقيق النشرتي، المجلد الثاني، ص ٦٠٦، طبعة ١٩٩٦م بالقاهرة.
(٩) **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٨١٤ ــ ٨١٥، مصدر سابق.
(١٠) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد ٣، ص ١٦٤، مصدر سابق.

متجذر في وجدانهم من قديم أن تبدل الظواهر الطبيعية أمر جائز الحدوث بمجرد الابتهال إلى السماء!!!

* * *

في الأخبار السوابق رأينا المطر يهطل ليغيث الناس جميعاً في بلدة مثل أثرب/ المدينة أو مدينة كدمشق أما في الخبر التالي فإن السُقيا اقتصرت على مجموعة محدودة:

أخرج أبو نعيم عن أبي هريرة قال: خرجت مع العلاء بن الحضرمي فرأيت خصالاً لا أدري أيتهن أعجب انتهينا إلى شاطئ البحر فقال سموا الله تعالى واقتحموا فسمينا واقتحمنا فعبرنا فما بلّ الماء إلا أسافل خفاف إبلنا فلما قفلنا صرنا معه بفلاة من الأرض وليس معنا ماء فشكونا إليه فصلّى ركعتين ثم دعا فإذا سحابة مثل الترس ثم أرخت عزاليها (فم القربة) فسقينا واستقينا ومات فدفناه في الرمل فلما سرنا غير بعيد قلنا يجيء سبع فيأكله فرجعنا فلم نره(١١) وللخبر مصادر أخرى لرواية أبي هريرة نفسها:

عن أبي هريرة قال: لما بعث النبي (ص) العلاء الحضرمي (رض) إلى البحرين تبعته فرأيت خصالاً ثلاثة لا أدري أيتهن أعجب: انتهينا إلى شاطئ البحر فقال: سموا الله واقتحموا فسمينا واقتحمنا فعبرنا وبلّ الماء أسفل خفاف إبلنا فلما قفلنا (رجعنا) سرنا معه بفلاة من الأرض وليس معنا ماء فشكونا إليه فصلّى ركعتين ثم دعا فإذا سحابة مثل الترس ثم أرخت عزاليها فسقينا واستقينا ومات فدفناه في الرمل فلما سرنا غير بعيد قلنا: يجيء سبع فيأكله فرجعنا إليه فلم نره يعني في القبر(١٢).

---

(١١) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، تحقيق النشرتي وآخرين المجلد الثاني، ص ٦٠٠، طبعة ١٩٩٦، مصدر سابق. والحديث المذكور ذكره ابن كثير في **البداية والنهاية** ج ٦ ص ١٥٥، مروياً عن أنس وذكره أيضاً مروياً عن أبي هريرة.

(١٢) رواه أبو نعيم في الدلائل ٢٠٨ وفي **حلية الأولياء** ١/ ٨ والطبراني في الثلاثة **الكبير والأوسط والصغير** عن أبي هريرة نحوه، قال الهيثمي ٩/ ٣٧٦ فيه إبراهيم بن معمر =

الخبر إذن رواه أنس بن مالك وأبو هريرة وهما من أعيان الصحاب ومن أشهر رواة الحديث وقد نقلته مصادر لها بالغ التقدير لدى أهل السنة والجماعة:

ثلاثية الطبراني: الكبير والأوسط والصغير ــ البداية والنهاية لابن كثير ــ الخصائص الكبرى للسيوطي ــ فما هي أعمدة الثقة التي تُتطلب في خبر أوكد من هاته. والعلاء بن الحضرمي سبق أن عرّفنا به وهو من أكابر الصحاب وقد حاز ثقة القائد محمد ومن بعده أخلص جنوده: ابن أبي قحافة وابن الخطاب وهما من هما في وزن الرجال ومعرفتهم ــ والخبر انضوى على عدة خروقات لظواهر الطبيعة:

أ ــ اقتحام لجج البحر العميقة والخوض فيها ومع ذلك لا تبتل سوى أسافل خفاف إبلهم ــ مما يذكّرنا بخوض موسى ببني إسرائيل البحر الأحمر.

ب ــ إنزال الماء من السماء بعد نفاد ما معهم من ماء وإشرافهم على الهلاك عطشاً.

ج ــ ابتلاع الأرض لجثمان العلاء الحضرمي بمجرد دفنه.

* * *

بعد ذلك ننتقل إلى استجابة السماء لطلب إنزال الغيث لسقيا فرد بعينه أو ليروي أرضه:

بعد هجرة النبي (ص) خرجت أم أيمن (مولاته وأم أسامة بن زيد) إلى المدينة ماشية وليس معها زاد وهي صائمة قال ابن سعد عن عثمان بن القاسم قال لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء (منازل بين مكة والمدينة) فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة فأجهدها العطش

الهروي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات، نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١٢٦، سعيد هارون عاشور، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م مكتبة الآداب القاهرة.

فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربته حتى رويت فكانت تقول ما أصابني بعد ذلك عطش ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت، وفي رواية لابن السكنى: قالت: ولقد كنت أصوم في اليوم الحار ثم أطوف في الشمس كي أعطش فما عطشت[١٣].

وأم أيمن واسمها بركة بنت ثعلبة وهي حبشية كما يقول ابن الأثير في (الأسد) وهي مولاة محمد وخادمته وهي أم أسامة بن زيد بن حارثة وقد (هاجرت الهجرتين إلى أرض الحبشة وإلى المدينة جميعاً)[١٤] وكان محمد يكنّ لها إعزازاً خاصاً (وكان رسول الله (ص) يقول أم أيمن أمي بعد أمي وكان يزورها في بيتها)[١٥]. ومن بعده كان يزورها وزيراه ومستشاراه أبو بكر وعمر ــ نخلص من جماع ما تقدم إلى أن بركة أم أيمن أو أم أسامة بن زيد شخصية لها مكانتها وكفى بتقدير قائد الثورة المظفرة لها ــ والخبر أورده ابن حجر العسقلاني أمهر صيارفة الحديث في زمانه وأعلمهم بعلله ومثله يستحيل أن يضمّن كتبه خبراً موضوعاً أو ضعيفاً الخ... ــ وفيه تؤكد أم أيمن أن دلواً ذا رشاء أبيض قد نزل من السماء وهي في طريقها إلى أثرب نازحة (مهاجرة) إليها من مكة لتنضم إلى كتائب الثورة بقيادة محمد الذي هو بمثابة ابنها كما صرّح ــ فشربت منه وحتى رويت ليس ذلك فحسب بل إنها بعدها لم يصبها ظمأ على الإطلاق حتى لو كانت صائمة في الهواجر. والرشاء هو الحبل ويجمع على أرشية كرداء وأردية وفناء وأفنية وسقاء وأسقية[١٦].

روى أبو نعيم عن مولى لكعب قال: انطلقنا مع المقداد بن الأسود وعمر

(١٣) **الإصابة** لابن حجر العسقلاني ٨/ ١٧٠ نقلاً عن كتاب **كرامات الصحابة (رض)** ص ٨٧، مصدر سابق.
(١٤) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الرابع، ص ١٧٩٣، مصدر سابق.
(١٥) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد السابع، ص ٣٠٣، مصدر سابق.
(١٦) **الممدود والمقصور** لأبي الطيب الوشّاء، ص ٣٣، تحقيق د. رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى ١٩٧٩م، مكتبة الخان نجي، القاهرة.

بن عنبسّة وشافع بن حبيب الهزلي فخرج عمرو بن عنبسّة يوماً للرعية فانطلقت نصف النهار ــ يعني لأراه فإذا سحابة قد أظلته ما فيها عنه مفصل (أي تتجاوز جسمه) فأيقظته فقال: إنّ هذا شيء إنْ علمت أنك أخبرت به أحداً لا يكون بيني وبينك خير ــ فوالله ما أخبرت به أحداً حتى مات[١٧].

وعمرو بن عنبسّة صحابي أسلم قديماً بمكة فهو من الأوائل في إعتناق الديانة التي بشّر بها محمد وكان ذلك وقت الاستخفاء وأمره أن يرجع إلى قومه حتى إذا سمع بظهوره أتاه وفعلاً جاءه في أثرب وذكّره بنفسه فتعرف عليه فوراً.

والواقعة أوردها الخبير الخرّيت في الحديث ابن حجر العسقلاني ومن فاق أقرانه في الفقه والسنة وصاحب الكتاب الأشهر (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) ومن كان هذا حاله يستحيل عليه الوضع أو إجازة بضاعة الوضّاعين إذن فالخبر لا تشوبه شائبة والذي افتقر إليه الخبر أن عنبسّة توجه إلى السماء بالدعاء فإما أنه كافأته لقديم إسلامه وإما أنه دعا ولكن راوي الحديث لم يره آنذاك فقط شاهد السحابة (التفصيل) التي جاءت بمقاييس جسمه لكن تظله ولا تتجاوزه قيد أنملة.

وأخرج ابن سعد والبيهقي عن ثابت البناني قال: جاء قيّم أنس بن مالك في أرض فقال: عطشت أرضك فصلّى ثم دعا فثارت سحابة فجاءت وغشيت أرضه ومطرت حتى ملأت صهريجه وذلك في الصيف فأرسل بعض أهله فقال: انظروا أين بلغت؟ فإذا هي لم تعدُ (تتجاوز) أرضه ــ وأخرجه ابن سعد أيضاً من طريق ثمامة بن عبد الله[١٨]. صاحب هذا الخبر خادم آخر لمحمد وتحمل دواوين السنة ذوات الرتب الرفيعة العشرات من رواياته لأحاديثه إذ (هو من المُكثرين في الرواية عن رسول الله (ص)

---

(١٧) **الإصابة** لابن حجر العسقلاني ج ٤ ص ٦٦١، نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ٨٧، مصدر سابق.
(١٨) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٦، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، القاهرة.

روى عنه: ابن سيرين وحميد الطويل وثابت البناني وقتادة والحسن البصري الزهري وخلق كثير[١٩] مما يقطع بأنه حاز الثقة المطلقة في نقله الحديث عن سيده محمد وناهيك بمن تقبّل روايته من سيد التابعين الحسن البصري وباقي هذه الكوكبة من علماء النابعين ــ ومن كان بهذه المثابة فلا يشهد إلا بالصدق ولا شيء غير الصدق ــ هذا هو صاحب هذه الواقعة ــ أما اللذان حملا إلينا الخبر في مصادرهما فهما: ابن سعد والبيهقي ثم نقله عنهما السيوطي ــ إذن من يماري فيه ويجرؤ على التوهين؟

وموجز الواقعة أن القيّم على أرض أنس بن مالك[٢٠] يجيئه ويخبره أن الأرض عطشت فبدلاً من أن يأمره بحفر آبار أو نقل ماء إليها من غدير قريب الخ... يتجه إلى السماء ويدعو فتستجيب على الفور لا على التراخي وتأمر سحابة فتمطر على أرضه لا تتجاوزها إلى غيرها فهي سحابة على المقاس، ولا أدري لماذا لم يُشرك أنس جيرته في الدعاء لكي تمطر السحابة على أراضيهم التي لا بد أنها كانت شَرِقَة[٢١] مثل أرضه ــ ولعل مسلك أنس بن مالك في الالتجاء إلى السماء وغيره من الصحاب هو الجذر التاريخي للتواكلية وتفويض الأمر إلى السماء في حل مشاكلنا في التافه والمهم من أمور حياتنا وفي الشؤون الداخلية والخارجية، ومن ثم فإن من البديهي أن نسمع خطباء المساجد كل يوم جمعة يختمون خطبهم البليغة العصماء بالدعاء الحار أن يهلك الله أعداء الإسلام ويجعل أموالهم ونساءهم وذراريهم غنيمة للمسلمين أي أن يتولى الله جل جلالة تصفية الأعداء واستصفاء أموالهم ونسائهم وتقديمها لقمة سائغة هنية للمسلمين تصل إليهم حتى أبواب دورهم!!!

* * *

(١٩) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد ١ ص ١٥٤، مصدر سابق.

(٢٠) يسميه الفلاحون في ريف مصر (ناظر العزبة).

(٢١) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية شرقت الأرض: أجدبت، مُنع منها الماء حتى اشتد جفافها، ا. هـ. وتقول العامة في مصر: أرض شرقانة والجمع شراقي.

مجال آخر لخرق السنن الطبيعية وهو تعطيل خاصية غرق الأشخاص أو الأشياء في الماء وتحويل الأنهار العميقة الغور إلى ممرات ذات ماء وشَل(٢٢) لا يبل إلا بواطن أقدامهم أو بواطن أخفاف إبلهم الميمونة أو حوافز خيولهم المباركة:

أخرج أبو نعيم عن عمير الصائدي قال: اقتحم الناس في دجلة اقترنوا فكان سلمان قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء، قال سعد: ذلك تقدير العزيز العليم والماء يطمو (يفيض) بهم وما يزال فرس يستوى قائماً إذا أعيى تنشر له تلعة (مكان مرتفع) فيستريح عليها كأنه على الأرض فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ولذلك يُدعى (يوم الجراثيم) لا يعي إلا نشرت له جرثومة (مكان مرتفع من تراب أو طين) يستريح عليها(٢٣).

في غزو العراق وكسح خيراته وأسر رجاله وسبى نسوانه وعذراواته حدثت للصحبة أعاجيب هذا الخبر غينة منها. فهنا يقتحمون نهر دجلة فتحول إلى قناة يعبرونها بغاية اليسر فإذا تعب فرس أحدهم قبّت(٢٤) له تلعة (قطعة مرتفعة من الأرض) ليأخذ راحته عليها كأنه في البر ــ ومن ثم فلا نستعجب أنهم أثناء عبورهم المعجز كانوا يتسامرون كأنهم في نزهة أرضية:

وفي خبر آخر أثناء مسيرهم في دجلة كانوا يتحدثون كما كانوا يتحدثون وهم على الأرض(٢٥) فعجب أهل فارس بأمر لم

---

(٢٢) ماء وشل أي قليل وما فيه إلا وَشَل وأوشال وهو ما يتحلب من صخرة قليلاً قليلاً ومن المجاز ما أصاب إلا وَشَلاً من الدنيا وأوشالاً منها وإنه لوَشل الحظ أي ناقصه، **أساس البلاغة** للزمخشري، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية للكتاب.

(٢٣) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٢، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، الطبعة ١، ١٩٩٦.

(٢٤) أي نتأت أو ظهرت، وفي **مختار الصحاح** للرازي، القب: العظم الناتئ بين الإليتين.

(٢٥) تقول العامة في مصر عن مثل هذه الحالة (حاجة عادي خالص).

يكن في حسابهم فأجهضوهم وأعجلوهم عن جمهور أموالهم ودخلها المسلمون في صفر سنة عشر واستدلوا على كل ما في بيوت كسرى وما جمع شيرين ومن بعده[٢٦].

ونسلط الضوء على عُجُز الخبر وهو إجهاض الغازين العرب لأهل فارس عن كرائم أموالهم فاستدلوا عليها وعلى سائر ما في قصور كسرى وما جمعه شيرين ومن بعده من تحف وكنوز ــ ونهديه وأمثاله التي تبلغ مئات للذين ما زالوا يصدّقون ما قاله ربَعيّ من أنهم ما أتوا إلاّ لهدفٍ يتيم وهو إخراج أهل البلاد المغزوّة من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد!!!

ويتأكد الخبر برواية أخرى عن أبي عثمان النهدي:

وأخرج أبو نعيم عن أبي عثمان النهدي في قيام سعد في الناس ودعائهم العبور قال: طبقنا دجلة خيلاً ودواباً حتى ما يرى الماء من الشطين أحد فخرجت بنا خيلنا إليهم تقطر أعرافها لها صهيل فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء قال: وما ذهب إليهم في الماء إلا قدح كانت علاّقته رثّة فانقطعت فذهب به الماء وإذا به قد ضربته الرياح والأمواج حتى وقع إلى الشاطئ فأخذه صاحبه[٢٧].

هذا الخبر كسابقيه يؤكد تحويل السماء دجلة إلى نهير صغير شحيح الماء اجتازوه بسهولة ببركة دعاء سعد ومن معه، ويضيف

(٢٦) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، ص ٦٠١ تحقيق النشرتي ومن بعده المجلد الثاني، مصدر سابق.
(٢٧) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، تحقيق حمزة النشرتي ومن معه، المجلد الثاني، ص ٦٠١، طبعة ١٩٩٦، القاهرة.

إليه أعجوبة أخرى وهو أن أحدهم كان يعلّق في سرج حصانه قدحاً بعلاّقة رثة (مهترئة) فانقطعت فغرق في الماء بيد أن السماء أبت أن تكدّر خاطره بفقده فأمرت الرياح والأمواج بإخراجه ودفعه إليه وهو متربع على الشاطئ فمد يده الكريمة والتقطه أو ربما قفز القدح في حجره حتى لا يتكلف أي عناء ــ وهو نفسه ما تريده الشعوب الإسلامية أن تسوق السماء إليهم النصر على أعدائهم فيتناولونه وهم قابعون في منازلهم أليسوا هم خلفاء صاحب القدح المعجزة!!

ومن أبطال هذه الأحدوثات: سعد بن مالك أو سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وسلمان الفارسيّ.

وأخرج أحمد في (الزهد) والبيهقي في صحيحه عن سليمان بن المغيرة عن حمدان أن أبا مسلم الخولاني ــ جاء إلى الدجلة وهي ترمي بالخشب من يدها فمشى على الماء/ ولفظ أحمد: فوقف عليها ثم حمد الله وأثنى عليه ثم ذكر تسيير بني إسرائيل في البحر ثم نهر دابته فانطلقت تخوض به واتبعه الناس حتى قطعها والتفت إلى أصحابه وقال: هل تفقدون من متاعكم شيئاً حتى ندعو الله أن يرده[٢٨].

أبو مسلم أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي (ص) ولم يره وقدم المدينة حين قبض النبي (ص) واستخلف أبو بكر وهو معدود من كبار التابعين واسمه عبد الله بن ثوب ناسك، عابد، فاضل له كرامات وفضائل ومناقب[٢٩]. هذا الخبر أورده الإمام أحمد بن حنبل والبيهقي ثم نقله منهما السيوطي ــ الأمر الذي يبعد عنه تهمة الوضع أو مظنة الضعف ــ أي أن برئ من أي شك. والذي يشد

---

(٢٨) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٢ تحقيق حمزة النشرتي وآخرين طبعة ١٩٩٦، مصر.
(٢٩) هامش ص ٦٠٢، **وأسد الغابة** ج ٦.

الانتباه أن أبا مسلم الخولاني وهو على حافة نهر الدجلة ذكر تسخير الله لكليمه موسى البحر الأحمر ليعبره بنو إسرائيل آمنين ـ وفاته أن موسى رسول الله، وهو (الخولاني) لم يكن رسولاً ولا حتى صحابياً بل مجرد تابعي ـ ولكنها حُمّى إظهار قدرتهم الفذة على خرق الظواهر الطبيعية انتقلت إلى التلامذة التابعين فادعوها بل اشتطوا فيها حتى قارنوا أنفسهم بأنبياء الله ورسله!! وبدلاً من أن يُورى الصحاب وتابعوهم زناد تفكيرهم في الاهتداء إلى طريقة لعبور الأنهار بإقامة الكباري أو العبارات عليها إذا بهم يلجأون إلى الوسيلة الأسهل التي لا تدعو لبذل أي جهد ونعني تفويض السماء نيابة عنهم في إيجاد حل لهم لاجتيازها.

ونظراً لأن عقلية سلف الفرنجة مغايرة لعقلية سلفنا لذا خلّف الفرنجة لأحفادهم الصناعات والعلوم والتكنولوجيا بينما ترك لنا سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ هذه المخاريق والشعبذات التي لا زالت تملأ صفحات مئات الكتب التي تطبع وتنشر ونحن نطل على القرن الواحد والشعرين[٣٠].

وهذا صحابي آخر امتطى سفينة في وسط البحر وهو يخيط بعض الصحف فوقعت منه إبرته في اليمّ فدعا ربه فطفت فالتقطها كما فعل صاحب القدح المُعجب:

> عن عروة الأعمى ـ مولى ابن سعد قال: ركب أبو ريحانة البحر وكانت له صحف وكان يخيط فسقطت إبرته في البحر فقال عزمت عليك يا رب ألا رددت عليّ إبرتي فظهرت حتى أخذها[٣١].

(٣٠) **كرامات الصحابة (رض)** الذي نقلنا عنه بعض هذه الأحدوثات المعجبات ظهر هذا العام ١٩٩٦م.

(٣١) رواه إبراهيم عن الجنيد بسنده في كتاب **الأولياء** نقلاً عن كرامات **الصحابة (رض)** ص ١٢٣، مصدر سابق.

وهو أبو ريحانة الأنصاري ويقال الأزدي ويقال الدوسيّ ويقال مولى رسول الله (ص) اسمه شمعون أو سمعون[٣٢].

وقد أورد به ابن الأثير الجزري برواية مغايرة:

عن ضمرة عن ابن عطاء عن أبيه قال: ركب أبو ريحانة البحر فاشتد عليه فقال: اسكن إنما أنت عبد حبشي فسكن حتى صار كالزيت قال وسقطت إبرته فقال: أي رب عزمت عليك إما رددتها عليّ فظهرت حتى أخذها[٣٣].

ويضيف الجزري في هذه الرواية أمراً فاذّاً جديداً وهو أن أبا ريحانة يصدر أمره إلى البحر فيكف عن موره واضطرابه ويسكن ويستقر كالزيت في القنينة. ولا يفوتنا أن ننوه بما اتصف به هذا الصاحب من عصبية أو عنصرية إذ أنه يقرن العبودية بالحبشية (عبد حبشي) مع أن محمداً نهى عن العصبية.

ويضيء لنا ابن الأثير جانباً في أبي ريحانة وهو أنه كان يقصُّ بإيلياء/ البيت المقدس[٣٤] والقُصّاص هم الذين تولوا الوعظ في المساجد بقص حكايات الأولين في التقوى والورع والزهد وكانوا يستعينون بما لدى أهل الكتاب في هذه المجالات ويقال إن أقاصيصهم مكون أساسي لما سُمّيّ بـ (الإسرائيليات) التي اندست في بعض تفاسير القرآن وعدد من الأحاديث (ولفظ الإسرائيليات وإن كان بظاهره يُطلق على القصص الذي يُروى أصلاً عن مصادر يهودية ــ يستعمله علماء التفسير والحديث ويطلقونه على ما هو

---

(٣٢) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٤، ص ١٦٦١، مصدر سابق.
(٣٣) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، ص ٣٩٢، المجلد الثالث، مصدر سابق.
(٣٤) **أسد الغابة** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

أوسع وأشمل من القصص اليهودي)[٣٥]. وبذلك اكتملت صورة أبي ريحانة فهو ١ ــ أنصاري أي من مواطني أثرب ٢ ــ اسمه شمعون مما يقطع بارتباطه بصلة وثيقة بيهود وذكرنا فيما سلف أن كثيرين من اليثاربة العرب (بني قيلة) درجوا على أن يسترضعوا أولادهم ويُربّوهم لدى اليهود ويسموهم بأسمائهم ٣ ــ صاحب صحف يحرص عليها (كان يخطيها في المركب) ٤ ــ تولى القص أين؟ في إيلياء أو بيت المقدس أو البيت المقدس ــ ومن ثم فهو بطريق الحتم واللزوم اطّلع على كتب يهود (وكانت تتم لقاءات بين بعض المسلمين وبعض اليهود تدور فيها مناقشات ومجادلات وتقع فيها سؤالات واستفسارات ثم كان ما هو أهم من ذلك كله وهو دخول جماعات من علماء اليهود وأحبارهم وغيرهم ممن كانت لهم ثقافة يهودية واسعة وكانت لهم مكانة مرموقة بين المسلمين ومركز ملحوظ)[٣٦]. نحن لا ندّعي أن شمعون أو أبا ريحانة من علماء يهود وأحبارهم إنما نذهب إلى أن لديه قدراً من العلم بما في أسفارهم وقرأ ما فيها من أساطير ومخاريق فتأثر بها وترسبت في أعماق نفسه فتمنى أن يقع بعضها على يديه ويبدو أن إنصياع البحر له وسكونه وإخراجه الإبرة من أعمق أعماقه لم يكن العمل الفذ بل إنه مارس أفاعيل أخرى لأن ابن الأثير الجزري يصفه بأنّ (له كرامات)[٣٧] والخبر أتى إلينا من مصدرين أ، إبراهيم ابن

(٣٥) **الإسرائيليات في التفسير والحديث** د. محمد حسين الذهبي، ص ١٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مكتبة وهبة مصر.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٧.

(٣٧) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، الثالث، ص ٣٩٢، مصدر سابق. والخبر أتى إلينا من مصدرين:
أ ــ إبراهيم ابن الجُنيد في **كتاب الأولياء**.
ب ــ **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري.

الجُنيد في (كتاب الأولياء) ب، (أسد الغابة) لابن الأثير الجزري.

ثم ننتقل إلى نوع آخر من تعطيل قوانين الطبيعة وهو الإحراق الناجم عن النار. فمعلوم أن الإحراق أظهر خاصية للنار تصيب به من يلامسها أو حتى يقترب منها ولكنها في الخبر تتعطل ولا تعمل أثرها إذ يقوم الصحابي يطل الرواية فيحوش نار الحرة حتى يرجعها إلى مكمنها ويولجها البوابة التي مرقت منها. ولا يكتفي بذلك بل إنه يتابعها فيقتحم عليها معقلها ليستوثق من أنها استقرت أو استكنت في مستودعها ولن تتعداه مرة أخرى ويؤوب سالماً، ما يعيد إلى الذاكرة قصة إبراهيم الذي تنتسب إليه الديانات الثلاث: اليهودية/ المسيحية/ الإسلام.

روى البغوي عن معاوية بن حرمل وكان صهراً لمسيلمة وحضر معه حروب الردة ثم قدم على عمر بن الخطاب تائباً قال: قدمت على عمر فقلت: يا أمير المؤمنين، تائب من قبل أن يُقدر علي فقال: من أنت؟ فقلت: معاوية بن حرمل ختن مسيلمة قال: فاذهب فانزل على خير أهل المدينة أي من خيرها قال: نزلت على تميم الداري فبينما نحن نتحدث إذ خرجت نار بالحرّة فجاء عمر إلى تميم فقال يا تميم أخرج فقال: وما أنا؟ وما تخشى أن يبلغ من أمري؟ فصغّر نفسه ثم قام فحاشاها حتى أدخلها الباب الذي خرجت منه ثم اقتحم في أثرها ثم خرج فلم تضره.

وفي رواية لأبي نعيم في (الدلائل): كان يحوشها بيده هكذا قال له عمر: لمثل هذا كنا نخبئك يا أبا رقية ــ وكان عمر يقول: ليس من رأى كمن لم يره ــ[٣٨].

الواقعة رواها البغوي ــ وسطّرها ابن حجر العسقلاني في

---

(٣٨) **الإصابة في معرفة الصحابة** لابن حجر العسقلاني، والبيهقي وابن كثير في **البداية** نقلاً عن كتاب **كرامات الصحابة (رض)** لسعيد هارون عاشور، ص ٨٦، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، مكتبة الآداب، القاهرة.

(الإصابة في معرفة الصحابة) والبيهقي في (الدلائل) وابن كثير في (البداية) ومن ثم قد حازت رتبة التوثيق. أما صاحب الخبر فشخصية ملفتة للنظر لما له من جوانب غير عادية: فهو تميم بن أوس بن خارجة كان على دين عيسى بيد أنه أسلم متأخراً قبل وفاة محمد بعامين في سنة تسع عام الوفود الذي أقبلت فيه وفود القبائل تعلن طاعتها لمحمد بعد أن غدا سيد الجزيرة بلا مدافع وديّان العرب كما وصفه الأعشى الشاعر ــ وأقطعه محمد قرية عينون قرب بيت المقدس وكتب له كتاباً وهو أول من قصّ[٣٩]. وسبق أن سطرنا أن (الإسرائيليات) التي اندست في كتب التفسير والحديث لم تقتصر على حكايا بني إسرائيل بل شملت أحدوثات أتباع ابن مريم[٤٠] ــ وإنْ بدأت على أيدي القُصّاص ــ.

هذا هو تميم الداري ١، نصراني سابق ٢، أسلم عام الوفود وقبل وفاة محمد بأقل من عامين ٣، أقطعه محمد قرية عينون قرب بيت المقدس ٤، أول من بدأ أو أبدع القصّ وله حديث مشهور عن الجساسة والمسيح الدجال ٥، كان عمر يمنع الصحابة من النزوح عن أثرب فلما تولى عثمان تغاضى وسمح لهم بالسفر فهرول تميم نحو الشام الذي لا تقع فيه إيلياء أو (بيت المقدس).

فمثل هذا الصاحب لا مشاحة أن أساطير وشعبذات الكتاب المقدس بقسميه تعشعش في دماغه وأنه معجب بها وبمن وقعت على أيديهم المباركة فلم لا تنسب إليه واحدة مثلها بل أشدها قساوة وهي تحويل النار إلى برد وسلام ولا تضره شيئاً حين يتعقبها حتى يرجعها إلى عقر مستكنها ويقتحم مستقرها ومستودعها ثم

(٣٩) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد ١ ص ٢٥٦، مصدر سابق.
(٤٠) **الإسرائيليات في التفسير والحديث** د. محمد الذهبي، ص ١٥، مصدر سابق.

يطلع على الناس ليس عليه حتى أثر الدخان، ولما يبلغ الخبر مسامع عمر بن الخطاب يصدقه ويسارع إلى تهنئته ويقول له لمثل هذا كنا نخبئك[٤١] يا أبا رقية (ابنته) والمحادثة بالكنية دليل الإعزاز والمودة ــ وفي آخر الخبر الذي سطّره صاحب (الدلائل) ما يدل على أن ابن الخطاب شاهد تميماً وهو ينقّر النار بعضها على بعض ويعيدها إلى مخبئها ويلجها ثم يفارقها صحيحاً معافى وهو ما يستشف من عبارته (ليس من رأى كمن لم يره) فكيف كان ذلك؟.

هذا سؤال لم نستطع أن نهتدي إلى إجابته لأننا من قراءة سيرة عمر أدركنا أنه عقلاني ولعل حديثه عن تقبيل الحجر الأسود برهان على عقلانية متميزة.

* * *

السم على طول التاريخ وفي كل نواحي المعمورة يقتل أو يميت قد يكون بطيئاً أي مفعوله يأتي متراخياً ويكون سريعاً يجيء أثره على الفور وقد استعمله أحد الصحاب في التخلص من أعداء دولته وأسرته وسطرنا ذلك في السِفْر الثاني وإذ أنه تعوّد على دس السم في العسل ــ الذي كان يهيم به الأعاريب والعرب على السواء فبعد موت ضحيته كان يفرك يديه سروراً ويقول منتشياً أو ينتشي قائلاً (إن لله جنوداً من عسل) ــ حتى في مؤامراته الدنيئة يحاول أنْ يُدخل الله جل شأنه طرفاً فيها ليعطيها نوعاً من الشرعية والمشروعية أياً كان الأمر في شأنه فقد كان يدرك خاصية السم التي علمتها الإنسانية في كافة أقطار الأرض وعرفتها بالتجربة ورأتها رؤية العين بحيث تحولت من حقيقة علمية تجريبية إلى بديهية (من يتناول السم يتوفى) ــ ولكن فرداً واحداً كذّبها وجعلها خرافة لا تمت إلى العلم

(٤١) تقول العامة في مصر: «كما حايشينك للعوزة».

أو التجريب بأدنى صلة بل هي أكذوبة أطلقها مأفون فاســد العقل مختل التفكير ذلكم الفرد هو خالد بن الوليد الذي سوف نراه يتناول السم مرتين أمام العشرات وربما المئات والألوف من أجناده ولا يصيبه أي شيء:

أخرج أبو يعلى والبيهقي عن أبي السفر قال: نزل خالد بن الوليد الحيرة فقالوا له احذر السم لا يسقيكه الأعاجم فقال: ائتوني به فأخذه بيده ثم اقتحمه وقال: بسم الله فلم يضره شيء ــ وأخرجه أبو نعيم من أوجه أخرى أيضاً عن الكلبيّ قال لما أقبل خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر يريد الحيرة بعثوا إليه عبد المسيح ومعه سم ساعة فقال له خالد: هاته فأخذه في راحته ثم قال: بسم الله رب الأرض والسماء بسم الله الذي لا يضر مع اسمه داء ثم أكل منه فانصرف عبد المسيح إلى قومه فقال: يا قوم أكل سم ساعة فلم يضره صالحوهم فهذا أمر مصنوع لهم[٤٢].

حدث ذلك في الحيرة في بديّ غزو العراق في زمن الخليفة الأول والحيرة كانت لبني المنذر ثم خربت وبنى على ظهرها الكوفة ــ مستشارو خالد حذروه من أن الأعادي لهم باع طويل في علم السموم وقد يدسونه عليه في أي صورة فاستهزأ ابن الوليد بذلك التحذير وقال هاتوه تناوله وهم مشدوهون ولكن لم ينسَ قبل شربه أن يتمتم ببعض كلمات ــ

تلك كانت الرواية التي اختارها أبو يعلى والبيهقي ووافقهما عليها أبو نعيم ــ أما الرواية الأخرى والتي نقلها أبو نعيم أيضاً ولكن عن الكلبي ــ فموجزها أن العدو أرسل إليه عبد المسيح ويدل اسمه على أنه نصراني ومن البديهي أنه أخصائي في السموم ولا بد أن

(٤٢) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٢، تحقيق د. حمزة النشرتي وآخرين، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، مصر.

خالداً علم عن طريق عيونه ــ جواسيسه ــ أنه جاء ليدس السم له فأراحه ابن الوليد من عناء الحيلة وطلبه منه وأخذه من يده وهمس بتلك الكلمات وأكل منه ولم يضره وأسقط في يد عبد المسيح بعد أن بطُل مفعول السم الذي يعلم تمام العلم أنه لم يخب في أية مرة سابقة وهرع إلى قومه وقصّ عليهم الأحدوثة الطريفة ونصحهم بأن يصالحوهم (فهذا أمر مصنوع لهم) أي أن إنتصارهم أمر محتوم ولا سبيل لهزيمتهم ومن ثم لم يبق طريق سوى الصلح، والخبر أورده أبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم ونقله عنهم السيوطي[٤٣] ــ أي على درجة عالية من الصحة خاصة لدى أهل السنة والجماعة لأن هذه الأسماء تحظى بتقديرهم، ومؤلفاتهم من عيون التراث وتُحلِّي مكتبات المعاهد الدينية في شرق ووسط وغرب العالم الإسلامي جيدها بها، وبطل الأقصوصة أو الأقصوصتين هو خالد بن الوليد وهو من الذروة العالية من الصحاب وطالما تغنى به وبأمجاده المحدثون وألفوا الكتب في عبقريته.

* * *

ولم يكتف خالد بن الوليد بإبطال مفعول السم بمجرد الهمهمة بعدد من الكلمات بل إنه استطاع أن يحوّل الخمر إلى خَلٍ:

أخرج ابن سعد عن محارب بن دثار قال: قيل لخالد بن الوليد إن في معسكرك من يشرب الخمر فجال في المعسكر فلقي مع رجل زق خمر فقال: ما هذا؟ قال: خل فقال خالد اللهم اجعله خلاً ففتحه الرجل فإذا

(٤٣) كان من أعلم أهل زمانه (أواسط القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين) بالحديث ويقول عن كتابه **الخصائص الكبرى**: ونزهته عن الأخبار الموضوعة وما يُردّ وشرح المحقق عبارة ما يرد أي ما يرده علماء الحديث من أخبار لعدم صحتها، **الخصائص الكبرى** المجلد الأول، ص ٢٠ وهامشها.

هو خل فقال هذه دعوة خالد[٤٤]. فنزل خالد بالنجف وبعث إليهم أن ابعثوا رجلاً من عقلائكم ــ فبعثوا إليه عبد المسيح بن قيس بن حيان بن بقيلة الغساني، وبقيلة هو الذي بنى القصر الأبيض... وكان مشهوراً في العرب بصحة العقل وطول العمر... قال: ومعه سم ساعة يقلبه في يديه فقال له خالد: ما هذا معك؟ قال: سم ساعة فإن يكن عندك ما يسر به ويوافق أهل بلدي قبلته وحمدت الله عليه وإن يكن الأخرى لم أكن أول من ساق إلى بلده ذلاً فآكل اسم وأستريح ــ قال له خالد: هاته وأخذه ووضعه في راحتيه ثم قال: بسم الله بسم رب الأرض ورب السماء بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم ثم اشترطه فلحقته غشية ثم سرى عنه وأفاق كأنما نشط من عقال فانصرف (عبد المسيح) إلى قومه فأخبرهم بما رأى وقال: يا قوم صالحوه فإن القوم مصنوع لهم وأمرهم مقبل وأمر بني ساسان مدبر وسيكون لهذه الأمة شأن[٤٥].

الخبر رواه ابن سعد (في الطبقات) وهو من الموسوعات التي تنال بالغ التقدير ثم نقله إلينا السيوطي في (الخصائص) ــ إذن هو خبر موثوق فيه ــ هنا نرى أنه وصل إلى علم القائد المظفر خالد أن أحد جنوده يشرب الخندريس وهذا العمل فضلاً عن أنه (أم الكبائر) فإنه يشكّل خطيئة عسكرية فادحة لأن الجندي الخِمّير السِكّير لا فائدة منه وضره أضعاف نفعه بل لا نفع فيه البتة.

فسارع خالد يفتش جنوده فوجد مع أحدهم زق خمر فسأله عنه فارتبك وخشى من العقاب الصارم فأجاب: إنه خل، ولما كان

(٤٤) **الخصائص الكبرى** للسيوطي، المجلد ٢، ص ٦٠٣، تحقيق د. حمزة النشرتي وآخرين، الطبعة الأولى ١٩٩٦، مصر.

(٤٥) كتاب **المسالك والممالك** لأبي عبيد البكري تحقيق وتقديم وفهرسة أوريان فان ليوقن وأندري فيري، الجزء الأول، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧، طبعة ١٩٩٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة)، وزارة الثقافة، تونس.

خالد كأي قائد محنك حريص على جنوده وعدم عقابهم والتشهير بهم والتستر عليهم فقد دعا السماء أن يكون كذلك وفعلاً استجابت وحوّلت الخمر خلاً فلما فتحه صاحبه وجده خلاً واندهش وقال: هذه دعوة خالد ــ وهكذا تستجيب السماء لخالد في المرتين:

في الأولى: تصرف عنه أثر السم.

وفي الأخرى: تحوّل الخمر خلاً.

ولقد قرأنا في أساطيل الأولين ومخاريقهم أن الماء يتحوّل على أيدي بعض شخصياتهم المباركة إلى شمول صرف معتق ــ ومن ثم فيكون تبدل الخمر إلى خلٍ على يد ابن الوليد أكثر معقولية وأقرب إلى المنطق خاصة وأنه كان يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا!!!

* * *

قبل أن يخترع الفرنجة وسائل الإتصال عن بعد بضروبها وأنواعها كافة والتي ما زالت تتطور بشكل مذهل نتيجة لإيمانهم بحاكمية العقل وحده ولدأبهم وجهودهم المستمرة التي لا تكلّ ولا تملّ ولا تعرف اليأس والقنوط، عرف سلفنا الإتصال عن بعد إنما عن طريق الإلهام والإلقاء الغيبي على اللسان والوقوع في الخلد والحدس الخ...

عن سارية بن زنيم (رض) أنه كان خليعاً في الجاهلية ــ أي لصاً كثير الغارة وأنه كان يسبق الفرس عدواً على رجليه ثم أسلم وحسن إسلامه وأمّره عمر على جيش وسيّره إلى فارس سنة ثلاثة وعشرين فوقع في خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم في بطن وادٍ وقد همّوا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال في أثناء الخطبة: يا

سارية الجبل... الجبل ورفع صوته فألقاه في سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل وقاتلوا العدو من جانب واحد ففتح الله عليهم[٤٦] ــ وروى البيهقي وغيره عن نافع عن ابن عمر (رض) نحوه: يا سارية الجبل ــ ثلاثاً ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال: يا أمير المؤمنين هُزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي: يا سارية الجبل ــ ثلاثاً فأسندنا ظهرنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى قال: ويل لعمرٍ: إنك كنت تصيح بذلك. قال ابن حجر العسقلاني وهكذا ذكره حرملة في جمعه لحديث ابن وهب وهو إسناد حسن.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر عن أبيه (رض) أنه كان يخطب يوم الجمعة فعرض في خطبته أن قال: يا سارية الجبل من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم إلى بعض فقال لهم عليّ: لِيَخرجنّ مما قال فلما فرغ سألوه فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل فإن عركوا إليه قاتلوا من وجه واحد وإن جاوزوا هلكوا فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه. قال فجاء البشير بعد شهر وذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم قال: فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علينا ــ وقد حسّنه ابن كثير والحافظ ابن حجر وفي رواية:

قال عليّ: دعوا عمر فإنه ما دخل في شيء إلا خرج منه وأن عمر قال: إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يُؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم والله ما ألقيت إلا بشيء أُلقي على لساني وقد صحت القصة عند ابن تيمية ــ وسارية كان بنهاوند من بلاد فارس ــ وقال خليفة: افتتح سارية أصبهان[٤٧].

عمر بن الخطاب في أثرب/ المدينة واقفاً على المنبر يخطب فيطوف به إلهام أو خاطر أن أحد قواده الأشاوس الذين بعثهم

(٤٦) **الإصابة** ٣/ ٥.
(٤٧) **الإصابة** لابن حجر العسقلاني، ٣/ ٥ نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)**، ص ١٠٨، مصدر سابق.

ليخرجوا أهل البلاد المغزوة من الظلمات إلى النور (مع أنهم لم يشتكوا لهم) فإذا بأولئك المغاوير لا همّ لهم إلا نزح الأموال وسبيّ النسوان والتسري بالأبكار ــ أحد قواده أولئك وقع في محنة وأوشك على الهزيمة هو وجنوده ــ وهم في أصفهان من بلاد فارس على بعد مئات الأميال، ورغم ذلك يزعق ابن الخطاب (يا سارية الجبل) وبقدرة قادر على كل شيء يسمع ابن زنيم (القائد المأزوم) صيحة الخليفة فينحاز إلى الجبل وبعدها جاء النصر المؤزر والفتح المبين!!!

وللخبر رواية أخرى نقلها إلينا السيوطي في (الخصائص) عن ابن سعد في (الطبقات):

وأخرج ابن سعد عن نافع مولى ابن عمر وزيد أسلم أن عمر بن الخطاب قال على المنبر: يا سارية الجبل ظلم من استرعى الذئب الغنم ثم خطب حتى فرغ لم يدر الناس أي شيء يقول حتى قدم سارية على عمر فقال: يا أمير المؤمنين كنا محاصري العدو ونحن في خفض الأرض وهم في حصن عالٍ فسمعت صائحاً يوم الجمعة لساعة كذا وكذا لتلك الساعة التي تكلم فيها عمر ينادي: يا سارية بن زنيم الجبل فعلوت بأصحابي الجبل فما كانت إلاّ ساعة حتى فتح الله تعالى علينا فقيل لعمر: ما ذلك الكلام؟ والله ما ألقيت له بالاً شيء أتى على لساني[٤٨]. وهي وإن جاءت أكثر إيجازاً من الأولى إلاّ أنها حملت العناصر الجوهرية ــ واشترك فيها (الرواية) كل من عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ومولاه نافع ــ وأخرجه في صورتيه ابن سعد (في الطبقات) والبيهقي وذكره حرملة في جمعه الحديث ابن وهب بإسناده حسن بشهادة صيرفي الحديث ابن حجر العسقلاني ــ وحسّنه الحافظ ابن كثير ونقله إلينا ابن حجر في (الإصابة) والسيوطي في (الخصائص).

(٤٨) **الخصائص الكبرى**، للسيوطي، المجلد الثاني، ص ٦٠٧، مصدر سابق.

وأخيراً فإن القصة قد صحت عن شيخ الإسلام ابن تيمية مع ما هو معروف عنه من حملته الشعواء على خوارق العادات ونقض الظواهر الطبيعية ما أثار صوفية زمانه عليه وكانوا من أعنف الطوائف التي سخطت عليه لأنه هاجمها جميعاً ولم يترك فقهاء ولا فلاسفة ولا متكلمين... نخلص من سائره إلى أن الأحدوثة اللطيفة لا شائبة تحوم حولها بعد أن روتها وحسّنتها وصححتها وأتحفتنا بها هذه الكوكبة اللامعة في سماء الفكر الإسلامي ــ ولنمعن النظر فيما حكاه عمر بن الخطاب عن هذه الواقعة:

(فوقع في خاطر عمر) ــ (وقع في خلدي) ــ (والله ما ملكت ذلك) ــ (بشيء ألقي على لساني) ــ (شيء أتى على لساني) وهي عبارات تنم عن ضبابية وغبش وعتمة وعشوائية ورجرجة... أي عدم انضباط وافتقار إلى التحديد ــ فهذا الشيء الذي لا نعرف كنهه لأن ابن الخطاب لم يفصح لنا عن هويته مرة وقع في خاطره وأخرى في خلده وثالثة على لسانه ورابعة لم يملكه... أثمة فارق بين الخلد والخاطر؟ نعم: أما الخاطر فهو ما يتحرك في القلب من رأي ومعنى[٤٩] في حين أن الخلد (البال والنفس)[٥٠] أذلك (الشيء) الغامض المبهم الذي نجهل كينونته ألقى في نفس عمر أو في قلبه مع ملاحظة أنهم كانوا يستعملون القلب ويقصدون ما نعني به العقل حالياً وبتعبير أوضح هل عقلي أم نفسي؟

ومن أو ما الذي طرحه على عمر أم أنه نبع من داخله لأنه بات مهموماً بأمر جيش سارية؟

ومن أو ما الذي أعلم ابن الخطاب بموقع الجبل وأفهمه أنه

(٤٩) **أساس البلاغة** للزمخشري.
(٥٠) **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

المنجاة لابن زنيم وأجناده وليس في سيرة عمر ما يدل على أنه زار فارس وأصبهان؟

وفي العبارة الأخيرة صرح عمر بأنه (شيء أتى على لساني)!!!

فهل أتى على لسانه دون أن يمر بقلبه أي عقله أو على نفسه أي وجدانه؟

وإذا قرأنا الفعل مبيناً المجهول (أُتي)!!! فمن أو ما هو هذا الآتي؟

وتذكرنا كلمة الإتيان بصيغتيها (البناء للمعلوم والبناء للمجهول) بأسطورة حفر بئر زمزم وأن آتياً أتى عبد المطلب جد محمد (قائد الثورة العظيمة) ثلاث مرات وحدد له مكانها ولو أن أسطورة عبد المطلب أشد قابلية وتصديقاً لأن (آتيه) طفق يزوره في المنام، أما ابن الخطاب فقد أتاه آتيه وهو يقظان بل وأمام عشرات وربما مئات المصلّين (عمر كان يخطب الجمعة)!

ويضيف عمر في الخبر الأول (رأيتهم يقاتلون عند جبل)!!! ولم يجرؤ أحد الصحاب أو التابعين الذين سمعوا ابن الخطاب يحكي ذلك أن يسأله:

كيف يا أمير المؤمنين وأنت في أثرب/ المدينة ترى جبلاً مستقراً في أصفهان؟ هل حُمل إليك ووضع أمامك فأرشدت ابن زنيم إلى مكمن النجاة؟ وإذا حدث ذلك فعلاً فلماذا لم نره أيضاً مثلك؟

وكيف ينتقل نداؤك من يثرب إلى فارس وبينهما مئات الأميال حتى يسمعه سارية وعسكره وعهدنا بالأصوات أنها تذوي بعد مسافة معينة؟

لماذا أطلنا تحليل هذه النازلة أكثر من غيرها؟

وجوابنا: أنه منذ قديم انبرى من يتصدى لتبرير أي فعل يصدر من الصحاب ويسوّغ لهم أي تصرف حتى لو دخلوا جحر ضب ويعقلن أي أسطورة يقصّها أحدهم إما منفرداً وإما معه بطانة أو سنيدة[٥١] ويجهد جهده في تقديم الحجج والبراهين عليها وفي تعقيلها (جعلها معقولة أو عقلانية) ولا بأس من التمسح برداء العلم واستخدام مصطلحاته ــ وهذا ما أقدم عليه أ. عباس العقاد في خصوصية هذه الواقعة (يا سارية الجبل) ــ فعوضاً عن أن يقطع بعدم معقوليتها وأنها أسطورة تأثر عمر ومن شارك معه في صنعها بأي طريق سواء بالرواية أو ادعاء سماع الصيحة الخ...

تأثروا فيها بموجبات عصرهم والأنساق الفكرية السائدة بينهم وبأن من الجائز لديهم إتيانهم الخوارق ومقابلة كائنات غير منظورة ومخاطبتها الخ... وأن ذلك جزء رئيسي من ثقافتهم... وأنهم بمجرد أن اختلطوا بالشعوب المغزوّة وعاينوا حضارتها واطلعوا على ثقافاتها كفوا عن ترديد هذه الأساطير حتى التابعين الذين ساهم أكابرهم في حكيها تأثراً بالصحب عدلوا عن قصها بل وطفقوا ينكرونها مثل رؤساء المعتزلة ومن على شاكلتهم الخ... ــ بدلاً من أن يفعل الأستاذ العقاد ذلك إذا به يبرر أسطورة (سارية) ويحاول أن يضفي عليها تسويغاً عقلانياً بل ويقدم تفسيراً علموياً بأن يصفها بأنها (التلباثي).

ولا داعي للجزم بنفي هذه القصة استناداً إلى العقل أو إلى العلم أو التجربة الشائعة، فإن العقل لا يمنعها والعلماء النفسانيون في عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفي أمثالها بل منهم من مارسوا التلباثي وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين ــ إلا أن المهم من نقل هذه

(٥١) ج سنيد وهو المساعد والمعين والمؤازر وفي **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، السنيد: معتمد الإنسان.

القصة أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد...[٥٢].

وقيل أن ترد على العقاد فيما إذا كانت هذه (الأحدوثة) تلج باب التليباثي أم لا نورد بضع ملاحظات على ما سطره يراع الكاتب الكبير في الفقرة المذكورة:

يقول (أن العقل لا يمنعها) والسؤال: كيف يجيز العقل حكاية سماع صيحة على بعد مئات الأميال (ولم تكن وسائط النقل الحديثة قد اخترعت) كذلك يقرر أن التجربة الشائعة لا تمنعها!

فأي تجربة شائعة أو حتى غير شائعة أثبتت سماع الهيعة البعيدة بعداً سحيقاً ولماذا لم يذكر لنا العقاد تجربة واحدة دلت عليه!

أبهذه الخفة يُمتهن العلم والتجريب؟ والعقاد الذي افتتح مسيرته الفكرية يمجّد العقل ويتغنّى به. واستمر هكذا إلى ما يقرب من ثلثي حياته إذا به بعد أن يهم صوب (الإسلاميات) يتحوّل إلى درويش يؤيد الحدس والظن الصادق والفراسة والرؤية والنظر البعيد ويجزم في يقين أن ابن الخطاب قد اشتهر بين معاصريه بـ (مكاشفة الأسرار الغيبية) فلا يؤوده القيام بتلك الأحدوثة المعجبة!

ورغم أن الإسلام لا توجد فيه أسرار وإنما اختصت بها ديانة إبراهيمية أخرى ــ فإن قناعة معاصري عمر باشتهاره بذلك شيء ونقل العقاد له أو حكايته عنهم كحقيقة مؤكدة واتخاذه برهاناً على صدق وقوع النازلة شيء آخر. فليقل مخالطو ابن الخطاب ما يقولون وليعتقدوا ما يشاؤون ولكن أن يجاريهم الكاتب الكبير بأن هناك أسراراً غيبية تعلو على أفهام البشر وعقولهم ومداركهم وأن

(٥٢) **عبقرية عمر** لعباس محمود العقاد، ص ٢٢، د. ت. ن. دار الهلال، بمصر.

عمراً ممن كوشف بها أو ممن كاشفها، فهذا هو مبعث الدهش وما يدعو للتأمل ويقطع بأن عباساً دخل منعطفاً فكرياً حاداً وهو يجتاز الثلث الأخير من عمره الفكري، إنما يندّ عن مسار بحثنا تناول البواعث والدوافع التي زحّته[٥٣] عن التفكير العقلاني!!!

أما أن الأسطورة (يا سارية الجبل) تعتبر (تليباثي) فهذا ما نخالف العقاد فيه فـ (التليباثي) هو (تلاقي الخواطر والوجدانات لدى شخصين برغم ما بينهما من مسافة وذلك بوسائل لا تمت إلى الحواس بصلة)[٥٤] وقد ترجم د. يوسف مراد الكلمة إلى: تخاطر[٥٥].

وعلى هدى هذه التعريفات والتعريبات لكلمة تليباثي فلا يوجد في الأقصوصة المسلية توارد خواطر (تخاطر) بين ابن الخطاب وابن زنيم أي لم يتفق خاطراهما على أن النجاة تتمثل في الالتجاء للجبل، لأن ابن زنيم لم يكن يعرف عن الجبل شيئاً فأين هو التخاطر أو التليباثي؟

ولم يتضمن واحد من تلك التعريفات والتعريبات أن أحد المتخاطرين يخاطب الآخر جهرة على بعد بعيد فيسمع صوته بل إن ما كتب عن (التليباثي) يشي بأن توارد الخاطر بين شخصين

(٥٣) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، زحه: نحاه عن موضعه.

(٥٤) **المعجم الفلسفي** لمجمع اللغة العربية، ص ٥٦، الفقرة ٣٣٨، الطبعة ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

(٥٥) **مبادئ علم النفس العام** د. يوسف مراد ص ٤٠٣، الطبعة ٣، ١٩٥٧، دار المعارف، مصر. وذهب إسماعيل مظهر إلى تعريبها بالتخاطر أو تلاقي الخواطر: **قاموس النهضة**، إسماعيل مظهر طبعة ١٩٤٥م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، أو هي الاتصال المفترض بين العقول ببعض طرق الاتصال المغايرة للحواس، **قاموس وبستر العالمي الجديد**، الطبعة الثانية.

(بعيدين) إنما يتم في الكتمان لا علانية. ولم يدّع أحد قبل العقاد أن التخاطر يجري بين شخص وبين مئات أو عشرات الأشخاص (فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً الخ...) أي أن نداء ابن الخطاب لم يسمعه سارية وحده بل طرق آذان عسكره الذين يُعدّون بالمئات (على الأقل) فكيف يسمى تخاطراً ما جرى من فرد لهذا الجمع الوفير من الناس؟ وبذلك يثبت أن محاولة الكاتب الكبير وصف أسطورة (يا سارية الجبل) بالـ (التليباثي) ضرب شرود من التحمل لا يليق بمن هو في قامة الكاتب العملاق.

* * *

وإذا كان عمر بن الخطاب قال إنه أُلقي على لسانه أو في خاطره أو خلده أي لم يكن عامداً متعمداً، فإن صحابياً آخر كان يقصد قصداً وهو في عسقلان (شمال غزة) إلى أن ينادي ابنه المأمور في بلاد الروم (تركيا حالياً) أن وقت الصلاة قد حان فيسمعه ذلك الابن ويجيبه:

> عن عزة بنت عامر بن أبي قرصافة قالت: أسرت الروم ابناً لأبي قرصافة فكان أبو قرصافة إذ حضر وقت الصلاة صعد سور عسقلان (مدينة تاريخية على ساحل البحر المتوسط شمال مدينة غزة الحالية) ونادى: يا فلان الصلاة فيسمعه وهو في بلاد الروم ــ وفي رواية أخرى: وكان أبو قرصافة إذا أصبح في السحر بعسقلان نادى بأعلى صوته يا قرصافة الصلاة فيقول قرصافة من بلاد الروم: يا أبتاه فيقول أصحابه ويحك لمن تنادي؟ فيقول لأبي ورب الكعبة يوقظني للصلاة[٥٦].

وأبو قرصافة هو جندرة بن خيشنة الكناني من الصحابة سكن

---

(٥٦) رواه الطبراني بإسناد رجاله ثقات، كما قال الحافظ الهيثمي، والأخرى للحافظ أبي عبد الله الضياء المقدسي في **المختارة**. نقلاً عن كتاب **كرامات الصحابة (رض)** ص ١٠٨، مصدر سابق.

فلسطين وقيل تهامة وأهداه محمد بُرنساً وكان الناس يأتونه فيدعو لهم ويبارك عليهم فتُعرف البركة فيهم. ويضيف عز الدين بن الأثير الجزري (أنه له أحاديث مخرجها من الشاميين)[٥٧] ما يرجّح نزوله الشام وأنه من عداد الصحاب الشاميين الأمر الذي يزيد من تأكيد الخبر الذي رواه الطبراني ووثق رجاله (رواته) الحافظ الهيثمي كذا رواه الضياء المقدسي في المختارة ــ إذن هو صحيح علمنا أن صوت جندرة أو أبي قرصافة ينتقل من عسقلان بالشام إلى تركيا فيسمعه ابنه قرصافة ويلبّي ولا يسمعه سواه من الأسرى الموجودين معه في المحبس عينه ــ وبداهة أن هذا الفعل من جانب الأب والابن لا يعد من التليباثي لأن التليباثي عنصر القصد فيه مفقود كذلك عنصر العلانية أو الإشهار إنما يجري في الكتمان فضلاً عن أن عنصر التكرار يهدمه من أركانه في حين أننا قرأنا أن أبا قرصافة درج على مخاطبة ابنه كل يوم في السحر.

وحتى نقطع السبيل على المتحمسين بالعلم نقول إن التليباثي ليس علماً إنما هو اجتهاد من بعض علماء النفس (السيكولوجي) لتفسير بعض الظواهر النفسية.

* * *

إذن يبين من الأخبار والوقائع المتقدمة أن عدداً كبيراً من الصحاب من بينهم أعلام ومشاهير أيقن في قرارة نفسه بوجود كائنات غريبة لا مرئية وأنه حادثها وتعامل معها بشتى ضروب المعاملات من البعال[٥٨] حتى القتل مروراً بالمصارعة.

---

(٥٧) **أسد الغابة**، المجلد الأول ص ٣٦٤.

(٥٨) **البعال**: ملاعبة المرء أهله، **مختصر العين**، الجزء الأول، ص ٣٦٣، أبو بكر الزبيدي الإشبيلي تحقيق وتقديم د. صلاح مهدي الفرطوسي، الطبعة ١، ١٩٩١، سلسلة خزانة التراث، دار آفاق عربية، بغداد.

كما يؤمن بقدرته على خرق الظواهر الطبيعية مثل عبور الأنهار العميقة والخوض في لججها دون أن تبتل سوى أسافل حوافر الأحصنة أو أخفاف الإبل التي كانوا يمتطونها ومقاومة النار بأيديهم العارية وحبسها في معقلها والدخول عليها في مستقرها والخروج منه بغير أذى وشرب السم الناقع بلا أدنى ضرر وإنزال الأمطار سواء لفرد أو لنفر معدود أو لسكان قرية أو مدينة بمجرد رفع الأيدي إلى السماء والهمهمة ببضع عبارات وفي أحيان يشترط حضور شخص مبروك... وانتقال صيحاتهم مئات الأميال يسمعها فرد بعينه أو عشرات وربما مئات الأشخاص.

ولكن ما هي علة إيمان الصحبة بهذه الخوارق؟

قبل أن نقدّم الإجابة عن هذا السؤال نبادر فنؤكد أن أياً من الصحاب أو الصواحب الذين وردت أسماؤهم في الأخبار السوابق كان يدّعي أو يتظاهر بأي عمل أو قول مما تضمنته، بل إنه كان يقصّها أو يفعلها وهو مؤمن بصدقها ولو طلبت منه آنذاك أن يحلف بالله أنه قابل غولاً أو صارع شيطاناً أو قتل جنّياً الخ... أو أنزل له رشاء من السماء في آخره دلو به ماء عذب فُرات شرب منه فارتوى طوال حياته أو أنه خاض دجلة بفرسه دون أن يبتل خلا باطن حافره أو أن سحابة (تفصيل) كانت تظلّه وحده في الهواجر أو أنه عاين سرية توشك على الإندحار وهي بعيدة عنه مئات الأميال أو أنه حاش النار بيديه حتى أدخلها دارها الخ... لأقسم لك على ذلك بأغلظ الأيمان وهو في هذا صادق صدقاً لا شائبة فيه ــ وهي حالات يعرفها علم النفس ــ

فنحن لا نشك أنهم ينقلون إلينا تلك النوازل أو يفعلونها كانوا

صادقين تماماً وعلى قناعة تامة بحدوثها، بعدها نؤوب إلى السؤال باذلين جهداً قدر الطاقة للإجابة عنه:

يأتي في مقدم علل ركائز إيمان الصحبة بذلك أنهم عاشوا في القرون الوسطى المتقدمة، فعقب إنطفاء أنوار الحضارات العظيمة ـــ المصرية القديمة والأشورية والبابلية والفينيقية واليونانية حاولت الحضارة الرومانية والبيزنطية استعادة لو شطراً من تلك الأنوار ثم غرق العالم المعمور في غياهب القرون الوسطى، ـــ هذه واحدة ـــ والأخرى أن منطقة الحجاز حصراً وتحديداً (المنطقة الغربية) من المواقع القليلة التي طوّقت حولها المدينة ولكن أبداً لم تنفذ إليها ـــ أما الثالثة فإن الصحاب وقد خالطوا أهل الكتاب أتباع العقيدتين الإبراهيميتين اللتين سبقتا الديانة الإسلامية وسمعوا منهم وقرأوا كتبهم (من بين الذين قرأوا ممن وردت أسماؤهم في الأخبار السوابق: عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وتميم الداريّ) وفيها أساطير متراكمة تحكى أن أنصار موسى وعيسى وعلى الأخص تلاميذهم المقربين وحواريهم جرت على أيديهم المباركة القدسانية خوارق كونية وطبيعية عديدة فترسَّب في نفوسهم (الصحاب) أن تلك سمة (خرق الظواهر كونية أو طبيعية) وخصيصاً ملازمة لتلاميذ الأنبياء وحواري الرسل وإذ أنهم خلاصة أصحاب محمد وزبدة المؤمنين به وأنه أعلى قدراً من موسى وعيسى فمن ثم فهم أرفع مكانةً من أولئك فلم لا تكون لهم إذن خوارقهم الفاذّة وأحدوثاتهم المعجبة وحكاياتهم المدهشة وأقصاصيهم الغريبة؟؟؟

مع الحيوان

هذه فاصلة نخصصها لمستوى أدنى في خرق الصحاب للظواهر الطبيعية هو التعامل مع الحيوان فمنهم من خاطبهم فردّ عليهم بلسان عربي فصيح ومنهم من عرك أذن هزبر مفترس وأمره فانصاع ومنهم من طلب من غضنفر قسورة أن يدلّه على الطريق الذي أضله فلبّى طائعاً وأخيراً: ثور يغدو عيناً أي جاسوساً فيدلّ الصحبة على البقر والغنم التي خبأها عنهم راعيها:

روى ابن عساكر عن وهب بن أبان القرشي عن ابن عمر (رض) أنه خرج في سفر فبينما هو يسير إذا قوم وقوف فقال: ما بال هؤلاء؟ قالوا: أسد على الطريق قد أخافهم فنزل على دابته ثم مشى إليه حتى أخذ بأذنه فعركها ثم نفذ قفاه ونحّاه عن الطريق[٥٩]. إذا كان عمر فيما رأينا سابقاً صارع الجن فصرعه فإن أكبر أبنائه عبد الله أبدى شجاعة لا تقل عنه إذ تصدى لليث هصور كان يقطع الطريق فلما علم ابن عمر بأمره ترجّل عن ركوبته وسعى إليه وتناول أذنه فعركها كما يفعل المدرس بالتلميذ البليد ثم أمسكه من قفاه ونحّاه عن الطريق فاستسلم ذليلاً وتنحى وسار القوم آمنين.

عن محمد بن المنكدر أن سفينة (رض) مولى رسول الله (ص) قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد فأقبل إليّ يريدني فقلت: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله (ص) فطأطأ رأسه وأقبل إليّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به ــ رواه الحاكم في (المستدرك) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه ووافقه الذهبي.

وعند البزاز: فقلت أنا سفينة صاحب رسول الله وقد أضللنا الطريق

---

(٥٩) نقلاً عن كتاب **كرامات الصحابة (رض)** ص ١١٣، مصدر سابق.

فمشى بين يديّ حتى وقفنا على الطريق ثم تنحى ودفعني كأنه يوريني الطريق فظننت أنه يودعنا[٦٠].

والخبر رواه الحاكم في (المستدرك) وجزم أنه صحيح على شرط مسلم ومن ثم فلا سبيل للطعن فيه. هذا خادم ثالث لمحمد وأحد مواليه وخوله يطلع علينا بأحدوثتين لطيفتين وقعتا له: أولاهما أنه ركب لوحاً من السفينة التي كانت تقله فانكسرت ــ حتى وصل إلى الشاطئ أمام أجمة أسد ما إن رآه حتى هرول إليه يبغي إفتراسه بيد أن الصاحب عرّفه بنفسه وموقعه من قائد الثورة (فطأطأ رأسه) وأخرجه من الأجمة ووضعه على الطريق ولم يكتفش بذلك بل ودعه وداعاً جميلاً!!!

بكر من الشداخ الليثي كان ممن يخدم النبي (ص) وهو غلام وهو فارس واسم فرسه أطلال... استعمله سعد بن أبي وقاص على قومه حين دخلوا العراق فلما أرادوا أن يخوضوا دجلة تهيّب الناس دخول الماء فقال ابن الشداخ لأطلال (فرسه) ثبى أطلال فقالت: وثباً وسورة البقرة[٦١].

وهذا خادم رابع لمحمد يكرر لنا خوض نهر دجلة دون غرق إنما يضع بجانبها معجبة إضافية هي أنه عندما وصل ومن معه إلى حافة النهر تهيبوا عبوره لأنهم يعلموه القانون الطبيعي وهو الغرق في الماء العميق فخاطب فرسه (أطلال) اقفزي ولا تراعي فالظواهر الطبيعية مطيعة لنا ومأمورة بتعطيل سننها إكراماً لنا الخ... فردت عليه: وثباً وسورة البقرة.

والخبر على درجة عالية من التوثيق فقد جاء في ثلاثة مصادر: (فتوح) سيف بن عمر و(تاريخ الطبري) و(إصابة) ابن حجر الذي

(٦٠) نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١١٢، مصدر سابق.
(٦١) ذكر القصة سيف بن عمر في الفتوح والطبراني، في تاريخه (٣/ ٥٦٥) وابن حجر في **الإصابة** (١/ ٣٢٥) نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١١٤.

سطرنا في أكثر من موضع أنه من علماء الحديث ويستحيل عليه أن يورد في واحد من أميز كتبه حديثاً موضوعاً أو معلولاً أو ضعيفاً.

والحق أنني عندما طالعت الخبر تألمت لأن بكر بن الشداخ زج بسورة البقرة في أعجوبته وكان حريّاً به أن ينأى عن هذا المجال المدهش إذ أنها سنام القرآن وأطول سورة فيه وأول سورة بعد فاتحة الكتاب. ألم يفكر ابن الشداخ الليثي أن من يسمعه أو يقرأ خبره فيما بعد لا بد أن يتساءل أنّى لفرسه (أطلال) هذا القدر الوفير من الفقه لتدرك مكانة سورة البقرة؟

بعث سعد بن أبي وقاص إلى أسفل الفرات عاصم بن عمرو فسار حتى أتى ميسان فطلب غنماً وبقراً فلم يقدر عليها وتحصن منه في الأفدان ووغلوا في الآجام ووغل حتى أصاب رجلاً على طف أجمة فسأله واستدله على البقر والغنم فحلف له وقال: لا أعلم وإذا هو راعي ما في تلك الأجمة فصاح منها ثور كذب والله ها نحن أولاء فدخل واستاق الثيران وأتى بها العسكر فقسم ذلك سعد على الناس فاخصبوا أياماً[٦٢].

مصدر الخبر هو الطبري في تاريخه والطبري شامخة في فضاء الفكر الإسلامي فهو مؤرخ ثبت وتاريخه من أصح كتب التاريخ وله مؤلف في التفسير يحتل مقاماً محموداً بين سائر التفاسير، بل إن بعض العلماء يقدمه على غيره. وأخيراً فقد كان فقيهاً متميزاً بل صاحب مذهب فقهي بيد أنه لم يجد تلاميذ يقومون به وينشرونه مثل أبي حنيفة ومالك وغيرهما ــ إذن هذا الخبر يُطمأن إلى صحته.

نأتي بعده إلى التعريف بصاحب الأحدوثة المسلية:

ذكر ابن عبد البر إثنين من الصحبة يسميان (عاصم بن عمرو)

(٦٢) الطبري في **تاريخه الأمم والملوك** ٣/ ٤٩٣، نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١١٤، مصدر سابق.

أحدهما تميمي أخو القعقاع بن عمر ويقول عنه إنه أدرك محمداً ولم يلقه أو يحدّث عنه وكان له مع أخيه القعقاع بلاء في القادسية ــ والآخر ليثي له صحبة ورواية وحديث[٦٣] أما عز الدين بن الأثير الجزري فلم يذكر إلا الليثي ذا الصحبة ورواية الحديث[٦٤] ونحن نرجّح أن بطل الأقصوصة هو التميمي الذي أبلغنا ابن عبد البر أنه صاحب بلاء مع أخيه القعقاع في القادسية لأن الأقصوصة وقعت قريباً منها، وعاصم بن عمرو وإن لم يكن صحابياً فقد أدرك القائد واتبع الديانة التي بشر بها وأصبح مقرباً لأخلص أصحابه وموضع ثقتهم ومن ثم فهو يعد صحابياً بالتبع ولا أدل عليه من أن ابن عبد البر أنه صاحب بلاء (مع أخيه القعقاع) في القادسية لأن الأقصوصة وقعت قريباً منها ــ وعاصم بن عمرو وإن لم يكن صحابياً فقد أدرك القائد واتبع الديانة التي بشر بها وأصبح مقرباً لأخلص أصحابه وموضع ثقتهم ومن ثم فهو يعد صحابياً بالتبع وتربى في مجتمعهم ونشأ في بيئتهم إذن هو منهم ــ وكعادة أولئك إليهم المغاوير الذين دعسوا بأفراسهم الفطنة الملسنة البلاد المغزوة غدا همهم المقيم وشغلهم الشاغل احتياز الأموال بصورها المتعددة ــ الذهب/ الفضة/ التحف/ المفروشات/ الخيول/ الإبل/ العبيد/ الجواري ــ فقد بعث القائد العام سعد بن مالك أو سعد بن أبي وقاص (ذلك الذي فعل الأفاعيل في غزو العراق وفارس) أحد معاونيه وهو صاحبنا عاصم بن عمرو لا ليبشر بالديانة التي نقلها إليهم محمد أو ليخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد كما طفقوا يتشدقون، إنما ليخطف لهم (غنماً وبقراً) ومن البديهي أن أصحاب الأرض (يسمونهم العلوج) أخذوا يحافظون على أموالهم فأخفوها

---

(٦٣) **الاستيعاب** المجلد الثاني، ص ٧٨٤.
(٦٤) **أسد الغابة** المجلد الثالث، ص ١١٦، مصدر سابق.

عن أعينهم الجشعة، وقابل راعياً بائساً يخبئ قطيعه فسأله فردّ: لا أعلم خوفاً من أن تمتد إليه أياديهم المبروكة وهنا يحدث أمر مدهش إذ يخون ثور منها راعيه وسيده ويخون إخوانه في القطيع ويصيح بلغة عربية مبينة: لقد كذب الراعي وها نحن أولاء تقدموا أيها الأشاوس واغتصبونا حلالاً طيباً بقانون الغزو وشريعة الفتح... ولم يقصّر عاصم بن عمرو فاستاقهم إلى قائده المظفر الذي قام بتقسيمها على عسكره الذين نعموا بأطايب لحومها (فأخصبوا) أياماً دون أن يفكر ابن أبي وقاص أو ابن عمرو أو جنودهما أنها حصيلة عرق الفلاحين (العلوج) وتعبهم وشقائهم!!!

ورغم أن الثور عاش في أرض يتكلم أهلها الفارسية فإنه صاح بلغة عربية فصيحة (كذب والله ها نحن أولاء) ــ ولا أدري متى تعلمها الثور إذ سكت راوى الخبر عن ذلك وكيف يتسنى لثور فارسي أن يتكلم بلسان عربي مبين؟

* * *

وهكذا بعد أن أخبرنا الصحاب أن لهم قدرة فذة على مخاطبة الغيلان والجن والشياطين والتعامل معها بشتى ضروب التعامل الخفيف والمتوسط والثقيل، إذا بهم يطلعون علينا بوقائع تنهى إلينا أن لهم طاقة فائقة على محادثة الحيوان الأعجم وتذليله وتسخيره لنفعهم بل واتخاذه عيناً (جاسوساً) ليدلهم على الثروة التي يتحلّب ريقهم عليها والتي ما تركوا أوديتهم الجديبة القاحلة غير ذات الزرع إلا ليقصفوها[٦٥] ويكشطوها كشطاً ويتمتعوا بها دون أهلها الذين أفنوا أعمارهم في إنتاجها!!!

---

(٦٥) **قصفه قصفاً:** استأصله، **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، مصر.

مع الجماد

أمر عجاب أضافه الصحاب إلى ما سبق أن قدموه من أحدوثات مذهلة وهو أن قدراتهم وإمكانياتهم نفذت إلى عالم الجماد الذي لا يفصح ولا يبين حتى بأنين أو همهمة أو زمزمة أو حتى بأسارير الوجه وإشارات البشرة...

عن عبد الله بن مسعود (رض) قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٦٦].

عبد الله بن مسعود صحابي مشهور وسبق أن تحدثنا عنه في أكثر من موضع وهو من علماء الصحابة ومؤسس مدرسة العراق في الفقه ــ والخبر رواه البخاري وسواه جاء في صحيحه الذي يعد أصح كتاب بعد القرآن لدى أمة لا إله إلا الله أو في أحد تواريخه الثلاثة ــ الكبير والأوسط والصغير، فإنه بلغ مرتبة الصحة التي لا يرقى إليها ريب ــ وفيه أكد ابن مسعود أنهم (طبعا يقصد الصحابة) كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل!!!

وسبق أن قلنا إنهم عندما يصرحون بمثل هذا الخبر فهم صادقون وعلى قناعة تامة بصحته.

> عن أبي البختري قال: بينما أبو الدرداء (رض) يوقد تحت قدر له وسلمان (رض) عنده إذ سمع أبو الدرداء في القدر صوتاً ثم ارتفع الصوت بتسبيح كهيئة صوت الصبي قال: ثم ندرت (سقطت) فانكفأت ثم رجعت إلى مكانها لم ينصب منها شيء فجعل أبو الدرداء ينادي: يا سلمان انظر إلى العجب انظر إلى ما لم تنظر إلى مثله أنت ولا أبوك فقال سلمان: أما إنك لو سكت لسمعت من آيات الله الكبرى. وعن قيس قال: كان أبو الدرداء إذا كتب إلى سلمان أو سلمان كتب

---

(٦٦) رواه البخاري نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١٢٧، مصدر سابق.

إلى أبي الدرداء كتب إليه بذكره بآية الصفحة (الطبق الذي يؤكل فيه) قال: وكنا نتحدث أنه بينما هما يأكلان من الصفحة فسبحت الصفحة وما فيها[٦٧].

الخبر تعطرت به صفحات (حلية الأولياء) لأبي نُعيم وهو من أكثر الكتب رواجاً لدى أتباع محمد إذ أنه موضع تجلة وتقدير لا يجحد ذلك إلا كل لجود ومعاند.

وأبو الدرداء وسلمان من أعيان الصحاب وإذ عرّفنا بسلمان فيما سبق يبقى أبو الدرداء (هو عويمر بن عامر... بن الخزرج... كان فقيهاً عاقلاً حكيماً آخى رسول الله (ص) بينه وبين سلمان الفارسي فقال: عويمر حكيم أمتى... وشهد ما بعد أحد من المشاهد واختلف في شهوده أحداً)[٦٨] وفي حقه قال أبو ذر الغفاري (ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء أعلم منك أبا الدرداء...) وعند يزيد بن معاوية: إنه من الفقهاء العلماء وولى القضاء لمعاوية في خلافة عثمان بن عفان وعن يزيد بن عميرة قال: لما حضرت الوفاة معاذ بن جبل قيل له: يا أبا عبد الرحمان أوصنا فقال التمسوا العلم عند عويمر أبي الدرداء فإنه من الذين أُوتوا العلم... وعن خالد بن معدان قال: كان عبد الله بن عمرو يقول: حدثونا عن العالمين العاملين: معاذ وأبي الدرداء[٦٩].

تلك كانت بعض الأوسمة المعلقة على صدر عويمر أبي الدرداء والتي تشهد له بـ ١، العلم ٢، الحكمة ٣، الفقه. أما سلمان فيكفي لمعرفة ما لديه من علم أن محمداً كان يختلي به الساعات الطوال في الليل ما أثار شكاية أحب زوجاته وأجملهن عائشة. هذان العالمان الفقيهان يرويان لنا بكل الصدق: أن الطعام الذي في القدر

(٦٧) الخبران أوردهما أبو نعيم في **حلية الأولياء** ١/ ٢٢٤، نقلاً عن **كرامات الصحابة (رض)** ص ١٢٨، مصدر سابق.
(٦٨) **أسد الغابة** لعز الدين بن الأثير الجزري، المجلد السادس، ص ٩٧، مصدر سابق.
(٦٩) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الرابع ص ١٦٤٦.

كان يسبّح بصوت أشبه بصوت الصبي ــ ولما انكفأت القدر ــ كما تتكفئ أي قدر أخرى لأي سبب ــ رجعت إلى مكانها ولم ينقص منها شيء!! ولولا عجلة أبي الدرداء ونداؤه على أخيه ليرى العُجاب لشاهدا ما هو أعجب... وأنهما كانا يأكلان في صفحة (طبق) فسبحت هي والطعام الذي فيها وأنهما أطلقا على هذه الأحدوثة (آية الصفحة) وأنها اشتهرت في محيطهما وأن خلطاءهما كانوا يتحدثون عنها كحقيقة لا مرية فيها!!!

* * *

وفي الفقرات السوابق كشفنا عن الأفق العقلي للأصحاب من واقع مواضيع محددة مثل اللقاء بكائنات غير منظورة ومخاطبتها ومعاملاتها بشتى صنوف المعاملات. وتتدرج في الموضوع الواحد نوازل متعددة قد تختلف صورها وقد تتباين أشكالها ولكنها في مجموعها تشكّل وحدة واحدة ــ أما في هذه الفاصلة فسوف نورد أشتاتاً متفرقات من الوقائع والأخبار لا يضمها سلك واحد بيد أنها على تفرقها تسلط أضواء كواشف تنير لنا جوانب المادة المبحوثة (الأفق العقلي):

قال الإمام أحمد: لما نزلت هذه الآية ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال عديّ بن حاتم: عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض فجعلتهما تحت وسادتي قال فجعلت أنظر إليهما فلا تبين لي الأسود من الأبيض ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت على رسول الله (ص) فقال إن وسادك إذاً لعريض إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل ــ رواه الشعبي وأيضاً في رواية البخاري ــ وفي رواية لقتيبة عن جرير عن الشعبي عن عديّ أيضاً: قال: إنك لعريض القفا[٧٠] والخبر موثق أشد ما يجيء التوثيق فقد رواه الشعبي وهو أحد

(٧٠) **تفسير ابن كثير**، الجزء الأول، ص ٣١٩، طبعة دار الشعب، بمصر.

ثقات الرواة وورد في البخاري ومسند الإمام أحمد بن حنبل ــ وعديّ بن حاتم من الصحابة بلا خلاف ــ عندما تلا عليهم محمد الآية المذكورة لم يدرك أن فيها مجازاً فالخيط الأبيض كناية عن أشعة الفجر التي تزيح سواد الليل عن موضعه وتحل محله إلى حين فأحضر عقالين أبيض وأسود وقيل خيطين ينظر إليها بين الحين والآخر ليعرف هل طلع الفجر حتى يمسك عن الطعام والشراب والمعافسة ــ فلما أخفق في ذلك ذهب في الغداة إلى القائد المظفر فحكى له ما حدث فردّ عليه رداً بليغاً (إنك لعريض القفا) وهذا الصاحب له عذره لأن فهم المجاز في الخطاب يحتاج إلى درجة حضارية أعلى من درجتهم في سلم الحضارة التي لا يتسنى لها إلا فهم المعنى الحرفي.

وهنا ينتصب سؤال: كيف يخاطبهم القرآن بما هو أعلى من مدارك عقولهم؟

الجواب: لدفعهم درجات في طريق الترقي والتحضر.

دعا عمر بن الخطاب حابس بن سعد الطائي (ختن عديّ بن حاتم الطائي) فقال: إني أريد أن أوليك قضاء حمص فكيف أنت صانع؟ قال: اجتهد رأيي وأشاور جلسائي فقال: انطلق فلم يمض يسيراً حتى رجع فقال: يا أمير المؤمنين إني رأيت رؤيا أحببت أن أقصها عليك قال: هاتها قال: رأيت كأن الشمس أقبلت من المشرق ومعها جمع عظيم وكأن القمر أقبل من المغرب ومعه جمع عظيم فقال له عمر (رض) مع أيهما كنت؟ قال: مع القمر فقال عمر (رض): كنت مع الآية الممحوة لا والله لا تعمل لي عملاً وردّه[٧١].

إذا كان الخبر السابق بطله عديّ بن حاتم الطائي فإن هذه الواقعة تختص بختنة[٧٢]. أمير المؤمنين يوليّ حابس بن سعد الطائي

(٧١) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٢٧٩، مصدر سابق.
(٧٢) كل من كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها وكذلك زوج البنت أو الأخت، **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

قضاء حمص بعد أن أجرى له اختباراً شفوياً (انترفيو) سريعاً ولكن سوء حظه وحبه للثرثرة حرماه من الوظيفة المرموقة إذ أخبر الخليفة برؤيا رآها فاستشف الأخير من تفصيلاتها أن حابساً مع (الآية الممحوة) أي مع المندثرين الآفلين وعمر مثل إبراهيم جذر الديانات الثلاث لا يحب الآفلين فعزله على الفور وفي المجلس نفسه.

هذا الخبر نهديه وأمثاله (بالعشرات وربما المئات) إلى الذين يعتبرون ما جرى في العهد الخليفي حلماً للبشرية يجتهدون جهدهم لاسترجاعه فهنا يولّي الإمام أو الحاكم واحداً من المسلمين القضاء لمجرد أن رأى هو بعد توجيه سؤال واحد له أنه يصلح لتلك العُمالة ثم بعدها بدقائق يصدر فرماناً آخر بعزله دون معقب عليه لا في التولية ولا في العزل إذن هم كانوا يديرون الدولة بما يسمى في الفقه الدستوري (كلمة الأمير) والإخوة يفضّلون هذا النظام المُعجب على المجتمع المدني الذي يرتكز على سلطات ثلاث والذي يحكم عن طريق المؤسسات ــ بعد هذا الإهداء نعود لسياقة القول:

خليفة المسلمين تُحرك قراراته الرؤى والأحلام والهواتف والظنون والحدوس... ولا وجه للعجب في ذلك فهو ابن شرعي لمجتمعه بما فيه من قيم وأنساق فكرية...

وكان ابن عمر يقول: مات أبيّ بن خلف ببطن رابغ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل إذا نار تأجّج فهبتها وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يصيح: العطش وإذا رجل يقول: لا تسقه فإنّ هذا قتيل رسول الله، أبيّ بن خلف فقلت: ألا سحقاً[٧٣].

أبيّ بن خلف في وقعة أحد ــ أقبل على محمد يركض على فرسه يبغى قتله فأخذ محمد حربة من الزبير رمى بها أبيّاً في عنقه

(٧٣) كتاب **المغازي** للواقدي، تحقيق مارسدن جونز، المجلد الأول، ص ٢٥٢.

وهو على الفرس فجعل يخور كالثور ومات من هذا الجرح إما ببطن رابغ أو بسرف ودفن هناك، وعبد الله بن عمر في إحدى سفراته عندما وصل إلى بطن رابغ في هزيع من الليل رأى ناراً خرج منها أبيّ بن خلف يصيح من العطش وخلفه آخر يحذّره من إعطائه ماءً لأنه قتيل محمد فيعقّب ابن عمر: ألا سحقاً. وهو عندما يقص هذه الأحدوثة المرعبة التي تثير الفزع في نفس السامع أو القارئ كان صادقاً مع نفسه إذ يعتقد بصحتها وأنها حدثت له أو معه وسبق أن ذكرنا أن الطب النفسي يعرف جيداً هذا النوع من الحكايا ــ وابن عمر ــ ونذكّر بأنه كان يبيع الإبل في البقيع ــ علاوة على أنه متسق مع ثقافة مجتمع فمن الشطط المرذول والظلم الصارخ أن يُطلب منه سوى ذلك المستوى من التفكير وهذا الضرب من القص.

وسبق أن قلنا في السِفْر الأول إنّ الهالة القدسانية التي أضيفت على الصحابة وازدادت كثافة كلما تقادم العهد بهم تنسي جمهور معتنقي الديانة الإسلامية الوسط الثقافي الذي ترعرعوا فيه والمهن والحرف التي كانوا يمتهنونها أو يحترفونها، مع أن هذه حقيقة في منتهى البساطة فالحداد والجزار وبائع القماش وتاجر الإبل والبقر من البديهي أن يكون له أفق عقلي ذو أبعاد معلومة وسقف محدد، بيد أن هذه الحقيقة أو البديهة تتوه عنهم بتأثير الأضواء المبهرة التي تنبثق من تلك الهالة القدسانية!!!

قال رافع بن خديج:... ونادى إبليس في صورة جعال بن سراقة:

إنّ محمداً قد قُتل! ثلاث صرخات ــ فابتلى يومئذ جُعال بن سراقة ببليّة عظيمة حين تصور إبليس في صورته وأن جُعالاً ليقاتل مع المسلمين أشد القتال وأنه إلى جنب أبي بردة من نيّار وخوّات بن جبير فوالله ما رأينا دولة أسرع من دولة المشركين علينا وأقبل المسلمون على جُعال بن سراقة

يريدون قتله يقولون: هذا الذي صاح «أنّ محمداً قد قُتل» فشهد له خوّات بن جبير وأبو بردة بن نيّار أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح والصائح غيره(٧٤).

هذه النازلة حدثت في عركة أحد وفي السِفْر الثاني أثبتنا بالوثائق أن نهمة الصحاب لاحتياز الغنائم كانت السبب الرئيسي في الهزيمة ــ وحتى يبرروا اندحارهم نراهم يتوهمون ــ ليريحوا ضمائرهم المكدودة لخذلانهم لقائدهم العظيم وتعريضه لمحنة قاسية لم يمر بها في حياته الشخصية ولا في حياته العامة منذ فجّر الثورة المجيدة ــ أن إبليس كان يحارب مع صناديد قريش ــ وأنّى لهم الوقوف في وجه إبليس وجنوده!!!

وحتى (يسبكوا) أَحدوثتهم ويصدقها من يسمعها بعد أن اقتنعوا هم بصدقها ادّعوا أن إبليس تقمص جعال بن سراقة وأن من بين أفظع أفاعيله وأشدها تأثيراً في نفوس الصحبة صياحه بأعلى صوت (أن محمداً قد قُتل) فَهمّ الجمع بالفتك بجعال لولا أن شهد له إثنان أنه كان يقاتل بجوارهما.

ولكن لِمَ اختار أولئك القصاص جُعالاً من دون الصحب؟

لأنه كان دميماً في غاية الدمامة قبيحاً وافي القبح (جُعال وقيل جُعيل بن سراقة الغفاري... من أهل الصُفّة وفقراء المسلمين أسلم قديماً وشهد مع النبي (ص) أُحداً وأصيبت عينه يوم قريظة وكان دميماً قبيح الوجه أثنى عليه النبي (ص) ووكله إلى إيمانه(٧٥) فمن الطبيعي أن يغدو هو إبليس في حين أن جبريل كان يأتي على

(٧٤) كتاب **المغازي** للواقدي، تحقيق مارسدن جونز، المجلد الأول، ص ٢٣٢، مصدر سابق.
(٧٥) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد ١، ص ٣٣٨، مصدر سابق.

صورة صحابي صبيح وضيء شديد الوضاءة هو دحية الكلبي وكان لفرط ملاحته وحسنه يغطي وجهه بخُمار حتى لا تفتن به الأثربيات!!!

الأخبار الأربعة التي أوردناها فيما سبق على تنوعها (وهي مجرد أمثلة) تدلنا على أن الصحاب كانوا يجيزون عقلاً أن يتشكل إبليس في صورة أحدهم ويتكلم بلسانهم وأن الذي مات قتيلاً ودفن يخرج من قبره والنار مشتعلة فيه يطلب السُقيا ويوكل به من يحذّر من ريه وكيف أن الرؤى والأحلام لها فعاليتها البليغة فيهم حتى في أمور تتسم بقدر من الخطر والأهمية مثل شلح[٧٦] موظف كبير من عُمالة (وظيفة) وعدم فهم الدلالة المجازية للخطاب... كل هذا يدل على أن الأفق العقلي للصحبة كان ساذجاً بسيطاً تماماً مثل البيئة التي عاشوا في أحضانها.

---

(٧٦) **شلحه:** عرّاه، **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

[Blank Page]

الباب الخامس

المستوى الحضاري

[Blank Page]

إذا كان ذلك هو المستوى الإدراكي أو العقلي للصحابة فإنه نتيجة حتمية لمستواهم الحضاري. وقد يقول قائل إن المنطق كان يحتم تقديم السبب على النتيجة، وهو اعتراض وجيه ولكننا فعلنا ذلك (تقديم المستوى الإدراكي/ العقلي على المستوى الحضاري) لأسباب منها:

أن الأهم يقدم على المهم والمستوى الإدراكي/ العقلي يفوق في الأهمية بما لا يقاس المستوى الحضاري إذ ما أهمية أنهم لم يكونوا على معرفة بآداب السلوك (الإتيكيت) التي كانت سائدة لدى الأمم المتحضرة التي غزوا بلادها مثل دولة الفرس أو بني ساسان كما يوضحه الخبر الأول إذ لديهم الإتيكيت الخاص بهم وليس هو بالضرورة أدنى مرتبة مما عند غيرهم ــ أو لا مطعن على الصحابي الذي كان يجهل وجود عدد يزيد على ألف ويكفي أن لديه خلقاً قويماً أو أن عدم معرفتهم بنوع من العطور واعتقادهم أنه ملح طعام أمر تافه لا يغض من قدرهم الخ... ومنها أن المستوى الحضاري الذي عاشوه فرضته عليهم ظروف بيئتهم وموجبات مجتمعهم ولا

يد لهم فيه ولا تثريب عليهم بشأنه... ومنها أن إنخفاض المستوى الحضاري لم يعقّب آثاراً ذات خطر شديد فما أهمية تمزيق بساط ذي قيمة فنية عالية أو دلق[١] كمية من العطر الذي ظنوا أنه ملح طعام الخ.... ومنها أن المستوى الحضاري الخفيض سرعان ما يرتفع وهذا ما حدث بالفعل عند تماسهم الشعوب المغزوة المموطوءة ــ ومنها أن المستوى الوطيء هو أحد أسباب نصرهم على الدولتين البوزنطية والساسانية اللتين مزقوهما مع أنهما كانتا في مستوى حضاري منيف ــ ذلك بعض من الحجج الذي يمكن تقديمه للتدليل على ضآلة قيمة المستوى الحضاري بالقياس للمستوى العقلي/ الإدراكي وربما يغدو العلة في تأخيره لأنه في بعض الأحيان تأتي النتيجة متقدمة على السبب في العرض ومن جانب آخر فإن هذا البعض من الحجج ذاته يشكّل اعتراضاً أو توهيناً لطرح هذا الفصل (المستوى الحضاري) من أساسه بل والدفاع عن تدن مستوى الصحاب الحضاري وأنه كان من نعم الله عليهم إذ لولاه لما تمكنوا من دحر الدولتين المتحضرتين اللتين غزوا أراضيهما وشقعوا[٢] خيراتها وكرعوا في أموالها كروعاً[٣] وأسروا رجالها وفضوا بكارها وعفسوا[٤] جواريها وتبطنوا عذراواتها[٥] وتفخذوا نسوانها[٦] في

(١) دلق السيف دلوقاً: خرج من غمده من غير أن يسل، وبينما هم آمنون إذ دلق عليهم السيل، **أساس البلاغة** للزمخشري، الجزء الأول، الطبعة ٣، ١٩٨٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) شقع الرجل في الإناء: شرب منه، **مختصر العين** لأبي بكر الزبيدي الأشبيلي، تحقيق صلاح الدين القرطوسي، الجزء الأول، ص ١١٢، سلسلة خزانة التراث، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، دار آفاق عربية، بغداد، العراق.

(٣) كرع في الماء كروعاً: تناوله بفيه، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٤) عفست الأديم في دباغ: دلكته، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٥) تبطن الجارية: اتخذها بطانة، **أساس البلاغة** للزمخشري، الجزء الأول، مصدر سابق.

(٦) المرأة الفخذاء التي تضبط الرجل بين فخذيها، **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

حين أن النوازل التي أوردناها في نطاق المستوى العقلي/ الإدراكي تجبه المعارض وتصد المشاكس وتقطع لسان المعترض من لُغدوده[٧] فلا يستطيع لها رداً أو صداً ــ تلك كانت فرشة لازمة لتبرير سبق وقائع المستوى العقلي/ الإدراكي على المستوى الحضاري.

بعدها نأتي بعددٍ من الأمثلة تفي بالغرض ونذكّر بما سبق أن كررناه أننا لسنا بصدد كتابة تأريخ للصحابة ولكننا ندرس مجتمعهم ونطرح أهم قسماته وأبرز ملامحه وأظهر وجوهه وأهم خطوطه ومن ثم فإن بعض الأمثلة يكفي لتوضيح ما نذهب إليه ولدعم ما نرمي إليه وتعضيد ما نقصده ومسانده ما نؤمه ــ ونحن نعلم أن الموضوع المدروس بحر زاخر ومحيط موّار يحتاج إلى كوكبة من البُحّاث لسبر أغواره والغوص في أعماقه واستخراج ما في بطنه وأنه من المستحيل على فرد أن ينجزه، فإن قصرنا في عرض شطر من الجوانب الذي قد يرى القارئ أهميته فيكفينا شرف الريادة:

وأخرج ابن جرير في تاريخه ج/ ٣ ص ٣٣ من طريق سيف بن محمد وطلحة وعمر وزياد بإسنادهم فقالوا: أرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة (رض) وذكر جماعة فقال إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟ قالوا جميعاً: نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه... وأرسلوا ربعيّ بن عامر لمراودة رستم... فأقبل ربعيّ يسير على فرسٍ له زبّاء قصيرة معه سيف مشوف (مجلو) وغمده لفافة ثوب خلق ورمحه معلوب (مشدود بالعنق) بقدٍ (سير من الجلد) معه حجفة (ترس من جلد بلا خشب) من جلود البقر... ومعه قوسه ونبله فلما غشى الملك وانتهى إليه وإلى أدنى البسط قيل له إنزل فحملها على البساط فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما فلم يستطيعوا أن

(٧) اللغد واللغدود واللغديد لحمة في الحلق، المصدر السابق، وتقول عنه العامة في مصر (اللغلوغ).

ينهوه... فأقبل يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطو ويزج (يطعن الزج) النمارق والبسط فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً... فلما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط فقالوا: ما حمله على هذا؟ قال: إنا لا نحب القعود على زينتكم هذه فقال (رستم ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام...)[8].

لوحة فريدة تكاد تنطق تصور حال هؤلاء الغزاة الذين وطئوا أرض الحضارات السوابق، فهذه هي هيئة واحد منهم ملابسه وركوبته وسلاحه ففرسه قصيرة وسيفه في غمد عبارة عن ثوب خلق (مهترئ) ورمحه مشدود في عنقه بسير من الجلد ومعه ترس من جلد بلا خشب الخ...

وإذا كانت الهيئة بهذه الطرافة فإن سلوكه يقطع بأنه لم يسمع عن كلمة حضارة... بل ينمّ عن البداوة والجفاوة والغلظة وقلة الذوق وسوء الفعال والفظاظة والوعورة والخشونة وسوء التصرف والنكر في المعاملة فهو يدوس بحوافر فرسه الزباء البسط ولا ينزل عنها إلا قريباً من المجلس ويشق وسادتين ليدخل فيهما حبل لجامها ويتوكأ على رمحه متهادياً متقارب الخطو ولا يمر بنمرقة ولا بساط إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً ــ ما هذا؟

وعلام يدل؟ إنه يقطع بالتبدّي ومخاصمة الحضارة والبعد عن المدنية الخ...!!!

وعندما يسأله القائد رستم متعجباً من سلوكياته الفظة عن الدوافع التي حملته عليها؟ فيعجب رسول سعد بن أبي وقاص: إنا

(٨) **حياة الصحابة** للكاندهلوي، ج ٣، ص ٥٠٨ ــ ٥٠٩، الطبعة الثانية، غرة شوال المعظم ١٣٩٩هـ/ آب (أغسطس) ١٩٧٩م (دار الوعي، حلب).

لا نحب القعود على زينتكم هذه. ولو صدق لقال: لأننا حُرمنا من زينتكم هذه فنشعر نحوها بحقد دفين ــ أما أنهم لا يستحبون القعود على مثل تلك الزينة، فلقد أثبت التاريخ الموثق أنهم عندما تحضروا وتمدّنوا وغدوا حكاماً وجرت الأموال في أيديهم تولّهوا لهذه الزينة وتدلّهوا في عشقها وبالغوا في حبها وأسرفوا فيها لدرجة السفه والخرق[٩] ولما سأله عن الباعث الدافع على خروجهم من بلادهم القاحلة أجابه بكل جرأة على الحق وبدون ذرة وحيدة من حياء: (لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

وهي الأسطورة التي ما زال يرددها البُحّاث والدارسون حتى في أروقة الجامعات والأطروحات الأكاديمية دعك من خطباء المساجد وكتبة الصحف السيارة.

وفضلاً عن الوقائع والنوازل والأخبار والأحداث التي تعد بالمئات والتي تحملها كتب التراث الإسلامي بمختلف ضروبها وأخصها كتب التاريخ التي نالت بالغ التقدير وعظيم الاحترام من أشد المسلمين تمسكاً مثل الطبري، فإننا نقدم ما ينقض هذه الأسطورة من أساسها ويبين زيفها على لسان قائد ربعيّ وهو سعد بن مالك أو سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ومما قاله زميل لربعيّ في الغزو الميمون وهو المغيرة بن شعبة وهو في الرتبة أرقى منه لأنه صحابي في حين أن ربعيّ بن عامر لم يسلكه ابن عبد البر وابن الأثير في عداد الصحاب:

---

(٩) **الخرق**: الحمق والجهل بالشيء ومجانبة الإحسان في العمل، من **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية بمصر.

أ ــ وهذا ما قاله سعد بن مالك القائد العام:

إن سعداً خطب من يليه يومئذ وذلك الإثنين من المحرم سنة أربع عشر قال: إن الله هو الحق لا شريك له في الملك وليس لقوله خلف قال الله جل ثناؤه (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء ــ إن هذا ميراثكم وموعود ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج (سنين) ويقصد منذ تلا عليهم محمد هذه الآية. اهـ. فأنتم تطعمون منها وتأكلون وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبون نساءهم إلى هذا اليوم(١٠).

هكذا وبكل جلاء ووضوح وبغاية الصراحة يحدد سعد بن أبي وقاص أمير جيوش العراق وفارس المقصود من الغزو ويحصرها في النقاط الآتية:

أولاً: أكل خيراتها والتنعم بلذاتها وأطيابها التي طالما حرموا منها لأن بلادهم المالحة اليابسة التي عاشوا فيها لا تنبت مثلها.

ثانياً: قتل أهلها مع أنه لا توجد آية القرآن أو حديث يبيح لهم ذلك ــ ولم يبين سعد بن مالك وهو من هو سنده في هذا الأمر الذي أصدره لأجناده ــ ولم يقل لهم: اقتلوا من يحاربكم (مع أنّ هؤلاء في حالة دفاع شرعي عن أرضهم وتراب وطنهم. اهـ) بل عمم فرمان القتل وجعله شاملاً!!!

ثالثاً: الجباية التي تمثلت في الجزية والعشور والخراج وسائر ضروب النهب التي عمدوا إليها لاستصفاء آخر درهم لدى العلوج!!!

(١٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ص ٥٣١، الجزء ٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة ٢، ١٩٦٩م، دار المعارف بمصر.

رابعاً: سبي النسوان ــ أبكاراً وثيبات حتى يمتعوا أنفسهم بهن.

تلك كانت أهداف الغزو العربي للبلاد التي وطؤوها بأقدامهم الميمونة ــ وسعد بن أبي وقاص لا يرد على ربعي بن عامر وحده بل على كل من يدّعي أن الفتوحات الميمونة كانت لإعلاء كلمة الله وعبادته وتوحيده الخ.. ولو أن فرداً خلاف ابن مالك صرح به لجاز تهزيل كلامه وتضعيفه. وقد ينبري من يجادلك ــ إن الإسلام لا يحتاج بعباراته أو غيره وندفع اعتراضه الضامر الأعجف بالآتي:

١ ــ إذا كانت أقوال وفعال سعد بن أبي وقاص ومن على شاكلته من الصحابة ليست حجة على الإسلام فأقوال وأفعال من هي التي تلزمه ألا يعدّ ذلك تسليماً بالشعار: (النظرية شيء والتطبيق شيء آخر)!!!

٢ ــ أم أن مبادئ الإسلام شبيهة بـ (مُثُل أفلاطون) ليست للتطبيق العملي!

٣ ــ وإذا عجز الصحبة ولم يمض على وفاة محمد سوى زمن يسير عن اليسير على هداه وخالفوا نهجه وسننه فكيف بغيرهم ممن يعيشون في القرن الخامس عشر الهجري؟

٤ ــ لو قيل إن ابن مالك أطلق تلك العبارات لتحميس عسكره وما عناها فبداية لا يجوز صدوره منه ثم ما هو دفعكم للوقائع الموثقة التي أثبتت أن أغراض القائد الأشوس البُهمة[١١] نُفّذت بحذافيرها على أرض الواقع والذي يماري فعليه بكتب التاريخ ــ بل وغيرها حتى

(١١) فلان بُهمة من البُهم: الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه، **أساس البلاغة** للزمخشري.

موسوعات الفقه ــ التي تناولت الحقبة المبروكة التي تحاول الأقلام التي تفتقر إلى الصدق والموضوعية وأمانة العلم ومسؤولية القلم أن تبرقشها وتزينها وتزخرفها وسع طاقتها ولكن هيهات ــ فإن ما أودعه السلف من مؤرخين وفقهاء الخ... في مؤلفاتهم تفضح زيفهم وتكشف عن فساد منهجهم.

* * *

يبرر ابن سعد بن مالك غزوهم للعراق وفارس وبداهة غيرهما من البلاد التي داسوها بحوافر أحصنتهم وبأخفاف إبلهم بأنها جميعها (هي ميراثكم وموعودكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج) ثم يتمحل آية من القرآن يجعلها سنده للوعد والميراث.

وعلى الفور عندما تفرغ من مطالعة ذاك الخبر المبالغ الدلالة ــ والذي يخفيه أصحاب الصورة المزيفة ــ تتذكر ما يدّعيه اليهود من حق في أرض فلسطين إذ أن الرب أعطاها لهم إرثاً:

(وقال له (لإبرام وهو إبراهيم جذر الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. اهـ) أنا الرب الذي أخرج من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها/ ٨.. في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات ــ ١٨)[١٢] الكلمات نفسها رددها بعد قرون سحيقة سعد بن أبي وقاص (الميراث/ الوعد/ الإعطاء) ما يقطع بأن أتباع الديانات الإبراهيمية الثلاث يستطيعون بمنتهى اليسر وغاية البساطة أن يفسروا نصوص كتبهم المقدسة بما يحقق أغراضهم!

(١٢) الإصحاح الخامس عشر من **سفر التكوين** العهد القديم، **الكتاب المقدس.**

ب ــ الصحابي المغيرة يرد على ربعي:

... فقدم سعد القادسية في إثني عشر ألفاً فلما أشرف رستم على العسكر قال: يا معشر العرب ابعثوا إلينا رجلاً يكلمنا ونكلمه فبعث إليه المغيرة بن شعبة نفراً... فقال رستم يا مغيره كنتم أهل شقاء الخ... فقال المغيرة مجيباً فذكر النبي (ص) فكان مما رزقنا الله على يديه حبة تنبت في أرضكم هذه فلما أذقنا عيالنا قالوا: لا صبر لنا عليها فجئنا لنطعمهم أو نموت[١٣].

بدون جمجمة أو غمغمة يذكر المغيرة أنهم أذاقوا حبة تنبت في أرض الموطوئين لا مثيل لها في بلادهم القاحلة الجديبة فلما طعموها وعيالهم قالوا: لا صبر لنا عليها (فجئنا لنطعمهم) منها... أي أن ما أخرجهم من صحاريهم دائمة القحط هو الرغبة العارمة والنُهمة الشديدة للتمتع بخيرات البلاد المفتوحة.

لم يذكر سعد بن مالك ولا المغيرة بن شعبة أُحدوثة إخراج العباد من جور الأديان إلى عدل الإسلام التي أطلقها ربعي بن عامر وأرجّح أن كونهما من صحابة محمد فقد التزما الصدق الذي علّمه إياهما وغيرهما من خاصة أتباعه.

لماذا يُسلّط الدارسون والباحثون المحدثون الضوء على حكاية ربعيّ ويعتمون على ما صرح به الصحابيان سعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة؟

عسى الإجابة لا تحتاج إلى كثير فطنة ــ ولعلنا بذلك طرحنا

(١٣) **تاريخ الطبري.. تاريخ الأمم والملوك** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ص ٥٢٥، الجزء الثالث، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، دار المعارف بمصر.

الأدلة الموثقة على فساد سرحة[١٤] ذلك الربعي ــ وأثبتنا أن الغزو العربي له أهداف معينة أفشاها وجهر بها وأظهرها أحد أكابر قواده ــ ولعل (فِرَق التبجيل والتعظيم والتفخيم) غِبّ هذا البيان تكف عن منهجها الطفس[١٥] ولعله قد آن الأوان لنختم هذه الاستطرادة التي نرى لزوميتها لإلقاء حزام ضوء على سياق الموضوع: لقد كانت هناك عدة دوافع لخروج الصحبة من جزيرتهم الجدباء القرعاء[١٦] ذكرنا أولها في السفر الثاني ولا نرى مدعاة للتكرار ومنها:

أ ــ أن دولة قريش التي أُقيمت في أثرب/ المدينة قد هزتها من جذورها وزلزلت بنيانها من أساسه الحروب الأهلية التي اشتُهرت بـ (حروب الصدقة) و(حروب الردة)[١٧] ومن ثم وجدت في الإنسياح للخارج متنفساً ومنفذاً لصرف عرب وأعراب الجزيرة عن التفكير في انفرادها ــ قريش بالسلطان.

ب ــ أنها قدّرت أنها سوف تعجز عن الاستمرار في القيادة لخلو أي من زعمائها من الصفات الكارزمية الفاذّة التي تفرد بها قائد الثورة ومؤسس الدولة محمد ولقلة الموارد

(١٤) سرح الشاعر الشعر، ومن المجاز قولهم: فلان يسرح في أعراض الناس **أساس البلاغة** للزمخشري.

(١٥) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، طفس كتف: قذر نجس.

(١٦) القَرَع ذهاب الشعر واللحية، الأقرع المنقط شعر الرأس من **مختصر العين** للزبيدي، مصدر سابق، والفناء خلا من الماشية قرعاً... والحج خلت أيامه من الناس وعود أقرع قُرع من لحائه وقدح أقرع حُكّ بالعصى حتى بدت سفاسفه أي طرائقه، **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

(١٧) هما على قدر غير هين من التمايز بيد أن الجامع الذي يجمع بينهما هو التسخط على قريش ومحاولة الفكاك من قبضتها بعد وفاة القائد.

المالية إذا حصرت كلمتها (نفوذها) داخل الجزيرة الناضبة من أي خير، ولذلك أغرت القبائل على الإنفتاح للتنعم بطيبات البلاد المجاورة والتلذذ بنسوانها ولقد أفقدت الأخبار التي حُكيت عن الغزوات الأوائل البدو والأعاريب صوابهم فاندفعوا ينخرطون في جيوش الفتح ــ وهاك مثلين يؤكدان هذه الحقيقة:

الأول: عن الأموال:

وأرسل بذلك إلى عمر (رض) وكتب إليه بالفتح فتباشر الناس بذلك وأكبّوا على الرسول يسألونه عن أمر البصرة فقال إن المسلمين يهيلون الذهب والفضة هيلاً[١٨] فرغب الناس في الخروج حتى كثروا بها وقوى أمرهم[١٩].

الآخر: عن السبايا ــ العذراوات الأبكار اللاتي لم يطمثهن أحد قبل البُهم المغاوير:

وأصاب المسلمون يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط وسبوا سبياً كثيراً ومن بنات أحرار فارس فذكروا أن عمر بن الخطاب (رض) كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات فأدرك أبناؤهن قتال صِفّين[٢٠] وتعرف هؤلاء البائسات بـ (سبايا جلولاء) وأصبحن أمهات عدد من مشاهير التابعين.

لذلك لاحظ المؤرخون أنه في الوقت الذي عانت فيه دولة قريش الأمرين عند بدّي الأمر في تعبئة الأعراب أصبح هؤلاء يندفعون إندفاعاً للإلتحاق بسرايا الغزو الكبير الميمون.

(١٨) لم يقل ذلك الرسول إن المسلمين يُدخلون الأعاجم والعلوج في دين الله أفواجاً!!!

(١٩) **الأخبار الطوال** لأبي حنيفة الدينوري، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، ص ١١٧، الطبعة ١، ١٩٦٠، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، مصر.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٢٩.

نخلص من ذلك إلى أن الإدعاء بأن الفتوحات العربية جاءت لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله تعالى أحدوثة مثل باقي مثيلاتها التي يضج بها التاريخ العربي الإسلامي، بيد أن هذا لا يعني: نشر الإسلام بالسيف.

السبب غاية في البساطة وهو أن أولئك الأشاوس الشجعان لم يتموضع في نيتهم نشر الإسلام لا بالسيوف ولا بغيره ولم يدُر بخلدهم ولا طاف بخاطرهم لمحة خاطفة، كان كل همهم كسح خيرات البلاد المجاورة وامتطاء إناثها والتمتع بجوها اللطيف الذي لا يقارن بجو صحرائهم اللافح ــ وإذ أنهم اعتنقوا الديانة التي بشّر بها محمد وعلمهم إياها فقد أخذوا يؤدون طقوسها فوجد (العلوج) أنها أفضل من عقائدهم ومللهم فطفقوا يعتنقونها وفريق آخر منهم الذين شكلوا أعمدة السلطة السابقة أو من رُزق درجة متميزة من الطموح دخلوها (الديانة الإسلامية) ليظلوا قريبين من الحكام كعهدهم السابق. أما الفريق الثالث وهؤلاء نسبة كبيرة لا يستهان بها فقد أسلموا لأسباب مادية ونفسية أهمها الانعتاق من صغار أداء الجزية وكافة الضرائب التي فُرضت عليهم من قبل العرب ومن معاملتهم كـ (مواطني الدرجة الثانية) التي عوملوا بها رغم النصوص التي تنهي عنها فلقد أثبتنا بالأخبار الموثقة أن كثيراً من الصحبة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ينتقل إلى وادٍ غير وادي النصوص لأول وهلة تقف فيها حائلاً دون تحقيق مصالحه خاصة في أمريْ ــ الحكم والمال ــ وقد بدأ ذلك مبكراً إثر وفاة القائد العظيم بل حتى قبل أن يُوارى جثمانه الطاهر مثواه.

إذن علينا أن نفرق بين أمرين في منتهى الدقة والخطر:

أ ــ أن الغزو العربي الإسلامي مثله مثل أي غزو على مدى

التاريخ قديمه/ وسيطه/ حديثه كان هدفه الرئيس هو الاستعمار والاستيطان والنهب والسلب واستعباد الرجال وسبي النسوان ــ بل إنه في بعض صوره مثل كسح الأموال ونهب الخيرات واستيطان البلاد (وصل المدى إلى حد سكنى البيوت) وأسر الذكور وسبى الإناث بلغ الغاية في البشاعة والفُجر ومن يماري بيننا وبينه أمهات كتب التاريخ العربي الإسلامي عينها.

ب ــ أنه لا صلة لهذا الغزو الاستعماري الإستيطاني وبين نشر الديانة الإسلام فأولئك الغزاة الليوث الكواسر لم يهدفوا إلى نشر الإسلام بل كان الهدف هو ما ذكرناه ومن ثم فإن مقولة أن الإسلام انتشر ــ خارج الجزيرة العربية ــ بالسيف مجافية للحقيقة ومنافية للوقائع ــ فلم يحدث أنهم أكرهوا فرداً واحداً على اعتناق دينهم ــ هم نهبوا وخطفوا وحرقوا ودمروا وأسروا الرجال وسبوا النساء ولكنهم أبداً لم يجبروا أحداً على دخول الإسلام بل إنهم وهو ثابت في العديد من المصادر ذات الرتب العوالي أن بعضهم استاء من إقبال العلوج على ديانتهم لأن ذلك سوف يخفض الدخول المالية الهدف الأسمى من الفتح، بل أبقى (ذلك البعض) على الأعباء المالية حتى بعد اعتناق أهل البلاد الموطوءة لدينهم ــ أما الذين ــ في المقابل ــ يزعمون أن الفتح العربي كان القصد منه هو إذاعة الإسلام وفشوه فهم واهمون ومردود عليهم بالآتي:

١ ــ لو أن الهدف هو نشر الإسلام لبدأت دولة قريش بإرسال بعثات تبشيرية تدعو إليه وترغّب فيه حتى إذا وقفت دولة

بني ساسان والبوزنطيون في وجهها ــ لصار لشن الحرب ما يبرره.

٢ ــ كيف يتواءم الإسلام وهو دين الرحمة والمحبة والسلام مع سل السيوف والهدم والإحراق والتسوية (تسوية المباني) بالأرض وتحويل الرجال إلى عبيد والحرائر إلى سبايا وإماء؟

٣ ــ ما هي الصلة بين إفشاء الديانة وكسح الأموال بالملايين وأسر الرجال والنسوان بالألوف وبيعهم في سوق الرقيق حتى بنات الأكاسرة لم يسلمن منه؟

٤ ــ هل يستلزم نشر الإسلام غزو أراضي الآخرين واستعمارهم واستيطانهم وحكم أهلها ــ أي علاقة تربط بين الأمرين؟؟؟

٥ ــ ما هو الفرق بين هذا الغزو وبين أي غزو آخر وعلى ذلك يمكن للغزاة في أي مكان أو زمان تسويغ غزوهم: مرة لنشر ثقافتهم وأخرى لإفشاء لغتهم وثالثة لإذاعة دينهم ورابعة لتحضير الشعوب المغلوبة، وهكذا وفي مذهبنا أن الإسلام لا يتحمل تبعة الغزو الاستيطاني لناهب السالب المستعبد (بكسر) للرجال والنساء الذي قام به الصحاب حتى ولو من أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن مالك وخالد بن الوليد الخ... إذ ليس فيه نص واحد (قرآن أو سنة) يبيح لهم وطء بلاد الآخرين وفعل الأفاعيل التي ارتكبوها فيها وفي أهلها والتي أشعر كمسلم متمسك بإسلامه معتز به ــ بالخجل والخزي إزاءها ويكاد يصيبني الذهول وأنا أقرأ أو أسمع من يدافع عنه بل يمجّده ويعتبره من النقاط المضيئة في تاريخ الإسلام.

ومما لا يفوت عين القارئ اللبيب اليقظ ولا فطنته أن الصحاب الذين سنوا للمسلمين على طول المدى ــ سنة غزو بلاد الآخرين.

والذين شاركوا في الأفعال الشنعاء التي صاحبته وواكبته قد دفعوا الثمن غالياً فقد حارب بعضهم البعض أشد محاربة ــ ولا غرو فقد غدا القتال جزءاً رئيساً من مكونات نفسياتهم ــ وعدد كبير ممن ساهم فيه قتل على أيدي (أصحابه) رفقائه السابقين في سرايا الفتح الميمون ــ ورأت شعوب البلاد التي وطِئت أراضيها ونُهبت خيراتها وأسر رجالها وسُبيت نساؤها رؤوس الفتح يقتل بعضهم بعضاً ويحارب الأخ منهم أخاه، واستمر الانتقام الإلهي من الفاتحين الفاتكين إذ تحول تاريخهم إلى سلسلة من الحروب والخروج والثوارت والفتن والإنقسامات والتشرذمات حتى في الموضوعات الدينية تصدعوا إلى ملل ونحل وفرق ومذاهب وشيع وطوائف.

فهم في مجال السياسة والحكم والإدارة والسلطة يقاتل بعضهم بعضاً وفي القضاء العقائدي والديني يكفّر الأخ أخاه الخ... إنّ لعنة الغزو الغاشم ظلت تلاحق الغزاة بلا انقطاع، كيف لا... والله منتقم جبار.

بعدها الاستطرادة نؤوب إلى مساق الموضوع:

بعد أنْ أطلعنا على هيئة أحد المغاوير وسلوكه وما يدلان عليه من مستوى حضاري نورد فيما يلي أمثلة قليلة لعلها تفي بالغرض ــ عن ممارساتهم إبّان غزوهم الميمون وما تفصح عنه من المستوى نفسه:

ثم إنّ خالداً مضى إلى قرية أسفل الفرات يقال لها بانقيا وفيها مسلحة

لكسرى في حصن لهم فحاصرهم وافتتح الحصن وقتل من فيه من الرجال وسبى نساءهم وذراريهم وأخذوا ما فيه من المتاع والسلاح وأحرق الحصن وهدمه فلما رأى أهل القرية ذلك طلبوا الصلح منه على أداء الجزية فكانت من ولّى الصلح عنهم هانئ بن جابر الطائي فصالحه على ثمانين ألف درهم(٢١).

لم يكن ما فعله خالد بن الوليد في بانقيا أمراً مفرداً بل كان هذا هو بابه فيما يمر عليه من قرى أو مدن:

ثم إن خالداً رجع إلى النجف فاستبطن بطن النجف وأخذ الأدلاء من أهل الحيرة حتى انتهى إلى عين التمر وبها مرابطة لكسرى فحاصرهم حتى استنزلهم فقتلهم وسبى نساءهم وذراريهم وأخذ ما كان في الحصن من المتاع والسلاح والدواب وأحرق في الحصن وخرّبه فقتل دهقان عين التمر وكان رجلاً من العرب وسبى نساءه وذراريه وأهل بيته وأعطاه أهل عين التمر الجزية كما أعطاه أهل الحيرة وغيرهم من أهل القرى(٢٢).

تلك كانت الرسالة الحضارية التي حملها الغزاة معهم من جزيرتهم إلى البلاد المجاورة التي وطؤوها بسنابك وأخفاف إبلهم:

١ ــ قتل الرجال حتى الذين يستأسرون (يصحبون أسرى).

٢ ــ استصفاء الأموال والمتاع والكراع (السلاح).

٣ ــ إحراق الحصون وتخريبها وهدمها وتسويتها بأديم الأرض.

٤ ــ سبي النسوان والذراري.

---

(٢١) كتاب **الخراج** لقاضي القضاة أبي يوسف صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة ص ١٥٧، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ، المكتبة السلفية بمصر.

(٢٢) كتاب **الخراج** لأبي يوسف ص ١٥٧، مصدر سابق.

ولذلك فإن خالداً أرسل إلى أثرب/ المدينة ما لا يحصيه إلاّ الله من السبايا والذراري.

حتى دهقان عين التمر لم تتجه عربيته من القتل وسبي النساء والذراري علما بأنه لا توجد آية في القرآن ولا حديث يسمحان لابن الوليد بقتل من يضع سلاحه ولا بالحرق والتخريب والتهديم. ومن ثم كان شيخ الإسلام ابن تيمية محقاً في قوله: «إن في سيف رهقاً» متابعاً في ذلك قول عمر بن الخطاب[٢٣]. والخبران وردا في كتاب الخراج الذي ألفه أبو يوسف للخليفة العباسي الرشيد وهو من الكتب التي يجلها أهل السنة والجماعة ــ وكان أبو يوسف يلقب بـ **(قاضي القضاة)** وهو تلميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان شيخ مذهب الأحناف.

وجاء في المناقب للذهبي قال عمار بن مالك: ما كان فيهم مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا ابن أبي ليلى[٢٤].

ويصفه تلميذ آخر من أكابر تلاميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة وهو محمد حسن الشيباني رغم النُفرة التي استحكمت بينهما كما يحدث عادة بين الأقران بأنه **(الثقة)**[٢٥] ولعلو منزلة أبي يوسف بين الخاصة والعامة كان الخليفة هارون الرشيد يحسده عليها ويتمنى أن تكون له مثلها[٢٦].

وقاضي القضاة العالم الفقيه الذي كان يقرن بأبي حنيفة فإذا

---

(٢٣) في **المعجم الوجيز**، أرهق فلاناً: حمّله ما لا يطيقه ومنه أرهق الدين فلاناً.
(٢٤) الطبقات السنية ج ٢ ص ٥٨١، نقلاً عن كتاب: **أبو يوسف: حياته وآراؤه الفقهية**، ص ٦٢، لمحمود مطلوب، وهو رسالة جامعية، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ساعدت على نشره جامعة بغداد.
(٢٥) **شرح السير الكبير**، ص ٢، نقلاً عن المصدر السابق، ص ٦٣.
(٢٦) المصدر السابق ص ٥٠.

قيل (الصاحبان) في كتب المذهب كانا هما المقصودان بهذا اللقب ــ يستحيل عليه أن يسطّر في الكتاب الذي صنفه للخليفة أخباراً ضعيفة أو موضوعة ــ نخلص مما تقدم أن هذين الخبرين سبيل التوهين فيهما مقطوع.

ومن ثم فإنّ من البديهي أن يسود الخراب البلاد والقرى التي كان يمر بها أولئك الفوارس الشجعان:

ولم يزل عمران الحيرة يتناقص منذ بنيت الكوفة إلى أيام المعتضد بالله فإنه استولى الخراب عليها وكانت فيها ديارات كثيرة ورهبان لحقوا بغيرها بعد استيلاء الخراب عليها وأقفرت من الأنيس في هذا الوقت إلا الصدى والبوم[٢٧].

والحيرة من أوائل المناطق التي أمّها خالد بن الوليد وجنوده الميامين فبعد أن كانت مثلاً فريداً في الإزدهار ومهوى أفئدة الشعراء وكم تغنوا بها في قصائدهم منهم حسّان بن ثابت شاعر محمد، تحولت إلى خراب بلقع يعشش فيها البوم ولا يسمع فيها إلا نعيقه بعد أن دخلوها، ولو كانت لديهم ذرة من حضارة لما فعلوا فيها وفي غيرها تلك الأفاعيل ــ والعجب كله لمن لا يزال يردد مزاعم ربعي بن عامر في كل محفل ومقال ويغمض عينيه عن هذه الأخبار الموثقة التي كشفت عن حقيقة أهداف ذلك الغزو المبارك!!!

يفعل ذلك وضميره العلمي يغط في نوم عميق.

وليقل ربعي ما يقول وليزعم ما يزعم فهو حر في إطلاق ما يعنّ

(٢٧) كتاب **المسالك والممالك** لأبي عبيد البكري، تحقيق وتقديم وفهرسة أوريان فان ليوفن وأندري فيري، ج ١، ص ٣٠٦، طبعة ١٩٩٢م، بيت الحكمة، وزارة الثقافة، تونس.

له من ادعاءات إنما الذي لا مشاحة فيه أن العبرة بما تحقق على الأرض، وأيهما أبلغ دلالة وأشد إفصاحاً وأقوى تبياناً:

القول أو الفعل؟؟؟

وكثيرون من أصحاب العقائد والإيدلوجيات يرفعون شعارات براقة بيد أنهم في نطاق العمل تجيء ممارساتهم مناقضة لها ـــ وذاك كان دأب الصحاب والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ـــ ومن ثم فلا فرق بينهم وبين غيرهم.

* * *

فصل سعد (بن أبي وقاص) خمس الغنائم ليرسله إلى المدينة... ثم أراد أن يقسّم خمس القطيفة وهو بساط كسرى فرآه لا تعتد قسمته فقال للمسلمين: هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء فإنّا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وقد تقع من أهل المدينة موقعاً: كان هذا البساط مربعاً ستون ذراعاً في مثلها وكان الأكاسرة تعده للشتاء إذا اشتد القر وهبت الرياح وقد صُورت في هذا القطيف طرق المملكة وبسطت فيه الأرض مذهبة تجري خلالها أنها رُصّعت بالدر وجعلت حافاته كالأرض المزروعة فيه نبات الربيع قام على سوق (ج. ساق) الذهب وجعل ورقه من الحرير وثمره من الجوهر وأقر الناس رأى سعد فأرسل القطيف مع الخمس إلى المدينة[٢٨].

هذه التحفة الفنية النادرة تقطع بأن صُنّاعها مهرة وأصحاب منزلة رفيعة في مرقى الحضارة لم يعرف بنو يعرُب قيمتها فأرادوا في بديّ الأمر أن يمزقوها إرباً حتى يستولى العسكر المنتصرون على نصيبهم منها وهو الأربعة أخماس، إذ ما الذي استفزّهم[٢٩] من

(٢٨) من **الطبري والكامل** نقلاً عن **الفاروق عمر** لمحمد حسين هيكل، ص ١٨٧، مصدر سابق.
(٢٩) **استفزه:** استخفه، **أساس البلاغة** للزمخشري.

صحرائهم الماحلة سواه ــ فلما استحال عليهم تقسيم (القطيف) أرسلوه إلى أثرب/ المدينة التي غدت مصب أنهار الغنائم التي تنهمر عليها من البلاد المغزوة وهناك لاقى (القطيف) مصيره التعس!!!

* * *

وتتوالى الصور التي هي بمثابة مقياس لرتبة الصحاب في التحضر وسوف نراها بالغة الطرافة فمرة يضعون أيديهم على سلال مختومة بالرصاص فيعتقدون أنها مليئة بالطعام فإذا بها تحتوي على آنية الذهب والفضة ولا تسأل كيف تخيّل أولئك الغزاة أن سلال الطعام تُدمغ بأختام الرصاص ألأنهم أصحاب عقلية بدوية!!! ومرة أخرى احتازوا ظروفاً بها كافور فظنوها ملحاً فوضعوه في طعامهم (فوجدوه مراً) ولو أن لديهم مثقال ذرة من حضارة لتذوقوه قبل أن يلقوه في قدورهم!!!

ووجد المسلمون بدور المدائن سلالاً مختومة برصاص ظنوا ما فيها طعام فإذا هو آنية من الذهب والفضة متماثلين ووجدوا بدور المدائن كذلك كافوراً حسبوه لكثرته ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً[٣٠].

ويؤكد الدينوري في (الأخبار الطوال) تلك الواقعة ويضيف إليها أخرى من على شاكلتها:

... فلما نظر خُرزاد إلى ذلك خرج من الباب الشرقي ليلاً في جنوده نحو جلولاء وأخلى المدائن فدخلها المسلمون فأصابوا فيها غنائم كثيرة ووقعوا على كافور كثير فظنوه ملحاً فجعلوه في خبزهم فأمّر عليهم ــ وقال مخنض بن سليم: لقد سمعت في ذلك اليوم رجلاً ينادي من يأخذ

(٣٠) نقلاً عن **الفاروق عمر** لمحمد حسين هيكل، ص ١٨٧، وما بعدها، دار المعارف بمصر وقد صرح هيكل أنه نقل هذا الخبر وأمثاله من أمهات كتب التاريخ مثل الطبري والكامل وغيرهما.

صحيفة حمراء بصحيفة بيضاء لصفحة من ذلك لا يعلم ما هي[٣١]. وكلما مضيت في قراءة هذه الأخبار المضحكة المبكية عاودني السؤال الذي حيّر الكثيرين في الشرق والغرب: كيف تمكن أولئك الصحاب وهم على ذلك المستوى من التبدّي أن يسحقوا أبناء الحضارات السامقة العريقة؟؟؟

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن حميد بن منهب قال: قال جدي خريم بن أوس (رض): هاجرت إلى النبي (ص) وقدمت عليه منصرفه من تبوك فأسلمت فسمعته يقول: هذه الحيرة البيضاء قد رفعت وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة (متلفعة) بخُمار أسود فقلت: يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدنا كمـــا تصف فهي لي؟ قال: هي لك ــ ثم كانت الردة فما ارتد أحد من طيء فأقبلنا مع خالد بن الوليد (رض) نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء بنت نفيلة كما قال رسول الله (ص) على بغلة شهباء معتجرة بخُمار أسود فتعلقت بها فقلت هذه وصفها لي رسول الله (ص) فدعاني خالد بالبينة فأتيت بها فكانت البينة محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير الأنصاريان (رض) فسلمها إليّ خالد ونزل إليها أخوها عبد المسيح بن نفيلة يريد الصلح فقال: بعينا فقلت لا أنقصها والله من عشرة مائة فأعطاني ألف درهم وسلمتها إليه فقالوا لي: لو قلت مائة ألف لدفعها إليك فقلت: ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مائة[٣٢].

والقصة أوردها عز الدين ابن الأثير الجزري في (أسد الغابة) وقال عن الحديث إنه أخرجه الثلاثة[٣٣] وهي بذلك صحيحة لا مطعن عليها فلا هي موضوعة ولا هي ضعيفة فحديثها أخرجه الثلاثة والطبراني وابن منده وكفى بأن من بين من خرّجوه البخاري

(٣١) **الأخبار الطوال** للدينوري، ص ١٣٧، مصدر سابق.
(٣٢) أخرجه الطبراني عن حميد بطوله والبخاري عن حميد مختصراً وابن منده بطوله.
(٣٣) **أسد الغابة** المجلد الثاني، ص ١٣٠، مصدر سابق.

وجاء في مصدرين يحظيان بوافر التقدير: (الدلائل) لأبي نعيم و(أسد الغابة) لابن الأثير الجزري.

من هو ابن خريم بن أوس بطل هذه القصة الطريفة؟

هو من قبيلة طيء التي منها عدّى بن حاتم الطائي الذي وصفه محمد قبل قليل بأنه (عريض القفا)! وقدم على محمد منصرفه من تبوك فأسلم[٣٤] ومن البديهي أن يشترك في جيوش الغزو ليظفر بالشيماء التي وعده بها محمد الذي تحققت نبوءته فصارت من نصيب خزيم بعد أن قدم البيّنة لخالد بن الوليد على استحقاقه إياها، ثم جاء أخوها ليفتديها لأنها من بيت سيادة ومن العار أن تُسبى إحدى نسائه فطلب منه ابن أوس فيها ألف درهم لأن الألف بنظره هو منتهى العد وغاية الإحصاء ولا يتخيل وراءه زيادة.

والخبر بالغ الدلالة على أن حصتهم من التحضر معدومة وبالمقارنة ــ فإن أصغر تلميذٍ في مدارس الحيرة أو غيرها من البلاد المفتوحة كان يعرف أن ثمة (عدداً أكثر من عشر مائة)!!!

عن عطاء بن السائب قال: لما استُخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر فيها فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا: إلى أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق قالا: تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أُطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم ــ شطر شاة وما كسوه في الرأس والبطن ــ خرجه في الصفوة[٣٥].

البعض يدرج هذا التصرف من ابن أبي قحافة في خانة التواضع

(٣٤) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٢، ص ٤٤٧.
(٣٥) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لأبي جعفر بالمحب الطبري، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، ص ٢٣٤، د. ت. ن.

في حين أن الأمر ليس كذلك إنه يتعلق بالمستوى الحضاري بالقدرة على فهم وظيفة حاكم الدولة ورئيسها الأعلى. إنك تدرك للوهلة الأولى بعد الفراغ من مطالعة الخبر أن أبا بكر لم يستوعب أبعاد المنصب الذي تولاّه إذ ما زال يتصور أنه من الممكن أن يظل بائع أقمشة وخليفة في الوقت نفسه وأن بمقدوره أن يدير شؤون الحكم وهو واقف في السوق يبيع قطع الثياب ولك أن تتصور مدى هذا الفهم المُعجب ودولة قريش كانت تتعرض في ذلك الوقت إلى فتن لا يعلم إلا الله وحده مداها، من القبائل التي بدأت تتمرد على سلطانها واتخذت من منع الصدقة أو الزكاة ذريعة لذلك، ومن أخرى قدرت أنه ما دامت قريش قد فازت بالسلطة عن طريقة نبوة محمد فما الذي يمنعها هي أن تقدم من بين أبنائها أنبياء كذبة يقولون هُجراً ويفعلون نُكراً بل إنّ إحداها لم تر مانعاً من أن يكون المتنبي فيها امرأة...

في هذه الفتن المائجة التي بدأت قرونها تذر بشدة وتنذر بعواقب وخيمة كان ابن أبي قحافة يرى أن في مكنته أن ينجز موجبات السلطة وهو واقف في متجره (إن كان له متجر)!

ألا تقدم هذه الواقعة البرهان الساطع على المستوى الحضاري؟

وقبل أن نغادر هذا الخبر الطريف نضع تحت باصرة القارئ الفطن ملاحظة هامة وهي أن أبطاله هم (الثلاث) الذي شهد اجتماع سقيفة بني ساعدة مع الأنصار وحرص أشد الحرص على ألا يُبلغ أفراد بطون قريش العوالي به وخاصة بني هاشم وبذلك حرم (الثلاثي) أبا الحسنين حقه في وراثة ملك محمد وسلطانه (هذه ألفاظ عليّ حصراً وتحديداً).

عن عمر بن إسحق قال: كان أبو بكر يجلب للحيّ أغنامهم فلما بويع قالت جارية من الحيّ: الآن ما يحلب لنا منائح دارنا فقال: لأحلبنها لكن وأرجو ألا يُغيّر في ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه، فكان يجلب لهم رحمه الله[٣٦] ومنائح: جمع منيحة وهي الناقة أو الشاه تُمنح للجار أو الصديق لينتفع بلبنها ويعيدها ــ النهاية.

هذا الخبر يكشف لنا عن جانب جميل في أبي بكر وعن تعاونه مع جيرته إذ كان يتولى ــ حتى وهو الوزير الأول لقائد الثورة محمد ــ حلب نوقهم وشياههم وهو عمل طيب يدلّ على نبالة الخلق.

أما أن يستمر فيه وقد غدا الإمام الأعظم ورئيس دولة دانت لها ــ ولأول مرة في تاريخها ــ جزيرة العرب بأسرها فهذا مما يتعذر قبوله أو تسويغه حتى من باب التواضع.

لقد كان في مقدوره أن يُكلّف به أجيراً (وأن يُحمّل بيت المال أجره) لأن الوقت الذي يصرفه ابن أبي قحافة في حلب المنائح وإستدرار ضروعها أولى به حلول المعضلات التي طفقت تتفاقم الواحدة وراء الأخرى حتى أن ابنته عائشة قالت عنها: إنها تثقل كواهل العصبة من الرجال الأشداء.

وأهمية هذين الخبرين والنوازل التي ستتلوها عن الخليفة الثاني ابن الخطاب (أحد أضلاع مثلث السقيفة) أنها جميعاً حدثت في فجر العهد الخليفي قبل أن يتماس الخلفاء والصحاب بشعوب البلاد المتحضرة ويختلطوا بهم ويتأثروا بحضارتهم وثقافتهم ومدنيتهم ورقيهم.

(٣٦) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** ص ٢٣٤، مصدر سابق.

كانوا لم يخرجوا من جزيرته المبروكة بعد ومن ثم فإن شارات التبدّي وقسمات البداوة كانت ظاهرة للعيان؛ والأنساق والتقاليد والأعراف القبلية طازجة وطرية الخ...

ولذا فلم يكن مستغرباً أن يخرج أول الخلفاء الأربعة في اليوم التالي مباشرة لتلقيه البيعة وعلى كتفه أثواب القماش ليبيع ويشتري وأن يظل حتى بعد أن حلّ محل محمد في قيادة الثورة المجيدة التي غيّرت تاريخ المنطقة بل تاريخ العالم المعمور آنذاك الخ...

يظل يدور على بيوت جيرانه يعتقل الأبقار والماعز والنياق يحلبها الخ... ما كان ذلك مستغرباً بل كان المستغرب والمستنكر أن يفعل ابن أبي قحافة سواه وأن يستوعب التغير الذي حدث له من بائع قماش إلى حاكم. لأن تلك الطفرة أو النقلة كانت في حاجة إلى مستوى من الحضارة كان أبو بكر يفتقر إليه... ونكرر أن العجب كل العجب لمن يسوّغ هذه التصرفات ويُضفي عليها أوصافاً براقة مثل التواضع والتعفف الخ...

وتتضاعف الدهشة عندما يصدر هذا التبرير من عدد وفير من أصحاب الأسماء اللوامع والألقاب العلمية الفخيمة!!!

لا يختلف إثنان على أن ابن الخطاب من أكثر حكام المسلمين عرباً وأعاجم عدلاً ومن أشدهم حرصاً على التعرف على أحوال المحكومين (يسمونهم الرعية وفي قواميس اللغة الرعية هي الماشية التي ترعى وهذه اللفظة تشي بكيفية نظرتهم إلى المواطنين. اهـ) وكلا الأمرين محمود وواحد منهما كافٍ للإرتفاع بالأمير إلى رتبة سنية فما بالكم إذا اجتمعا فيه؛ وسوف نورد فيما يلي أمثلة سريعة ــ تحقق ما نقصد إليه ــ مما حفلت به كتب القدامى أو السلف والمحدثين مما يقدم برهاناً على عدل عمر ــ وإن التمسنا العذر

للأولين فيما ذهبوا إليه ولكن المحدثين ــ وجلهم إن لم نقل كلهم من أصحاب المكانة الرفيعة في فضاء الفكر الإسلامي ــ فكيف نسامحهم على مجاراة الأولين وفي موافقتهم إن تلك النوازل شواهد عدل ــ وحتى لا يذهب القارئ بعيداً فبداهة نحن لا يُتصور أننا نحسبها براهين ظلم وإفتئات ولكن ما نطرحه أنها في المقام الأول أدلة تبدّي وحجج بداوة وسنفصل البيان بعد سردها حتى يغدو أشد وضوحاً:

كان يحمل بنفسه المال إلى البادية القريبة من أثرب فيعطيه الناس في أيديهم.

في عام الرمادة كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به إلى الأعراب النازلين حول المدينة.

كان يدخل يده في عقرة البعير الأدبر ليداويه.

كان يداوي إبل الصدقة بالقطران في عز الهجير حتى قيل إنه قد أتعب من أتى بعده.

وهي قولة صدق لأن الأعراب والعربان والعرب من سكان أثرب/ المدينة وهم من هم على تلك الدرجة من البداوة اعتقدوا أن تلك الصور ذروة العدل وسنام الحرص على صوالح المواطنين (الرعية) فطلبوا ممن خلفه أن يأتي بمثلها ولما أدرك هؤلاء أو هذان بعد تماسهم بحضارات الموطؤين أنها صور خواطئ لا يجمل بالحاكم أن يباشرها (بنفسه) فأحجما عنها خاصة من جاء بعده مباشرة كانت النظرة المأفونة لدى الأعاريب في تلك الخصوصية هي إحدى علل الخروج عليه ثم قتله!

قال أسلم (مولى عمر بن الخطاب):

خرجنا مع عمر بن الخطاب (رض) إلى حرّة واقم حتى إذا كنا بحرار مكان قرب أثرب/ المدينة إذا نار تؤرث فقال يا أسلم: إني أرى ها هنا ركباناً قصّر بهم الليل والبرد فانطلق بنا... فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فدنونا منهم فسألهم ما بالكم؟ وما بال الصبية يتضاغون؟ فأجابت المرأة الجوع والله بيننا وبين عمر فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ــ فانطلقنا نحو (دار الدقيق) فأخرج عدلاً من دقيق وكبة من شحم وحملهما ــ وأبى أن أحملهما قائلاً أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك؟

وانتهى إلى المرأة والصبيان وطبخ لهم ثم أطعمهم حتى شبعوا فقالت له المرأة: جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.

في هذه الواقعة يتمثل تبدّى ابن الخطاب في فهمه لعدالة الحاكم من ضرورة أن يحمل على كتفيه الطعام ويطبخ للمرأة وصبيانها المحظوظين، وتقول رواية إنه كان ينفخ النار ويتخلل الدخان لحيته وكانت كثة!!! بل يتعداه إلى فكرته عن عدالة السماء التي لا تناله بركاتها إلا إذا حمل الطعام بنفسه وكأن السماء لا تستطيع أن تميز بين وظيفة الحمّال ووظيفة الخليفة، وهذا نلقاه في رد عمر على مولاه أسلم (أنت تحمل وزري يوم القيامة) كأن السماء لا تثيب الخليفة ولا تعده عادلاً رحيماً بالمحكومين (يسمونهم الرعية)!!! إلا إذا تحول من إمام أعظم إلى شيّال[٣٧]. وهذا لا شك فهم بدوى للعدالة السماوية ومن حسن الظن أن هذه

---

(٣٧) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، شال الشيء شولاً وشولاناً: ارتفع، أشاله: رفعه.

الفهوم البدوية قد تطوّرت عندما اختلط العرب الغزاة وعاينوا الحضارات والمدنيات التي دعسوها بأقدامهم القدسانية، والدهش لا ينقضي من الذين يحلمون بتلك الحقبة وينعتونها بـ (الذهبية) التي لم تر الإنسانية لها مثيلاً منذ ظهور آدم على الأرض ــ ويعقدون المؤتمرات والندوات لتمجيدها والتغني بها بل يعمل بعضهم على إعادتها بحذافيرها، ولك أن تتخيل ما يقوله العالم المتحضر عنا عندما تتحلق وسائط الميديا الدولية بكل ضروبها حول أحد حكّام المسلمين وتصوره وهو يحمل على كتفه غرارة دقيق ليوصلها بنفسه إلى (رعيته)!!! في البادية أو في الريف وتسجل له وهو يزبر بشدة أحد معاونيه الذي تقدم ليحملها نيابة عنه!!!

خبر آخر موجزه أن ابن الخطاب كان يَعسّ (يتفقد أحوال رعيته)!!! فرأى خيمة فإذا بها رجل وامرأة غريبان عن المدينة وقد ضرب المخاض الزوجة فهرول إلى منزله وحمل على كتفه طعاماً وأحضر زوجته أم كلثوم بنت عليّ فولّدتها وطبخ هو لهم الطعام.

في هذه النازلة تحوّل الخليفة أيضاً إلى حمّال ولم يكتفِ بذلك بل هبط بسليلة بني هاشم وابنة علي وفاطمة وأخت (شقيقة) الحسنين إلى دأية[٣٨].

تلك الوقائع مثبوتة ومشهورة في المصادر والمراجع أي في مؤلفات السلف وكتب الخلف ولا يماري فيها أحد بل إن فرق التبجيل والتعظيم والتفخيم تتبارى في ذكرها وإبرازها وتلميعها الخ... بحسبان أنها نياشين على صدر الخليفة الثاني ــ ومن ثم فلم

(٣٨) الحاضنة غير الأم من **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، وتقول العامة في مصر عنها (داية) بغير همز ويعنون بها القابلة أو المولدة.

نرَ مدعاة لتوثيقها لأننا طوال الرحلة التي قطعناها في هذا المؤلف بأسفاره الثلاث كنا حريصين على التوثيق لأن النوازل والأخبار والوقائع والأحداث التي كنا نوردها كانت تصدم المناوئ وتفجأ المشاكس وتدهش المعارض الخ... من هنا كان الحرص على التوثيق الدقيق لقطع الطريق على التوهين والتضعيف والهزؤ والسخرية والغمز واللمز الخ...

أما والأخبار محل رضا بل هي موضع فخار ومباهاة فلا ضرورة ثمة للتوثيق ــ ولو أننا على يقين تام أنه بعد قراءة هذا النقد الموضوعي سيحدث تراجع عنها يبدأ بالتشكيك في مصداقيتها والبحث سواء من ناحية المتن أو السند عما يساند هذا التمريض والتهزيل (من الهزال).

* * *

عن طارق بن شهاب قال: قدم عمر بن الخطاب الشام فلقيه الجنود عليه إزار وخفان وعمامة وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء وقد خلع خُفيه وجعلهما تحت إبطه، قالوا له: يا أمير المؤمنين الآن تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذه الحال، قال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نلتمس العز من غيره، خرجه الملاء وصاحب الفضائل[٣٩].

ورأى أبو عبيدة عمراً في ثوب مرقع فقال له: يا أمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جواداً ولبست ثياباً بيضاء لكان هذا أعظم في عيون الروم! فقال نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً.

في الأخبار السوابق على هذين الخبرين قرأنا أمثلة على تصرفات ابن الخطاب في الداخل أما هذان الخبران فإنهما يصورانه وهو في الخارج عند سفره إلى الشام لتوقيع الصلح فهو في ثوب

(٣٩) **الرياض النضرة** للمحب الطبري، ص ٤٢١، مصدر سابق.

مرقع عليه إزار وعمامة وينتعل خفين ويركب بعيراً وعندما صادفته مخاضة يخلعها ويضعهما تحت إبطيه ويأخذ برأس راحلته ويقودها وعندما ينصحه جنوده ليغير من هيئته يرفض وعندما يطلب منه أبو عبيدة (شريكه في ثلاثي السقيفة) أن يستبدل ببعيره جواداً وبثوبه ثياباً بيضاء يصر على الرفض وكان رده في الحالين أن الله أعزهم بالإسلام فلا يلتمسون العز من غيره أو من غير الله وهو رد غير سديد لأن الإسلام لا يحض على الرثاثة والركاكة، ومحمد كان يقول إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده، وفي مرة رأى رجلاً عليه أسمال بالية فهمّ أن يعطيه ما يصلح به هيئته فرد عليه الرجل أنه ميسور الحال فأمره أن يغيّر من صورته الزرية تلك الخ... إذن التمسح بالإسلام من جانب ابن الخطاب دفاعاً عن منظره الذي كان لا يليق بالمهمة التي كان عليه أن ينجزها لا يؤازره ــ وهو ليس أعمق فهماً للإسلام من محمد الذي كان يرتدي أحسن ما عنده من ثياب عندما كان يقابل الوفود التي كانت تأتي إليه من أقطار الجزيرة كافة لمبايعته والإقرار بقيادته للثورة المظفرة التي فجرها وفلح فيها وبصيرورته سيد الجزيرة بلا مدافع ــ إذن خالف عمر سنة محمد وهديه وسمته في هذه الخصوصية ــ فما هو التعليل الصحيح لمسلك الخليفة الثاني؟ لا شك أنه المستوى الحضاري الخفيض وهو نفسه الذي كان قد دفع ابن أبي قحافة إلى الخروج غداة بيعته وعلى كتفه أثواب القماش لبيعها وإلى إصراره على حلب منائح جيرته حتى بعد أن خلف محمداً في قيادة الثورة والسلطة ــ ولا يخطرنّ على بالك مقارنة محمد بوزيريه فهو بكل ما أوتي مما لا سبيل لحصره قد تمكن من الإنعتاق من موجبات مجتمعه وإكراهات بيئته[٤٠].

(٤٠) لمزيد من التفصيلات في هذا الشأن راجع السفر الأول وعنوانه **محمد والصحابة**.

قلنا في السفر الثاني إن الجناح اليميني من الثورة ومعه الذين ركبوا العربة الأخيرة من قطارها مؤخراً (الطلقاء) لهم ضلع في مقتل عمر بن الخطاب لأنه كان يشكّل حجر عثرة في طريقهم ومن ثم تحتم إزاحته ولو أننا لا نُسقط من الحساب وجود عناصر خارجية شاركت في المؤامرة.

وفي الحالتين ــ تدبير داخلي أو عمل خارجي أو هما معاً فالذي لا شك فيه أنه كان يتعين على الخليفة الثاني أن يدرك أنه مستهدف من الطرفين فصرامته في الداخل وحسابه العسير للصحاب والولاة والعمل الخ... ومراقبته لهم ولغيرهم واعتقاله كبار الصحبة داخل أسوار المدينة ويقظته الدائمة وتحسسه الأحوال من النواحي كافة حتى داخل البيوت ثم وطء بلاد كانت إلى عهدٍ قريب ذات سطوة حتى إنهم كانوا لا يجرؤون على دخولها إلا تجاراً... وكسح خيراتها ونزح عرق (علوجها) وقتل رجالها بما فيهم الذين يستأسرون منهم وسبي نسوانهم وذراريهم وبيعهم في أسواق النخاسة حتى بنات كسرى ومن تحته في الرتبة من المرازبة والدهاقين والإستيلاء على كنزوهم وأراضهيم الخ... كل هذه الأعمال في الداخل والخارج كان من الحتم اللازم أن توغر عليه الصدور وتؤرّث نيران العداوة في القلوب. فلو كان عمر على مستوى حضاري أرقى لاتخذ له حرساً يحميه، إنه لم يعد شيخ قبيلة ينام على الأرض فيطرب وينتشي عندما يسمع: عدلت فأمنت فنمت... إنه غدا حاكم إمبراطورية تضم الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر الخ... بيد أنه للأسف لم يفطن للأخطار المحدقة به ومن ثم كان الوافدون والرسل يأتونه فيجدونه على تلك الصورة الساذجة ــ ثوب مرقع ــ نوم على الأرض ــ لا حرس ولا حجاب، أما من في الداخل فقد كانوا أشد معاينة لأحواله وإطلاعاً عليها

وترتيباً على ذلك تم اغتياله بمنتهى اليسر في غاية السهولة.

والذي لا يماري في أن المؤامرة لها أطراف متشابكون أي داخلية وخارجية عليه أن يتذكر أن القاتل مجوسيّ وهو غلام المغيرة بن شعبة وكان على صلة بالهرمزان وجفينة ومرّ عبد الرحمان بن عوف عليهم وهم مجتمعون ورأى الخنجر ذا الرأسين الذي لا تعرف العرب مثله والذي طُعن به فيما بعد ابن الخطاب ولم يبلّغ ابن عوف الخليفة الثاني بأي شيء!!!

وهنا ينتصب سؤال على قدر وفير من الخطر (الأهمية):

وهو لماذا سكت عبد الرحمان (زعيم الجناح اليميني) ولم يخبر بالواقعة؟

ومن المضحك المبكي أن عمراً عندما غاله المجوسي وكان يؤم المصلين في مسجد محمد ـــ تناول يد عبد الرحمان بن عوف فقدمه للصلاة بالناس فهل هي إشارة من عمر إلى ابن عوف وإلى المسلمين جميعهم أن الجناح اليميني للثورة المظفرة التي فلقها محمد ـــ قد انتصر أخيراً وغدت السلطة في يديه، إذ أن إمامة الصلاة كانت عندهم أمارة على الإمامة ولنذكّر هنا أن محمداً عندما مرض مرض الموت وقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً بعد أن أدى الأمانة كاملة وحقق حلم أجداده بإقامة دولة قريش التي تحكم الجزيرة كلها.

ندب ابن أبي قحافة للصلاة بالمسلمين (مُرو أبا بكر فليصل بالناس) ـــ ولذا اتخذها (البكريون) ذريعة لمبايعته وقالوا: رضيه محمد لديننا أفلا نرضاه لدينانا ـــ إذن إمامة الصلاة وهي الإمامة الصغرى كانت تقارن الخلافة أو الإمامة العظمى في عرفهم ومفهومهم ـــ وإلاّ فلماذا لم يختر عمر صحابياً آخر خلا ابن عوف

مثل عليّ أو طلحة أو عمار أو الزبير أو سعيد بن زيد الخ...

ألا يحمل إختياره لابن عوف (رأس اليمين) دلالة لا تخفي على الفطن اللبيب خاصة وأن ابن الخطاب كان كما شهد له محمد عبقرياً لا يفري فريه أحد!!!

رحم الله عمراً حتى وهو يعاني سكرات الموت لم تفارقه عبقريته فأرسل تلك اللفتة الموحية والتي تخاطب بلسان فصيح مبين: أخيراً أمسك (اليمين) بموقد الثورة! ولا صلة للعبقرية والذكاء والفطانة بالمستوى الحضاري ــ ففي المجتمعات البدائية عباقرة وأذكياء وأصحاب فطانة كما في المجتمعات المتحضرة فلا تخلط بين الأمرين.

* * *

لؤلؤة المجوسي قاتل عمر كان غلاماً للمغيرة بن شعبة الذي (كان موصوفاً بالدهاء)(٤١) وقد رثاه مصقلة بن هبيرة بقصيدة منها: حية في الوجاء أربد لا ينفع منه السليم نفث الراقي(٤٢) وهو (أول من رشي في الإسلام)(٤٣) ولم يكن بعيداً عن الجناح اليميني والطلقاء (فلما كان حين الحكمين لحق بمعاوية)(٤٤) الطليق ابن الطليق فكافاه على لحوقه به ومعاضدته إياه (فلما قُتل عليّ وصالح معاوية الحسن ودخل الكوفة ولاّه عليها معاوية)(٤٥) (فلم يزل

(٤١) **أسد الغابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الخامس، ص ٢٤٨.
(٤٢) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الرابع، ص ٤٤٦، مصدر سابق، وتقول العامة في مصر: لدغته والقبر. ا. هـ.
(٤٣) **أسد الغابة** المجلد الخامس، ص ٢٤٨.
(٤٤) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٤٥) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.

عليها حتى مات)[٤٦] والذي لا ينتطح فيه عنزان أنه لولا قتل عمر لما انفسح الطريق أمام معاوية ليليّ الخلافة فمن أولى بالجزاء ممن عاونه على زحزحة العراقيل.

وقد يعترض مناوئ ويقول كيف يتفق ذلك والمجوسي فيروز أبو لؤلؤة كان مغاضباً لعمرٍ لأنه لم ينتصف له من المغيرة الذي كان يتقاضى منه جُعلاً يومياً مرتفعاً (في نظره)!!!

والرد يسير:

الداهية المجمع على دهائه والحية الرقطاء حسب توصيف ابن هبيرة له والذي تمكّن من رشوة يرفأ غلام عمر هل يصعب عليه أن يعقد صفقة مع عبده فيروز يمنيّة فيها بالحرية وهو بدهوه المعروف يعلم أن أبا لؤلؤة إنْ فعلها لن يفلت من القصاص وبذلك يرمي عصفورين بحجر واحد!!!

والمغيرة متوسط الإسلام (إذ أن أول مشاهده الحديبية)[٤٧] ومن قبيلة ثقيف المنافس التقليدي لقريش والتي تحقد عليها لتفردها بالعز والسلطان، ولا ننسى أن عبد الرحمان بن عوف كان صهراً لبيت رفيع العماد فيها إذ كان زوجاً لبادنة بنت غيلان[٤٨].

أحد أكابر أشرافها وأغنيائها إذن الوشيجة بين الرجلين (ابن عوف مقدم جناح اليمين في الثورة والداهية ابن شعبة) كانت متينة.

تلك كانت لمحة في غاية العجلة عن مؤامرة قتل ابن الخطاب

---

(٤٦) **أسد الغابة** ذات المجلد والصفحة.
(٤٧) **الاستيعاب**، المجلد ذاته والصفحة نفسها.
(٤٨) **الرياض النضرة**، لـ المحب الطبري ص ٧٣٣، مصدر سابق.

التي لا شك أنها ثلمت بنيان الإسلام. ولعلنا لا نبدو مغالين إذا ذهبنا إلى أنها هزته من أساسه ولذا فإن الذين أخبروا أن الجن حزنت لموته ورثته بقصائد عصماء معذورون لأنه يكشف عن مدى أساهم وإحساسهم بالوجيعة حتى إنهم يُشركون فيها كائنات غير مرئية وينسبون إليها شعراً بليغاً.

وعود إلى سياقة القول:

لم يدرك ابن الخطاب أن رأسه هدف يسعى لنيله فرقاء متعددون منهم من الخارج ومنهم من الداخل ولو كان في مستوى أرقى في سلم الحضارة لاتخذ حراسة مكثفة ــ ومن الغريب أنه وقد لازم قائد الثورة المجيدة أعواماً طوالاً لم يستفد من تجاربه ــ فقد كان محمد يتخذ حرساً يحوطه لأنه فطن إلى أنه مُستهدف من الكثيرين والأغرب من ذلك أن ابن الخطاب نفسه كان مسؤول كتيبة الحرس.

وقد ذكرنا في السِفْر الثاني المكيدة التي دبرها صفوان بن أمية لقتل محمد ليأخذ بثأره منه فاتفق مع أحد شياطين قريش ــ عمير بن وهب ــ على ذلك مقابل أن يؤدي عنه دينه وأن يخلفه في أهله وعياله، فما إن وصل المدينة وأبصره حتى أمسك به ودخل به ملبّباً على محمد فأمره بإرساله حتى وقتذاك أمر عمر جنود الحراسة أن يحيطوا بالقائد طوال مدة جلوس ذلك المارد بين يديه وبقية القصة أن عميراً بهرته شخصية محمد المتألقة دوماً فأسلم[٤٩] مثل سريع نسوقه للتدليل على أمرين:

الأول: أن محمداً كما رددنا بعكس صحابه لم يخضع

(٤٩) **الاستيعاب**، المجلد ٣ ص ١٢٢٢ مصدر سابق.

للأنساق التي سادت مجتمعه إنما ارتفع عنها وحاول جاهداً أن يسمو بها.

الآخر: أن عمراً كغيره على عكس محمد لم يكن في مقدوره أن يخترق حاجز المستوى الحضاري الذي عاش في حنايا تلك البيئة نصف البدوية.

ومن هنا لم يتخذ كمحمد سرية حرس تحسباً لأي ظرف ووقاية من أي كيد داخلي أو خارجي ــ ومما يثير الغيظ أن ابن الخطاب كان قد أحس بالخطر وملا عليه وجدانه وظل يلازمه في منامه ويظهر له على هيئة رؤى وأحلام وهذا أحد طرق تفسير فرويد للأحلام: ففي خطبته الجمعة الأخيرة قال: رأيت في منامي أن ديكاً أحمر نقرني نقرة أو نقرتين فحدّثت برؤياي أحد العالمين بـ (تأويل الأحاديث) فقال: يقتلك رجل من الأعاجم ــ والأحلام لعبت دوراً متميزاً في حياة عمر شأنه شأن أبناء مجتمعه، فذلك المجتمع الوطيء المستوى الحضاري تغدو فيه للغيبيات واللامحسوسات الخ... مثل الفأل والطيرة والرؤى والعين والحسد والعمل والسحر... مكانة بارزة ذات أثر فعال. وسبق أن ذكرنا أن عمراً عزل قاضياً بعد أن عينه لأنه حَلَم حُلماً أوّله ابن الخطاب أنه من الآفلين وهم ميراثاً من جدهم الأعلى إبراهيم ــ جذر الديانات السامية الثلاث ــ (لا يحبون الآفلين)!!!

وكان حريّاً بالخليفة الثاني بعد أن حذّره مفسر الأحلام بقتل أحد الأعاجم إياه أن يأخذ حذره بيد أن أفقه الحضاري غلبه فخسر المسلمون باغتياله خسارة لم تعوض.

* * *

المستوى الحضاري المنخفض

وقال محمد ابن اسحق وغيره:

نزلت في حفاة بني تميم ــ قدم وفد منهم على النبي (ص) فدخلوا المسجد فنادوا النبي (ص) من وراء حجرته أن أخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين فأذى ذلك من صياحهم النبي (ص) فخرج إليهم فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرك ونزل فيهم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم[٥٠].

وفي تفسير القرطبي أسماء أخرى (قال مقاتل: كانوا تسعة عشر: قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وسويد بن هاشم وخالد بن مالك وعطاء بن حابس والقعقاع بن معبد ووكيع بن وكيع وعيينة بن حصن وهو الأحمق المطاع وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة (رمح) أي يتبعه)[٥١].

والأربعة الذين ذكرهم الواحدي: الأقرع وعيينة والزبرقان وهم رؤساؤهم ــ صحابة بلا خلاف ــ ولقد سجّل عليهم القرآن أن (أكثرهم لا يعقلون) ــ ويفسرها الرازي بـ (يعني الصادر منهم لما لم يكن مقروناً بحسبن الأدب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان)[٥٢].

---

(٥٠) **أسباب النزول** لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، ٤٦٨هـ، ص ٢٥٩. طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٧م، مؤسسة الحلبي وشركاه بمصر.

(٥١) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، ص ٦١٢٠، طبعة كتاب الشعب بمصر.

(٥٢) **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** للإمام فخر الدين البكري الرازي، المجلد الرابع عشر، ص ٣٣٦، الطبعة الأولى ١٩٩٣/ ١٤١٤هـ، مطبعة دار الغد العربي بالقاهرة.

ولا يقال دفعاً لذلك أن الآية المذكورة بشأن الأعراب ذلك أن هؤلاء يشكّلون أكثر من ثمانين بالمائة من سكان شبه الجزيرة العربية آنذاك إذ باستثناء قريش (مكة) وثقيف (الطائف) وبني قيلة (أثرب) وإلى حد ما بني حنيفة (اليمامة) فإن باقي القبائل متبديّة.

كما أن الفرق بين العرب قاطني الأربعة قرى التي ألمعنا إليها وبين الأعاريب سائر القبائل ليس فرقاً في النوع ولكن في الدرجة.

فإذا كان (أكثر) الأعراب/ البدو وتعدادهم لا يقل عن ٨٠٪ من مجمل السكان ـــ أكثرهم بشهادة القرآن نفسه (لا يعقلون) انتصب البرهان الدامغ والدليل القاطع على أن ذلك المجتمع كان في رتبة حضارية هزيلة.

* * *

وإذا كان الخبر السابق تعلق بالأعراب والأعاريب فإنْ التالي بطلاه إثنان من أكابر الصحبة:

روى البخاري والترمذي عن ابن أبي مليكة قال حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي (ص) فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله فتكلما عند النبي (ص) حتى ارتفعت أصواتهما فقال أبو بكر لعمر ما أردت إلا خلافي قال فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي)[٥٣].

هذا الحديث ورد في إثنين من كتب الصحاح الستة هما البخاري والترمذي ـــ إذن السبيل إلى توهينه مقطوع وهو يؤكد أن

(٥٣) **تفسير القرطبي** ص ٦١٢٣، مصدر سابق.

العلاقة بين الشيخين ــ ابن أبي قحافة وابن الخطاب لم تكن كالسمن على العسل كما يحاول المُحَدثون إظهاره بل كانت بينهما مشاحنات ومدابرات(٥٤) وقد أوضحنا هذه الحقيقة وساندناها بالعديد من الشواهد في السِفْر الثاني إنما الذي يهمنا أنهما كانا ينسيان نفسيهما ويتحاوران بعنف ويتجادلان بشطط في حضرة القائد؛ وأصحاب الحضارات العريقة لا يفعلون ذلك بل يوقّرون سادتهم وزعماءهم الخ... ويستحيل عليهم أن يرفعوا أصواتهم عندهم لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتباراً وعظمة(٥٥).

وإذا كان أبو بكر وعمر وهما يسلكان ذلك المسلك الذي انتقده القرآن فما بالك بغيرهما من الصحاب ممن هم في طبقتهم ثم بعامتهم ثم سائر أتباع محمد ــ كيف كان حالهم، وإذا كان ذلك دأبهم في الكلام مع بعضهم البعض في وجود القائد الذي يكنون له كل تقدير وتقديس فكيف إذن كانوا يديرون النقاش بينهم وهو ليس بينهم!!!

إن الصوت الخفيض والحوار الهادئ معلمان بارزان من معالم التحضر سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة ــ ولذلك يوصف الرجل بأنه سوقي إذا كان جهير الصوت يتكلم بصوت مرتفع لأنهم في السوق يتنادون بأصوات عالية ولا يتهامسون إنما يتهامس الملوك ولذلك عندما فرغ محمد من تلاوة الآية كان ابن الخطاب لا يناجيه إلا همساً كأخي السرار الذي يخبر مخاطبه بسر مصون

---

(٥٤) في **أساس اللغة** للزمخشري، تدابر القوم: اختلفوا وتعادوا.
(٥٥) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب** للفخر الرازي، المجلد الرابع عشر، ص ٣٥٩، مصدر سابق.

(فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي (ص) لم يسمع كلامه حتى يستفهمه)[٥٦].

* * *

في المجتمعات التي هي في رتبة معقولة من الحضارة: إذا دُعي أشخاص لوليمة عرس فإنهم ينصرفون بعد تناول الطعام بوقت معقول (نحن لا نتناول الحفلات الصاخبة التي تقام في النوادي والفنادق ويحييها الطبّالون والزمارون والراقصون) أما إذا كانوا جفاة غلاظ الحس والشعور ليس بينهم وبين المدنية أوهى صلة فإنه بعد أن يطعموا يظلون جالسين غير مدركين أن العريس يتشوق أن يخلو بعروسه والعروس تنتظر عريسها بلهفة والزوج يحب أن ينفرد بقرينته والزوجة تتشوق إلى حليلها الخ...

هذا محك حاسم في تبيان موقع أي مجتمع من مرقاة الحضارة.

أخرج الشيخان (يعني البخاري ومسلم) عن أنس بن مالك قال:

لما تزوج النبي (ص) دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة ثم انطلقوا فجئت فأخبرت النبي (ص) أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل وذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه وأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ إلى قوله: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ الآية ٥٣ من سورة الأحزاب[٥٧].

والحديث في أصح كتابين بعد القرآن: البخاري ومسلم ــ ولم يورد

(٥٦) **الجامع لأحكام القرآن** أو **تفسير القرطبي** ص ٦١٢٣ مصدر سابق.
(٥٧) **أسباب النزول** لجلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ ص ١٤٢ ــ طبعة ١٣٨٢هـ كتاب التحرير رقم ٢ ــ القاهرة.

أسماء الصحابة الذين مكثوا عند محمد الذين تأذى من طول لبثهم ولا مشاحة في أنهم من أكابرهم لأنهم ضيوف القائد.

كان بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبي (ص) في عرس زينب[٥٨] أي أن المدعوين كانوا من كبار الصحابة وهذا أمر بديهي والذي يلفت الانتباه أنه حتى بعد انصراف الضيوف الذين أثقلوا على القائد إذا بالصحابي الشهير أنس بن مالك ــ كان وقتها يخدم محمداً ــ يريد أن يدخل معه حجرته في ليلة عرسه والحق أننا لم نجد وصفاً ننعت به مسلك أنس ذاك ولا يقال دفعاً لذلك أن ابن مالك كان ذاك صبياً ــ فالرد عليه: أن المجتمع المتحضر يكون شيبه وشبابه وصبيانه وأطفاله جميعهم على قدر مناسب من التمدن.

ولقد أورد الواحدي النيسابوري رواية أخرى للخبر عينه[٥٩] مما يقطع بصحته ولو أنه في غير حاجة إلى توثيق بعد أن حمله إلينا صحيحا البخاري ومسلم وهما أعلى كتابين في الحديث ويذكر لنا القرطبي واقعة مهمة هي أن (زوجته مولّية وجهها إلى الحائط)[٦٠] مما يعني أن المدعوين كانوا على علم تام بموجبات الحال يعرفونها بحواسهم وليسوا بحاجة إلى إدراكها بعقولهم مما لا يدع مجالاً للقول بأن مدارك العقول تتفاوت ــ بمعنى أن الزوجة ها هي أمامهم جالسة ووجهها إلى الحائط تنتظر انصرافهم ــ بيد أن العبرة بالمستوى الحضاري لا بالباصرة.

فلو كان مدعواً أعمى متحضراً لفطن لضرورة الإنصراف ببصريته.

ويعمم القرطبي البلوى إذ لم يقصرها على دعوة عرس زينب بنت جحش التي زوجتها السماء. ولكنه يورد حديثاً مفاده أن ذياك المسلك السمج كان طقساً يومياً يؤديه عدد من الصحبة حتى ثقل على نفس

---

(٥٨) **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** للفخر الرازي، ص ٦١٤، المجلد الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٩٢م/ ١٤١٢هـ، دار الغد العربي بمصر.
(٥٩) **أسباب النزول** للواحدي ص ٢٤٢.
(٦٠) **الجامع لأحكام القرآن** أو **تفسير القرطبي**، ص ٥٣٠٦، المجلد الثامن، كتاب الشعب، مصدر سابق.

محمد وأهل بيته وآذاه وآلمه وهو الذي كان أشد حياءً من العذراء في خدرها ــ وكالعادة كما كررنا كثيراً أنه في مثل هذه النوازل المعضلة كان يقرأ عليهم آية من القرآن فيها حل المشكلة:

قال ابن عباس: نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي (ص) فيدخلون قبل أن يدرك الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون[٦١].

وإذا التمسنا العذر لأولئك الصحاب في وفودهم على منزل محمد لتناول الطعام عنده وذلك لفقرهم مع ملاحظة أن الفقر من أشد القرناء إخلاصاً للتبدّي والجفاوة والغلظة الخ...

ولكن ما هو عذرهم في المكوث بعد الأكل حتى الإملال.

وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم[٦٢].

هذا واحد من السلف يصف بعض الصحبة (أنهم ثقلاء) و(أن الشرع لم يحتملهم) ولا يجرؤ أحد من رجال الدين الآن على ذلك[٦٣] مما يقطع بأن حرية الفكر تضيق باستمرار.

* * *

في الشعوب المتحضرة تعامل النساء بكياسة ولطف أما زوجات قادتهم ورؤسائهم الخ... فلا يجدن منهم إلاّ كل تقدير واحترام إكراماً لهن أولاً وتوقيراً لبعولتهن أصحاب المقام الرفيع عندهم أخيراً أي أنهم يلاقين تكريماً يقوم على ساقين. أما في الشعوب الجافية المتبدية فتتسم معاملة الرجال للنساء فيها بالفظاظة والغلظة والخطاب الزاعق والصوت العالي والنبرة المرتفعة.

---

(٦١) **تفسير القرطبي** المجلد الثامن، ص ٥٣٠٦ مصدر سابق.
(٦٢) **تفسير القرطبي**، الصفحة نفسها من المجلد نفسه.
(٦٣) في مذهبنا أن في الإسلام كما في الديانتيْن الساميتيْن اللتيْن سبقتاه في التاريخ لا في الرتبة رجال دين.

أخرج البخاري عن عائشة قالت: خرجت سودة ــ بعدما ضرب الحجاب ــ لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين؟ قالت فانكفأت راجعة ورسول الله (ص) في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت وقالت: يا رسول الله (ص) خرجت لبعض حاجتي فقال عمر كذا وكذا قالت: فأوحى الله إليه ثم رُفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال: إنه قد أُذن لكُنّ أن تخرجن لحاجتكن[٦٤].

وبقية الحديث أن محمداً تلا الآية التاسعة والخمسين من سورة الأحزاب ودائماً تقّب مشكلة يقرأ آية من القرآن تحلها.

أين كانت تذهب سودة بنت زمعة آنذاك؟

كن يتبرزن في الصحراء قبل أن تُتخذ الكُنُف[٦٥] وقد تأكد ذلك العرف في حديث الإفك عندما خرجت عائشة مع أم مسطح بن أثاثة لقضاء الحاجة في الصحراء وقولها لم نكن نتخذ الكنف في بيوتنا بعد.

وهذا تقليد ينهض دليلاً على تبدّي ذلك المجتمع وسذاجته وبداوته.

سودة زوجة محمد تتوجه لقضاء حاجتها في الصحراء كعادتهم وكان ذلك يتم مساءً ــ فيتعرض لها ابن الخطاب ــ وهو لا شك يعرف أين تقصد ولماذا ــ ثم يُسمعها كلمات جوارح تؤذي شعورها المرهف فاضطرت إلى العودة إلى منزلها ولك أن تتصور مدى الضيق والحروجة والمعاناة التي كابدتها إذ لم تقض حاجتها فهل هكذا تخاطب السيدات وخاصة زوجات القائد والزعيم؟

---

(٦٤) **أسباب النزول** للسيوطي، ص ١٤٣، مصدر سابق.
(٦٥) **تفسير القرطبي**، ص ٥٣٢٥، مصدر سابق.

ألم يكن حريّاً به أن يؤخر ملاحظته القاسية لحين فراغها من قضاء حاجتها؟

وبأي حق يخاطب عمر زوجة قائده وبتلك اللهجة الجافية؟

إذا كان لديه ملحظ على ثياب أو هيئة إحداهن فلا يملك إلا أن يهمس به وبكل أدب في إذن محمد؛ بيد أن تصرف ابن الخطاب يُغتفر له إذ هو ابن مجتمعه وربيب بيئته التي لا يعد فيها مثله منكراً!!!

* * *

أن يتمنى شخص الزواج من حليلة صديقه غِبّ وفاته فهذا أمر مستشنع في مجتمع لديه أدنى مُسكة من حضارة أو أثر من مدنية أو مثقال ذرة من ترقٍ.

أما أن يشتهي نكاح زوجة قائده وسيده وزعيمه الخ... فهذه هي الداهية الدهياء وقاصمة الظهر ولكنها حدثت في مجتمع الصحبة شبه البدائي ومن من؟

من أحد أكابره اللصيقين بقائد الثورة المظفرة والقريبين منه وعضو مجلس شوراه (العشرة المبشرين بالجنة).

وسبق أن ألمعنا إلى أن كتب التراث تحتوي على حقائق مذهلة أغرب من الخيال عينه وأن الخلف الميمون يعتّم عليها ويرميها في دائرة النسيان والتناسي فكم واحد منهم كتب عن هذا الصحابي إنما لا يقرب أبداً منها وكم مفسر حديث تناول الآية المتعلقة بها بيد أنه يتغافل عن سبب نزولها حتى لا يحكيها:

قال ابن عباس: قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله (ص) على حراء قال في نفسه لو توفي رسول الله (ص) لتزوجت عائشة وهي بنت عمي قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله...

وحكى مكي عن معمر أنه قال: هو طلحة بن عبيد الله[٦٦].

والإشارة التي وردت بالخبر هي بنت عمي تفسيرها أن كلا من أبي بكر وطلحة من تيم (أحد بطون قريش الخفيضة).

وأخرج ابن أبي حاتم عن الذي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت الآية ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً...﴾.

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة بن عبيد الله قال: إذا توفي رسول الله (ص) تزوجت عائشة... وأخرج جويبر أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي (ص) فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي (ص) لا تقومي هذا المقام بعد يومك هذا فقال: يا رسول الله إنها إبنة عمي والله ما قلت لها منكراً ولا قالت لي قال النبي (ص): قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله وإنه ليس أحد أغير مني... فمضى ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجها من بعدها فأنزل الله هذه الآية[٦٧].

ورغم إبهام اسم الرجل في الخبر الأخير إلاّ أن الشواهد جميعها تقطع بأنه طلحة ولم يُذكر اسم الصحابي الذي قال تلك القولة النكراء ولكن الأمارات تدل عليه.

قال ابن عباس في رواية عطاء قال رجل من سادة قريش: لو توفي رسول الله (ص) لتزوجت عائشة فأنزل الله تعالى الآية (ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً)[٦٨] نخلص مما تقدم أن الخبر أكيد وموثق ولا مطعن عليه ــ

---

(٦٦) **تفسير القرطبي**، المجلد ١٢ ص ٥٣١٠، طبعة كتاب الشعب، مصدر سابق.
(٦٧) **أسباب النزول** للسيوطي ص ١٤٣، مصدر سابق.
(٦٨) **أسباب النزول** لأبي الحسن الواحدي.

فهذا طلحة بن عبيد الله ــ يصرح بأنه بعد وفاة محمد ــ سوف يتزوج عائشة ابنة عمه ــ وحتى لو قيل ليس هو بل رجل آخر فإنه لا يغيّر من الأمر شيئاً لأن تتمة الخبر أنه (من سادة قريش) أي أنه من أعيان الصحابة.

قد تبرز أهمية لإسم القاتل بيد أن المغزى العميق هو جوار صدور مثل تلك القالة في ذلك المجتمع واحتمال تكرارها مما استدعى تلاوة آية قرآنية تقضي عليها وتستأصلها من جذرها!!!.

هذه الواقعة مثل سوابقها تقدم برهاناً على إنخفاض الرتبة الحضارية لمجتمع الصحاب.

* * *

الحرف المعروفة في مجتمع الصحابة

من المؤشرات المعطاءة وغزيرة الدلالة على المستوى الحضاري لأي مجتمع الحرف والعمالات التي تنتشر فيه، ونورد فيما يلي بعض الحرف المعروفة من مجتمع الصحابة موضوع هذا الكتاب:

أ ــ السقاء:

كان أبو عقيل صاحب الصاع الذي لمزه المنافقون واسمه جثجاث سقّاء يحمل الماء على ظهره ــ رُوي عن ابن عباس (رض) في قوله تعالى: ﴿الذين يلمزون المطوعين...﴾ أن رسول الله (ص) حضّ على الصدقة يوماً فجاء عبد الرحمان بن عوف بنصف ماله أربعة آلاف وأربعمائة درهم... وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال ما لي غير صاعين نقلت فيهما الماء على ظهري حبست أحدهما لعيالي وجئت بالآخر. فقال المنافقون: إن الله لغني عن صاع هذا[٦٩].

ب ــ الحجّام:

أبو هند واسمه عبد الله وهو مولى فروة بن عمرو بن البياض شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) عدا غزوة بدر ويسمى حجّام رسول الله (ص) وله أخ حجّام أيضاً اسمه أبو طيبة وهو من موالي بني حارثة، وقد ثبت في حديث عن أنس بن مالك (رض) أن رسول الله (ص) حجمه أبو طيبة وأمر له بصاعين من طعام كما أن أبا طيبة ــ أخاه ــ حجم أم المؤمنين أم سلمة (رض) وكان أخاها من الرضاعة ــ بعد أن استأذنت النبي (ص) في ذلك كما كان هناك

(٦٩) **كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (ص) من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية** لأبي الحسن علي محمد المعروف بالخزاعي التلمساني، المتوفي سنة ٧٨٩هـ، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة ص ٧٥٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وزارة الأوقاف، مصر.

حجّامٌ آخر اسمه سالم كان يعرف بسالم الحجّام. حجم رسول الله (ص)[٧٠].

ج ــ ناحت الأقداح:

كان أبو رافع (رض) مولى رسول الله (ص) مشهوراً بنحت الأقداح عندما كان يعمل عند العباس عم رسول الله بمكة، حيث كان ينحت له الأقداح في حجرة زمزم في المسجد الحرام قبل أن يكون مولى رسول الله[٧١].

وأما ناحت الأقداح فقد ذكر ابن اسحق (رحم) في السير عن أبي رافع مولى رسول الله (ص)... قال: وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس أنحت أقداحي وعندي أم الفضل (زوجة العباس بن عبد المطلب سيد أبي رافع ومولاه) جالسة...[٧٢].

د ــ الدبّاغ:

ذكر أبو بكر بن دريد (رحم) في كتاب (الوشاح) له في باب الصناعات ثم في باب: من كان دبّاغاً الحارث بن صبيرة وقال أبو عمر ابن عبد البر (رحم) في (الاستيعاب) أبو وداعة الحارث بن صبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم أسلم يوم الفتح هو وابنه[٧٣].

---

(٧٠) **الإصابة في معرفة الصحابة** للسيوطي ج ٤ ص ٢١١ ــ ١١٤، **الروض الآنف** للسهيلي، ج ٣، ص ٦٦ **سنن الدارمي** ج ٢ ص ٢٧٢، نقلاً عن **الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (ص)** تأليف عبد العزيز العمري، ص ٢٥٣، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية.

(٧١) **الروض الآنف** للسهيلي ٣/ ٣، نقلاً عن كتاب **الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (ص)** لعبد العزيز العمري، ص ٤٠١، مصدر سابق.

(٧٢) **الدولة الإسلامية نظامها وعمالاتها** تأليف رفاعة رافع الطهطاوي، تعليق عبد الرحمان حسن محمود وفاروق حامد بدر الطبعة ١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، مكتبة الآداب (علي حسن)، القاهرة.

(٧٣) **كتاب تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧٣٦، مصدر سابق.

هـ ــ الخوّاص:

كان الأنصار في المدينة يعملون في الخوص وقد تعلم سلمان الفارسي هذه الصنعة منهم واتخذها حرفة يأكل منها وقد استمر سلمان الفارسي يعمل الخوص حتى بعد أن أصبح أميراً على المدائن! وذكر معمر عن رجل من أصحابه قال: دخل قوم على سلمان وهو أمير على المدائن وهو يعمل هذا الخوض فقيل له لم تعمل وأنت أمير ويجري عليك رزق؟

فقال إني أحب أن آكل من عمل يدي(٧٤).

ونورد الملاحظة عينها التي ذكرناها بشأن ابن أبي قحافة الخليفة الأول عندما خرج في أول يوم بعد البيعة وعلى كتفه أثواب القماش لبيعها في السوق فقابله عمر وأبو عبيدة (باقي أضلاع المثلث الذي أخفى خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة الخ...) وسألاه عما يفعل، ولما أخبرهما قررا أن يفرضا له جُعلاً لقاء رئاسته للدولة ويترك البيع والشراء. فأبو بكر لم يتنبه إلى أنه وقد غدا خليفة أصبح كل وقته ملكاً للمحكومين وبالمثل فإن سلمان الفارسي لم يدرك أن عمله الخوص ثم تسويقه يتنافى مع عمله كأمير لا من ناحية المظهر بل من ناحية المخبر لأنه يجب أن يشغل نفسه طوال الوقت بهموم الإمارة أما قوله (أحب أن آكل من عمل يدي)!!! فمردود عليه أن النظر في أمور المحكومين (يسمونهم الرعية)! من أجلّ الأعمال ويفوق (الخواصة) لو أداه على وجهه الأمثل.

بيد أنه عاش في ذياك المجتمع فإنّ تصرفه ذلك (إصراره على عمل الخوص وتسويقه وهو أمير على المدائن) يتسق مع الرتبة

---

(٧٤) **كتاب تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي التلمساني، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة، ص ٨٣٧، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الأوقاف مصر.

الحضارية التي كانت سائدة فيه ولا يقال دفعاً لذلك إن سلمان كان فارسياً أي أعجمياً وليس عربياً ــ فذلك مردود عليه بأن سلمان ــ وقد اعتبره محمد من آل البيت ــ عاش ردحاً من عمره المديد في ذاك المجتمع فلا بد أنه ينطبع ببصماته.

و ــ الحداد أو القين:

وأما الحدادون الذين عاصروا رسول الله (ص) فنجد منهم الصحابي الجليل خَبّاب بن الأرَتّ الذي كان حداداً في مكة أول الدعوة وكان يصنع للناس كثيراً من الحاجات من السلاح والأواني، ومنهم مرزوق الصيقل وقد ذكر أنه صقل سيف رسول الله (ص) ذا الفقار...

والأزرق بن عقبة الثقفي كان رومياً حداداً وهو من رقيق أهل الطائف الذين نزلوا إلى رسول الله (ص) أثناء حصاره للطائف فأعتقهم[٧٥].

روى البخاري (رحم) عن أنس بن مالك (رض) قال: دخلنا مع رسول الله (ص) على أبي سيف القين وكان ظئراً لابراهيم فأخذه رسول الله (ص) فقبله وشمه...

وفي حديث موت إبراهيم... فصادفنا أبا سيف في كبره وقد امتلاء البيت دخاناً... والقين هو الحداد والجمع قيون ــ وأبو سيف هو البراء بن أوس بن خالد... بن مازن بن النجار وزوجته أم بردة أرضعت إبراهيم لبنها[٧٦].

ز ــ الحلاق:

وقد ورد ذكر لبعض الحلاقين المشهورين أيام الرسول (ص) على

---

(٧٥) **صحيح البخاري** ج ٣، ص ١٣، الشوكاني **فتح القدير** ٣/ ٣٤٩، ابن كثير **التفسير** ٣/ ١٣٥، البلاذري **فتح البلدان** ص ٦٧، نقلاً عن **الحرف والصناعات في عصر الرسول (ص)** لعبد العزيز العمري، ص ٢٧٠ ــ ٣٧١، مصدر سابق.

(٧٦) **كتاب تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧٢٩، مصدر سابق.

رأسهم أبو هند مولى فروة بن عمر البياض من الأنصار ــ حجام رسول الله (ص) ــ (أي جمع بين الحجامة والحلاقة) ــ ومنهم معمر بن عبد الله بن فضلة ــ ص ــ وفراش بن أمية بن ربيعة الكليبي ــ كما ذكر أن معاوية بن أبي سفيان ــ رض ــ حلق لرسول الله ــ[٧٧].

ح ــ الخياط أو الحائك:

يرجّح وجود من يجيدون الحياكة والنسيج بدليل ما ورد عن سنان بن سعد (رض) قال: حِكْت للنبي (ص) جبة من صوف وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: انظروا ما أحسنها وما أبهجها... فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله هبها لي قال: فكان إذا سئل شيئاً لم يبخل به فدفعها إليه...[٧٨].

ط ــ التمّار ــ بائع التمور:

نبهان التمار وكنيته أبو مقبل وهو الذي جاءته امرأة تشتري منه تمراً فغمزها وفي رواية: أتته امرأة حسناء جميلة تبتاع تمراً فضرب على عجزها...[٧٩].

ي ــ الحمّال أو الشيّال[٨٠]:

روى النسائي (رحم) عن أبي مسعود (رض) قال: كان رسول الله (ص)

(٧٧) **الإصابة** لابن حجر ٣/ ٤٢٩، **التراتيب الإدارية** للكلبي نقلاً عن **الحرف والصناعات في الحجاز في عصر رسول الله (ص)** لعبد العزيز العمري ص ٢٦٤.
(٧٨) **التراتيب الإدارية** للكتاني ج ٢/ ٥٩ نقلاً عن **الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول** لعبد العزيز العمري، ص ٢٨٦ مصدر سابق.
(٧٩) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٧١٣، **وأسباب النزول**، للواحدي، ص ٨١، والغمز: العصر باليد.
(٨٠) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي: شالت الناقة بذنبها شولاً وشوالاً وأشالة: رفعته وأشال الحجر وشال به وشاوله: رفعه، ونضيف: وعلى ذلك فكلمة شيّال التي تستعملها العامة فصيحة. ا.هـ.

يأمرنا بالصدقة فما يجد أحدنا يتصدق به حتى ينطلق إلى السوق فيحمل على ظهره فيجيء بالمُدّ فيعطيه رسول الله (ص) ــ إني أعرف رجلاً له مائة ألف لم يكن له يومئذ درهم(٨١).

وهنا يتحدث أبو مسعود عن نفسه (أو ربما عن أحد صحبته فلا فرق) فبعد أن كان يعمل جمّالاً (شيّالاً) يتلمظ على درهم فرد غدا يحتاز مائة ألف. وبداهة أن الثروة التي هبطت عليه إنما جاءت من غنائم البلاد المفتوحة التي هي في الأساس نتاج عرق (العلوج) الذين يكدّون ويكدحون ويعرقون ثم تنزح إلى أثرب لتصب في حجور الصحاب لكي يتمتعوا بضروب المتع واللذائذ كافة!!!

ك ــ بائع القرظ أو الدباغ:

سعد بن عائذ المؤذن ــ مولى عمار بن ياسر (رض) المعروف بسعد القرظ له صحبة... تجر في القرظ فربح فيه فلزم التجارة فيه ــ وقال القاضي في المشارق ــ وأن سعداً سمى به لأنه كان يتجر فيه ــ والقرظ شجر يدبغ به(٨٢).

ل ــ الوسّام:

وهو الذي يسم الإبل وسائر الحيوانات بميسم أي يعلمها بعلامة مميزة لتُعرف:

روى مسلم (رحم) عن جابر (رض) أن النبي (ص) مر عليه حمار قد وسم في وجهه فقال: لعن الله الذي وسمه... وإنه أمر بحمارٍ له فكوى في جاعريته فهو أول من كوى الجاعرتين(٨٣).

---

(٨١) **النسائي**، كتاب الزكاة، وتخريج **الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٧٥٥، مصدر سابق.
(٨٢) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٧١٥، **والاستيعاب والإصابة**.
(٨٣) **صحيح مسلم، كتاب الزينة وتخريج الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٦٤٩، مصدر سابق، وفي **الصحاح/** الجاعرتان: موضع الرقتين من إست الحمار.

م ـــ الوزان:

... أن الرسول (ص) مرّ بالسوق وكان لأهل السوق وزّان يزن فقال له (ص): زن وأرجح[٨٤].

ن ـــ الكيّال:

كان الوزن هو الغالب على مجتمع مكة لأنه تجاري فكانت العُروض والسلع توزن ـــ في حين أن مجتمع أثرب/ المدينة كان زراعياً ومن ثم فإن السائد على معاملاته الكيل وأشهر مثل كيل التمور والزبيب الخ...

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك (رض) أن رسول الله (ص) قال: اللهم بارك لهم (أهل المدينة) في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم ومدهم[٨٥] وترتيباً على ذلك فقد امتهن البعض حرفة الكيالة وتملك أدواتها مثل الصاع أو المد والفرق والوسق والقرب... يستعين بها على أداء مهمته.

س ـــ حفّار القبور:

ذكر ابن إسحق في السيرة:... وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي كان يحفر لأهل المدينة فكان يلحد[٨٦].

ع ـــ الكواء:

روى مسلم (رحم) بسنده عن الأعمش عن جابر (رض) قال: بعث

---

(٨٤) **سنن الدارمي** ج ٢/ ٢٦٠ **والتراتيب الإدارية** ج ٢/ ٣٣ نقلاً عن **الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول (ص)** لعبد العزيز العمري ص ١٥٨، وعندما اشترى السراويل لنسائه التسع قال للوزان ذلك.
(٨٥) **صحيح البخاري**.
(٨٦) **السيرة النبوية** لابن هشام **وتخريج الدلالات السمعية** ص ٧٨٦، للخزاعي، مصدر سابق.

رسول الله (ص) إلى أبيّ بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه[٨٧].

روى أبو داوود (رحم) عن جابر (رض) قال: بعث النبي (ص) إلى أبي طبيباً فقطع منه عرقاً... وذكر ابن جلجل في الطبقات أن أبا رِمْثَة كان طبيباً على عهد رسول الله ــ عالماً بصناعة اليد[٨٨]. وأبو رِمْثة (بكسر الراء وسكون الميم وفتح المثلثة) هو رفاعة بن يثربي التميمي[٨٩].

ص ــ الراقي:

وكان في زمنه (ص) رجال من الصحابة من يرقى... وأما من رقى من النساء فهي الشفاء بنت عبد الله فقد روى أبو داوود (رحم) عنها قالت: دخل علَيّ النبي (ص) وأنا عند حفصة (بنت عمر إحدى زوجاته التسع) فقال: ألا تُعلّمين هذه رُقية النملة كما علمتها الكتابة[٩٠].

ونكتفي بهذا القدر من الحرف والعمالات التي كانت شائعة في مجتمع الصحاب ــ وهي مثل ملابسهم وزينتهم الخ... التي سبق أن أجملنا القول فيها بالإضافة إلى سائر أمورهم التي تمتلئ بها صفحات السِفْرَين الثاني والثالث ــ كلها تقطع بأنه كان مجتمعاً بسيطاً ساذجاً يعيش أهله فيه معيشة أدنى إلى الفطرة وأقرب إلى التَبَدِّي.

بيد أن هذه الأحوال سرعان ما تبدلت وبمعدلات قياسية غِبّ اختلاطهم وتماسهم بالشعوب ذوات الحضارات العريقة والثقافات العميقة وتدفق سيول الغنائم والأموال التي كُسحت من

(٨٧) **صحيح مسلم وتخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٦٨٩، مصدر سابق.
(٨٨) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٦٨٨، مصدر سابق.
(٨٩) **الدولة الإسلامية نظامها وعمالاتها** للطهطاوي، ص ٢٦٧، مصدر سابق.
(٩٠) **سنن أبي داوود، الدولة الإسلامية نظامها وعمالاتها** لرفاعة الطهطاوي ص ٢٧٠.

المستعمرات التي وطؤوها بخيولهم المبروكة فجرفت (سيول الغنائم) في طريقها ما كان يكتنفهم من خشونة ويسودهم من جفاوة ويهيمن عليهم من غلظة فعرفوا اللغة الراقية والملابس الرقيقة والمساكن الفاخرة والأطعمة الدسمة والركائب الفارهة والفُرش الوثيرة وامتلكوا الجواري الحسان من مختلف الأجناس الخ... وبالمقابل تردت الشعوب المغزوة إلى درك الشقاء وقاع البؤس وغاية المسغبة ونهاية الفقر وحضيض الحاجة.

* * *

عمالات بعض كبار الصحبة

١ ــ أبو بكر بن أبي قحافة:

ذكر أبو الفرج الجوزي في (صفوة الصفوة) عن عطاء ابن السائب قال: لما استخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر فيها فلقيه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله قال: السوق قالا أتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي الخ...[٩١].

٢ ــ عمر بن الخطاب:

كان عمر (رض) يتاجر في الأسواق حتى فاته حديث عن رسول الله (ص) وصرح هو بذلك لمحدثيه (ألهاني الصفق في الأسواق...)[٩٢]. وذكر ابن الأثير في تاريخه أن عمر بن الخطاب (رض) قال للمسلمين أني كنت امروءاً تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا فما تأمرون أنه يحق لي في هذا المال؟...[٩٣].

٣ ــ عثمان بن أبي عفان:

كان عثمان (رض) بزازاً[٩٤].

٤ ــ عليّ بن أبي طالب:

في المعارف لـ ابن قتيبة والأعلاق النفيسة لابن رستة أن أبا طالب (والد عليّ) كان يبيع العطر والبزّ في مكة[٩٥].

---

(٩١) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٨٠٤، مصدر سابق.
(٩٢) **صحيح البخاري** ٣/ ١٩ نقلاً عن **الحرف والصناعات في الحجاز**، ص ١٢٧ مصدر سابق.
(٩٣) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٨٠٤، مصدر سابق.
(٩٤) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي، ص ٧٠٢، مصدر سابق.
(٩٥) **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، الجزء الأول، ص ١٦٥، الطبعة الثالثة ١٩٦٨م، أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر، بمصر.

أما أبو الحسنين فلم يرث التجارة عن والده ــ ربما من أهم أسباب ذلك أن أبا طالب كان رقيق الحال ولم يكن كأخيه العباس موسراً ذا مال وسيع ــ لذلك تنقل عليّ في أكثر من حرفة.

أقطع الرسول (ص) عليّ بن أبي طالب عيوناً بـ ينبع اشتهرت فيما بعد بكثرة إنتاجها وعمل فيها عليّ (رض) بنفسه[٩٦] وكان يجمع الإذخر ويبيعه للصياغ من بني قينقاع (اليهود):

... واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي باذخر أردت أن أبيعه من الصوّاعين[٩٧] ورأى معه محمد مِكتلاً فيه تمر فسأله عن مصدره فأجاب أنه نظير عمل (سقْيّ أرض أو حفر بئر) فتهلل وجه القائد وطلب منه أن يأكل منه معه لأنه كسب حلال طيب[٩٨].

٥ ــ أبو عبيدة بن الجراح:

... عن ابن عباس (رض) قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله (ص) وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة...[٩٩].

٦ ــ الزبير بن العوام:

أبوه العوّام كان خياطاً أما هو فقد كان جزاراً[١٠٠] ثم لما تدفقت غنائم البلاد الموطوءة ترك الجزارة وقرفها[١٠١] وتحوّل إلى التجارة وكان كثير المتاجر والأموال وقيل إنه كان ألف مملوك يؤدون إليه الخراج وفي السِفْر

(٩٦) **تاريخ المدينة** الجزء ٢ ص ٢٢٢، نقلاً عن كتاب **الحرف والصناعات** تأليف عبد العزيز إبراهيم العمري، ص ٨٦، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية.
(٩٧) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧٢٨.
(٩٨) **موقف الإسلام من العمل والعمال** لخليل عبد الكريم ص ٢٧، الطبعة ١، ١٩٨٧م، نشرته أمانة التثقيف في (المكتبة السياسية) حزب التجمع بمصر.
(٩٩) **سيرة ابن هشام** ٤/ ٣١٣، **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧٨٦.
(١٠٠) **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، الجزء الأول، ص ١٦٤.
(١٠١) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، **القرف:** مخالطة ما يُستكره.

الثاني من «الشدو» ذكرنا ذلك تفصيلاً عن ثروة الزبير وغيره ممن تربعوا على قمة هرم التراتب الاجتماعي.

٧ ــ طلحة بن عبيد الله:

كان بزازاً (بائع أقمشة)(١٠٢).

كان طلحة بن عبيد الله غائباً في تجارة إلى الشام فقدم بعد أن رجع رسول الله (ص) من غزوة بدر فكلّم الرسول (ص) فضرب له بسهم فقال وأجرى يا رسول الله يريد اشتراكه في أجر المقاتلين في سبيل الله فقال الرسول: وأجرك خمسة نفر(١٠٣).

ذكر ابن قتيبة (رحم) في (المعارف) في صنائع الأشراف: كان طلحة بن عبيد الله بزّازاً(١٠٤).

في المحكم: البز ــ الثياب والبزاز: بائع الثياب وحرفته البزازة.

وبعد كشط خيرات البلاد المفتوحة غدا طلحة من أكابر المتمولين.

٨ ــ عبد الرحمن بن عوف:

عبد الرحمن بن عوف لما قدم المدينة آخى الرسول (ص) بينه وبين سعد بن الربيع فعرض عليه أن ينزل له عن شطر ماله وإحدى زوجتيه التي تعجبه فرفض وقال دلّوني على السوق فدلّوه على سوق بني قينقاع فأخذ يبيع ويشتري حتى جمع مالاً فخطب امرأة من الأنصار ونكحها(١٠٥).

وجاء في المحاسن والأضداد للجاحظ أنه كان بزازاً ــ وبعد نهب أموال

(١٠٢) **المحاسن والأضداد** للجاحظ، نقلاً عن كتاب **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، الجزء الأول، ص ١٦٥، مصدر سابق.
(١٠٣) **الروض الآنف**، للسهيلي، ج ٣، ص ٨٧.
(١٠٤) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧١٢.
(١٠٥) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد أو السيرة الشامية**، للصالحي الشامي، الجزء الثالث، ص ٥٣٠، مصدر سابق.

المستعمرات أصبح ابن عوف من مليونيرات الصحابة ويكفي شاهداً لغناه المفرط أنه (كان فيما ترك ذهب قطع بالفئوس حتى مجلت (ظهرت فيها البثور) أيدي الرجال منه[١٠٦].

٩ ــ عبد الله بن عمر بن الخطاب:

كان يبيع الإبل وغيرها من الدواب في البقيع وسبق أن ذكرنا السند في ذلك.

١٠ ــ دحية الكلبي:

أقبل دحية الكلبي على رأس قافلة تحضر الزيت والحنطة والشعير وأنواعاً من الطعام من الشام فانصرف إليها الناس وتركوا محمداً ونفراً معه وهو يخطبهم الجمعة ــ فقرأ عليهم ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾ سورة الجمعة.

(روى البخاري في كتاب الجمعة عن معاوية بن عمر عن زائدة كلاهما عن حصين قال المفسرون: أصاب أهل المدينة الضرار والجوع وغلا سعر فقدم دحية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام وضرب لها طبل يؤذن الناس بقدومه ورسول الله (ص) يخطب يوم الجمعة فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا إثنا عشر رجلاً منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية...)[١٠٧].

١١ ــ نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي:

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ــ بائع رماح ــ فدى نفسه برماحه[١٠٨].

---

(١٠٦) **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، ص ١٦٢، مصدر سابق، وسبق لنا أن أوردنا طرفاً من ثروته في السِفر الثاني.
(١٠٧) **أسباب النزول** للواحدي النيسابوري ص ٢٨٦، مصدر سابق.
(١٠٨) **تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧٠٩، وكذا في **الاستيعاب** لابن عبد البر، **وأسد الغابة** لابن الأثير الجزري، **والإصابة** لابن حجر.

١٢ ــ خَبّاب بن الأرَتّ:

اشتهر عن خباب بن الأرّت (رض) أنه كان قيناً بمكة يصنع السيوف[١٠٩] وبعد نزح عرق (العلوج) من المستعمرات انتقل من طبقة الحدادين إلى طبقة موفوري الغنى:

وكان خبّاب بن الأرّت من الأغنياء قال لقد رأيتني مع رسول الله لا أملك ديناراً وإنّ من ناحية بيتي في تابوتي لأربعين ألف وافٍ[١١٠]...

١٣ ــ عمرو بن العاص:

كان عمر بن العاص جزاراً ثم أخذ يبيع الأدم (الجلود والطيب)[١١١] ويدور التاريخ إحدى دوراته المُعجبة ويغدو هذا الجزار حاكماً لأعرق دول التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه حضارة ومدنية ــ مصر ويتحكم في مصر والمصريين بعد أن أخذها لقمة سائغة وطُعمة من أحد الصحاب معاوية الذي جاء بالخبر الموثق الآنف الذكر أنه كان حلاقاً؛ وبداهة أن تتضخم ثروة ابن العاص بعد أن ظل والياً عدة سنوات على مصر التي كانت في نظره وقرنائه ــ البقرة الحلوب.

١٤ ــ عمار بن ياسر:

ومن الصناعات صنعة البناء ويقال لصاحبها البنّاء وكان أول بنّاء في الإسلام عمّار بن ياسر (رض)[١١٢].

١٥ ــ عثمان بن طلحة:

في المعارف لابن قتيبة: كان عثمان بن طلحة الذي دفع إليه رسول الله (ص) مفتاح الكعبة خياطاً وذكره ابن دريد في «الوشاح»[١١٣].

(١٠٩) **الروض الآنف** للسهيلي، ج ٢، ص ١٠٥.
(١١٠) **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، الأول ص ١٦٣.
(١١١) **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، الأول، ص ١٦٦.
(١١٢) **الدولة الإسلامية نظامها وعُمالاتها** رفاعة الطهطاوي ص ٢٩٠ مصدر سابق.
(١١٣) **كتاب تخريج الدلالات السمعية** للخزاعي ص ٧٢٢، مصدر سابق، **والإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، ج ١، ص ١٦٦، مصدر سابق.

١٦ ــ عدّاس:

ضمن العاملين بالزراعة عدّاس ــ الذي أعطى الرسول قطيف عنب حينما ذهب إلى الطائف[١١٤].

١٧ ــ سفيان بن حرب بن أمية:

وأبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والزبيب[١١٥].

١٨ ــ أبو قتادة الأنصاري:

صيّاد.

١٩ ــ حُذيفة بن اليمان:

خبير في المباني.

٢٠ ــ عبد الله بن رواحة:

خارص[١١٦].

٢١ ــ أبو المنهال:

صرّاف يتجر في الصرف[١١٧].

* * *

أولئك الصحاب ملأوا الدنيا وشغلوا الناس حتى إنه بعد أربعة عشر قرناً ــ إذا تحدث عن أصغرهم وزير أو رئيس جامعة أو عميد

(١١٤) **السيرة النبوية** لابن هشام، ج ٢، ص ٥٣٥.
(١١٥) **الإسلام والحضارة العربية** لمحمد كرد علي، ج ١، ص ١٦٦، مصدر سابق.
(١١٦) خرص الشيء حزره وقدّره بالظن يقال خرص النخل والكرم: حزّر ما عليه من الرطب تمراً ومن العنب زبيباً فهو خارص وخرّاص والجمع خُرّاص، من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.
(١١٧) كلها ١٨/ ١٩ ٢٠/ ٢١ من كتاب **تخريج الدلالات السمعية للخزاعي**، مصدر سابق.

كلية أو أستاذ جامعي وصفه بـ (الجليل) وليس ذلك فحسب بل تعبّد له وسيّده عليه بأن يضفي عليه لقب (سيدنا) مع أن الأصوليين والمتمسكين بصحيح دينهم من أهل السنة والجماعة يرفضون أن تُنسب السيادة لغير الله تعالى، بيد أنها القابلية للعبودية للبشر هي التي تدفع هؤلاء الأماثل لسلوك هذا المنهج، نقول إن الأصحاب كما ثبت فيما تقدم كانت الغالبية العظمى منهم امتهنت حرفاً متواضعة أشد ما يجيء التواضع، وضعف رتبة العُمالة نديد لمحدودية الإدراك وشاهد على انخفاض المستوى الحضاري للمجتمع التي تهيمن عليه أو يفشو فيه تلك الأعمال ــ ولكنْ ما الذي دفع الصحاب إلى تبوء هذا المقام الرفيع؟

هناك عدة أسباب يأتي في مقدمها إثنان:

الأول: أنهم غدوا شخصيات «ميتاتاريخية» اختلط فيها عنصرا العقيدة والتاريخ.

الأخر: أن من سعد طالعهم وحسن بختهم[١١٨] أنهم رافقوا القائد العظيم محمداً الذي فجّر واحدة من أمجد الثورات التي شهدتها البشرية على طول تاريخها.

* * *

(١١٨) **البخت** الجد (الحظ) معرب من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

الباب السادس

خاتم الأسفار

[Blank Page]

عندما أنجزت كتابي (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية) كانت فكرة (الشدو) قد اكتملت. فهؤلاء الرجال الذين أحاطوا بمحمد وهو يفجّر ثورته المجيدة وصاحبوه وهو يقيم دولة قريش التي حلم بها الجد الأعلى قصّى بن كلاب ومن جاء بعده ــ هذا الجيل الفريد الذي كان أول من سمع القرآن منه وهو يتلوه عليه الذي شهد التجربة الفاذّة التي بدأت في مدينة القداسة أم القرى مكة ثم انتقلت إلى أثرب وهناك تموضعت على أرض الواقع حيث تحولت النظرية إلى التطبيق والمبادئ إلى حياة معاشة وعاينوا محمداً وتبعوه وهو يعلو ويسمو ويرتفع من ثائر يطارده الصبيان والسفهاء والعُبدان المغلوبون على أمرهم الذين كانوا يجهلون أن ثورته المظفرة جاءت لانتشالهم من ظلمات العبودية إلى أنوار الحرية ــ ويُدمون قدميه الشريفتين بالحجارة... إلى سيد الناس وديّان العرب وحاكم الجزيرة العربية بلا مدافع وصاحب السلطان الأوحد فيها.

أما الذين صدوه وهزأوا به وسخروا منه وأسمعوه قوارص الكلم وفواحش القول واتهموه بالسحر والجنون، فقد هرولوا إليه في عام

٩هـ (سُمّي بعام الوفود) يُقبّلون يديه وقدميه القدمين نفسيهما اللتين سلطوا زعانفهم عليهما ليوسعوهما قذفاً بالحجارة...

وتحولت عبارات النُكر والسب واللمز والغمز... إلى قصائد مدح وزلفى...

والذين كانوا يتبرأون وينتفون وينفرون منه أصبحوا ينتسبون إليه ويتقربون له ويبحثون عن أوهى الوشائج لتوصلهم إليه ولو في (سابع جد) الخ...

والذين حاربوه وجرحوه وآلموه بدنياً ونفسياً أصبحوا يتنافسون على إرضائه والتحبب إليه وإدخال السرور إلى نفسه والبهجة على قلبه...

هذا الجيل المُعجب الذي هو بحق أسعد أجيال المسلمين لأنه صاحب القائد وعاشره وعاش معه وأطلع على أحواله في المنشط والمكره وأنصت إليه وهو يقرأ عليهم الآيات البيّنات من القرآن لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي، وبعدهم تلقاها الملايين على مدى القرون الخمسة عشرة، وسمع منه أحاديثه وشاهد أفعاله وتقريراته ـ ورأى سروره وغضبه وجِده ومزاحه وضحكه وبكاءه ونصره وفتوحاته... وانقلبت أحوال أفراده إنقلاباً ما كان يخطر لهم على بال ولم يكونوا يحلمون به حتى في اليقظة فارتفع بعضهم من عبيد وموالي وحراشف إلى سادة يتربعون على قمة الهرم الاجتماعي، ومن رعاة غنم وأجراء إلى ولاة عمال وحكام بل وخلفاء، والذين كانوا لا يملكون اللظى[1] غدوا أثرياء أماثل يجوزون أنواع المال كافة من الصامت والناطق والنشب (المال

(١) النار تلتظي وتتلظى واشتد لظى النار، **أساس البلاغة** للزمخشري، ولا يملك اللظى كناية عن أنه لا يجد حطباً يوقد به تحت قدر طعامه. ا.هـ.

الأصيل) والمنقول والعقار والإماء والأرقاء ومنهم من كُسرت كتل الذهب والوَرِق (الفضة) التي خلّفها ضمن تركته بالفؤوس ومن كان لا يجد سوى المسجد موئلاً وملاذاً تملك الإقطاعات وبني القصور والذي كانت تحمشه[٢] العُزبة ويفتقر إلى مؤونة النكاح تزوج الذؤابة من الحرائر وتسرى بمختلف الإماء منهن الروميات (بنات بني الأصفر) وحلاّهن بالذهب الإبريزيّ (الخالص) ووضع على رؤوسهن عصائب الحرير.. وفتنت أكثرهم الدنيا بشهادة العديد منهم وغرتهم وجرفهم تيارها الصخّاب فتسابوا وتشاتموا وتنابزوا وتعايروا وتداعوا بالألقاب ثم تقاتلوا وتحاربوا وسعوا لتصفية بعضهم بعضاً مرة بالقتل وأخرى بالسم وامتد التعدي إلى الذراري الأبرياء وهم في حجور أمهاتهم**!**

وتنافسوا على الملك والسلطان والحكم وسلّوا السيوف وجيّشوا الجيوش وكتّبوا الكتائب وصفوا الصفوف ووقفوا تجاه بعضهم البعض يتعاركون بشراسة وجرّوا وراءهم عشرات الألوف من السذج مخمومي القلب فطحنتهم حروبهم.

هذا الجيل المتفرد لأنه لم يتكرر ولن يتكرر بعد، لأنه لن يتاح لغيره رؤية القائد الباهر أو معايشته ــ والمجتمع الذي عاش في حناياه وتقلب في أحشائه والبيئة التي تربوا ونشأوا فيها... كل هذه الأمور ذات القدر الوفير من الأهمية والقسط الغزير من الخطر لم تُدرس دراسة موضوعية ولم تبحث بحثاً علمياً ــ مع أن هؤلاء الصحبة هم الوعاء الذي صبّ فيه محمد صباً الديانة التي بشّر بها (الإسلام) ونحن ندّعي ــ كما أن الشعر هو «ديوان العرب» في القولة الشهيرة ــ فإن أقوال محمد وأفعاله وتقريراته وسكوته إذا ما جرى حدث

(٢) أحمش النار قوّاها بالحطب وأحمش القدر: أشبع وقودها، **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

قدام باصرتيه وأعمال وسلوكيات ومقالات أصحابه جميعها (هكذا على بعضها) تشكل (ديوان الإسلام). من أراد أن يعرف الإسلام على حقيقته ويتفهم مراميه ويعلم مقاصده ويتيقن من أهدافه ويتفقه ما يعمد إليه ويتفطن إلى غاياته وينفذ إلى دخائله ويتغلغل إلى باطنه ويدخل إلى حشاياه ويدرك أصوله ويتعمق حتى جذوره فعليه بذلك (الديوان)... يدرسه من كل جوانبه ويتفرس في جهاته كافة ويبحث سائر أقطاره ويمحّص أعاليه وأسافله ويحدّق في خوافيه وظواهره ويرنو إلى قُبُله ودُبُره ويعاين حركاته وسكناته وينصت إلى همسه وصخبه ويسمع نجواه وعلانيته الخ...

أما القرآن فقد انضوى على المثل العليا والقيم العالية والذرى السامقة وذلك حثاً للمسلمين على محاولة تحقيقها والشروع في تشييئها وبذل الجهد في موضعتها على أرض الواقع واستفراغ الطاقة في الإتيان بها، شأنه في ذلك شأن الكتب المقدسة لدى الديانتين الساميّتين (اللتين سبقتاه في الزمن لا في المقام) بل كتب الأخلاق والهداية والإرشاد والنصح والترغيب والترهيب والوعظ الخ... تدفع الأتباع دفعاً إلى محاكاتها والتخلق بما تحتويه والتشبه بما تنضوى عليه والتمثل ما تشمله الخ...

حتى في نطاق حديثه عن الصحاب أتى القرآن بالصورة النموذجية التي كان يتعين عليهم أن يتصوروا بها والهيأة المثالية التي كان يتوجب عليهم أن يتلبسوا بها لا ما حدث على أرض الواقع لأن الأخير لا يتطابق مع المثال الرفيع الوارد بالقرآن ـــ فهو إذ يقول عنهم (رحماء بينهم) فنحن نفسرها على أنها الشكل الأرفع الذي كان يتحتم عليهم أن يتمثلوه ويتشبهوا به فحسب لا ما حدث فعلاً لأن ما وقع هو التخاصم والتحارب والتقاتل والتدابر الخ...

وبذلك تقطع الطريق على أي فلحاس (سمج) يلمح ولو بإشارة عابرة إلى أن ما جاء بالقرآن شيء وما تحقق على أرضية الواقع مختلف.

فنقول له على رِسلك أيها الشكس إن ما نصّ عليه القرآن هو المثل الأعلى الذي كان على الصحابة أن يصلوا إليه فإن فعلوه أو فعله بعضهم فيها ونعمت وإن لم... فهو ذروة سامقة لمن يأتي من المسلمين بعدهم عليهم أن يجهدوا جهدهم في الاقتراب منها بله الوصول إليها.

هذا تفسيرنا لما ورد عن الصحاب من آيات القرآن.

وهو محض اجتهادنا منا فإن أخطأنا فلنا أجر وإن أصبنا فلنا أجران والله تعالى وحده نسأل أن نكون من أصحاب الأجرين.

* * *

نحن نوقر السنة ونجلها ونعطيها المكانة المرموقة والمقام المحمود والدرجة الرفيعة، وسبق في كتابات لنا أن نقدنا من يهاجمونها وأوضحنا على قدر الحيز المتاح عوار رأيهم وكشفنا طفاسته ورفعنا الستر عن بطلانه وأزلنا الحجب عن فساده.

لأننا نقر كما ألمعنا فيما تقدم أن السنة هي (ديوان الإسلام) لأنها التطبيق العملي الذي تشيء على أرض الواقع بمعرفة محمد وأصحابه.

والذي يود أن يعرف الإسلام حق المعرفة فعليه بالسنة في تجلياتها كافة وشتى مظاهرها ومختلف صورها وسائر ضروبها ــ وأقوال محمد وأفعاله وتقريراته سنة بالإجماع وبلا خلاف، كذا أعمال الأصحاب هي أيضاً سنة ولقد أوصى محمد المسلمين

بالاقتداء بسنتهم (أقوالهم وأعمالهم) وبشّر أن من اقتدى بهم أو بأحدهم فقد اهتدى.

ونحن نضع دواوين السنة في رتبتها العالية التي تستحقها عن جدارة ونتلقاها كما يتلقاها سائر المسلمين بالتقدير التي هي أهله وبفائق الاحترام، ونذهب إلى أن صحيح البخاري هو أصح كتـــاب بعد القرآن ــ ويأتي في مقدم دواوينها ــ «الصحاح الستة» وبعدها موطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي والدارمي ومستدرك الحاكم ومعاجم الطبراني (الكبير والأوسط والصغير...) ومسند الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ونخطّئ من يذهب إلى أنه لم يصح عنه سوى ستة عشر حديثاً ــ ومسند محمد بن إدريس الشافعي. ثم يلحق بها صحيح ابن حبّان وصحيح أبي عوانة ومسند أبي داوود الطيالسي ومصنف عبد الرازق ومصنف بن أبي شيبة ومختارة الضياء المقدسي ومسند الحميدي ومسند العدى ومعجم ابن قانع ومسند بُقَيّ بن مخلد والمنتقي لابن الجارود وكنز العمال للمتقي الهندي والفيض للمناوي ومجمع الزوائد للهيثمي ومسند الفردوس للديلمي وصحيح ابن خزيمة ونيل الأوطار للشوكاني ومسند أبي يعلي والمطالب العالية لابن حجر والحِليّة لأبي نعيم وغيرها وغيرها.

جميعها لا نبخسها حقها من الثمانة ونرى أن فيها كنوزاً من المعارف والمعلومات والأخبار لا تُقدر عن أحوال المجتمع كافة في العهدين المحمديّ والخليفيّ بصورة لا يتخيلها القارئ العادي أو المثقف ــ وهي كنوز لم تُكشف بعد، وللأسف أنه لا زال حتى الآن من ينظر إليها على أنها (كتب صفراء) أو على الأقل نظرة دينية بحت أي أنها لا تهم إلا رجال أو علماء الدين وهذا خطأ بالغ الفداحة، فهذه المصنفات تنضوي على كمٍ هائل من

التوصيفات والتحليلات لما كان عليه ذلك المجتمع في شتى المناحي ومن ثم فهي تهم المؤرخين وعلماء الاقتصاد والاجتماع وخاصة الاجتماع الديني والانثربولوجي والسياسة والأدب الخ...

ومن ثم فإننا نوجه نظر أولئك العلماء لخلع نعرة التعالي الأكاديمية الجوفاء والالتفات إلى هذه المؤلفات القيمة ودارستها كُلٌّ في ميدان تخصصه لأن فترة ما يسمى بفجر الإسلام الباكر لم تُدْرس حتى الآن دراسة علمية رصينة لأن هذه المصادر المهمة بعيدة عن أبصار البُحّاث والدارسين؟؟

ولا نضعف أحاديث هذه الكتب إلا ما ضعّفه جهابذة الحديث وصيارفة السنة من علماء الجرح والتعديل وما صنفوه من بيتي الضعفاء والمتروكين والوضاعين.

ونصحح ما صححوه ونضعه فوق الرؤوس ــ ولا نتجرأ على التشكيك في صحة حديث قطعوا هم بصحته لأننا لسنا أهلاً لذلك ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه وأدرك قامته ولزم غرزه ــ ولم يتجاوز حده ولم يتخط درجته وفقه مكانته ومقامه ــ كما أن السنة من جانب آخر هي المصدر المصلّى (التالي) ــ بعد القرآن ــ للإسلام إنْ في العقائد أو العبادات أو المعاملات أو الحدود (التشريع) ــ والذي يطعن فيها لا يريد بالإسلام خيراً بل هو يبغى به شراً لأنه يريد هدم ركن ركين فيه، ذلك أن السنة هي التي شرحت وبيّنت وفسّرت وقعّدت قواعده ونصبت عواميده:

الصلاة ــ والصيام ــ الحج ــ الزكاة ــ وسائر ضروب المعاملات وكيفية تطبيق الحدود... ولسنا طرفاً في معركة تدوين السنة ومتى بدأ وهل كان هناك من الصحابة من كتبها أو جزءاً منها إبّان حياة القائد المظفر محمد وهل تلك الكتابة كانت له خاصة أو هي

للعامة؟ وهل أمر محمد بكتابة أحاديثه أو بعضها أم نهى عن ذلك ـــ وهل كان الأمر أو النهي في حالة مخصوصة ولضرورة تقدر بقدرها أو أنه كان عاماً؟.

ولا شأن لنا بخلاف الصحاب حول التدوين أو الامتناع ولا بموقف التابعين من أحاديث النهي ثم أحاديث نسخ النهي ـــ أو مبررات التدوين ومسوغاته ودوافعه.

ولا ببداية التدوين هل كان على يد الأشج عمر بن عبد العزيز أم هناك من كان يدوّن قبله وهل كان انصياع محمد بن مسلم بن شهاب الزُهري الشهير بـ (الزُهري) لأمر عمر بن عبد العزيز فيه قدر من الإكراه أم لا ـــ ولا نعيب على المكثرين من التحديث من الصحبة إكثارهم ولا من المُقلين إقلالهم فلكل دوافعه التي حثته على الإكثار أو الإقلال ـــ والذي يهمنا هو ما نقلوه من أحاديث نمحصها ونفحصها ونتمعن ونتفرس فيها. فهي التي صورت لنا الصحاب في مختلف أحوالهم وأمدتنا بفيض ثرٍ غزيرٍ عن شؤونهم كافة وهذا ما نسعى إليه ونؤمه ونقصده ونتغياه لنضع ذلك المجتمع الفريد الفذ تحت المجهر لا نغادر صغيرة ولا كبيرة فيه لنخرج بالصورة الحقيقية له نظراً لأهميته القصوى التي كثيراً ما تحدثنا عنها.

وليس من التقدمية ولا من الاستنارة ولا من المستقبلية الخ... مهاجمة السنة ودواوينها والمطالبة بالإعراض عنها بل على العكس فإن هذه الدعوة في اعتقادنا تدل على قصر النظر وضعف القريحة وضيق الأفق وهُزال الذكاء وكلال الذهن وجدب الخيال وضمور الموهبة ونضوب الإبداع، لأن مؤلفات الحديث أو السنة هي التي حملت إلينا بين دفتيها اللوحات البارعة عن أحوال ذلك المجتمع

الخطير الذي قرأ محمد عليه آيات القرآن لأول مرة وخاطبه بأحاديثه والذي شاركه وهو يقوم بالثورة المظفرة التي غيرت تاريخ المنطقة والعالم المحيط بها وقلبت موازين القوى لقرون عديدة ثم أثمرت فيما بعد قليل حضارة لا يماري في سموها إلا الجحود... والجهابذة البهاليل الذين ينادون بالاكتفاء بالقرآن إذ فيه الغناء ــ نسألهم ــ أين نجد في القرآن هذا التوصيف الرائع لذلك المجتمع وأين نعثر فيه على الرصد الدقيق لأفعال محمد وأقواله وتقريراته وأعمال وأقاويل الصحاب وعلاقاتهم بعضهم ببعض وشتى ممارستهم في المنشط والمكره في الرضى والغضب في الحرب والسلم في المنزل والسوق الخ...

دلّونا في أي موضع هي مكتوبة ومسطورة؟

وحتى في بعض الأحاديث مما هو واهٍ أو ضعيف أو معلول بأي علة قادحة أو غير قادحة فإنها في نظرنا تقدم لنا صورة ولو تقريبية (قريبة من الحقيقة) عن ذلك المجتمع.

نحن لا نقوّم الأحاديث بالميزان الذي كان يمسكه علماء الجرح والتعديل إن لنا مقياساً مغايراً فنحن نتقبلها ــ على علاتها ــ باعتبارها أقرب الكتابات إلى ذلك المجتمع وأشدها لصوقاً به وأدناها إلى زمنه وحتى الذين لم يعيشوه نقلوا عمن عاشه ولا يهمنا تنافس الفرق قي انتحال الأحاديث أو وضعها فنحن لا نوزنها بميزان صدورها من محمد أو هذا أو ذاك من الصحبة، ولكننا نزنها بميزان دلالتها عما كان يعتمل في ذلك المجتمع وما يدور في أحشائه وما يمور في باطنه ولنضرب مثلاً توضيحياً: شخصيات ثلاثية نجيب محفوظ ووقائعها لم يقل أحد أنها شخصيات حقيقية ووقائع قد

حدثت ولكنها بلا مراء تمثل أحوال مجتمع القاهرة في تلك الحقبة أصدق تمثيل.

مع أن هناك فارقاً شديد الوضوح وهي أن الأحاديث الضعيفة أو المعلولة أو حتى الموضوعة أو المنتحلة ليس من صنع الخيال ولكن لها ركائز ثابتة، فمثلاً عندما تضع الشيعة (شيعة عليّ) أحاديث في مناقب أبي الحسنين فهذه الأحاديث لها أصول ثوابت تتمثل في تقدير محمد لعليّ في شتى صور التقدير القولية والعملية مثل تزويجه لصغرى بناته وأحبهن إليه وكذلك حبه العميق للحسن والحسين الخ...

وهذه الأحاديث حتى الموضوعة نحن نستشف منها الكثير (العادات السائدة والأعراف والتقاليد والأماكن والملابس الخ...) ولا يفهم من هذا أننا نبرر وضع الأحاديث أو نسوّغ إنتحالها، إنما نرد على منكري السنة بحجة وجود نسبة ضئيلة من تلك الأحاديث بين عشرات الألوف صحيحة ــ هذا من ناحية ــ ومن ناحية أخرى فإننا نرى أن ذلك الضرب من الأحاديث ليس عديم الفائدة بالكلية، فإن كان كذلك من وجهة النظرة الدينية فإن له فائدة من نواح أخرى نذكر منها على سبيل المثال: الاقتصادية والسياسية والأدبية وبالأخص الاجتماعية والانثروبولوجية، إذ أنها مهما بلغ عوارها الديني أو الحديثي فإنها نتاج عصرها وثمرة بيئتها وإفراز مجتمعها فلها يد في المساعدة على إلقاء ولو قدر من الضوء على قسمات ذلك المجتمع وأياً كان الأمر:

فإن أسفار هذا الكتاب اعتمدت على الأحاديث الصحيحة والمتفق عليها والحسنة اعتماداً كلياً كما يبين من المصادر التي استندنا إليها التي وثّقنا بها كل نازلة أو خبر أو واقعة لنقطع السبيل

على كل معارضة نتوقع انتصابها في وجه هذه الأسفار.

ولو أننا أخذنا بوجهة نظر من ينكرون السنة أو يهاجمونها واقتصرنا على القرآن وحده كما ينادون ـــ لما استقام الأمر ولتشوشت على المسلمين كثير من الأمور إن في عبادتهم أو معاملاتهم (بما فيها الأحوال الشخصية والحدود) بل يمتد الخلط والتخليط في علاقتهم مع غيرهم من أهل الكتاب سواء على مستوى الأفراد أو الدول وكذا غيرهم من أصحاب العقائد والملل والنحل الأخرى.

لأن الذي بيّن تلك الأمور ووضّحها هي السنة القولية أو الفعلية سواء من محمد أو من أصحابه ـــ والباعث وراء إنكار السنة ومهاجمتها أو التهوين من شأنها غير مفهوم ولا هو مبرر:

هل هو الغيرة على الإسلام؟ الإجابة بالنفي لأن محمداً نفسه شدد على اتّباع سنته ثم سنة صحبه خاصة المقربين منه ـــ وأوضح هو نفسه نسبتها للقرآن وصلتها به وعلاقتها معه ودورها في التوضيح والتفسير التقريب... ومن البديهي أنهم ليسوا أفقه بالإسلام منه ولا أحرص عليه منه.

ولقد تنبأ هو نفسه بأنه سيأتي وقت يجلس فيه أحدهم على أريكته ويقول نكتفي بالقرآن نحل حلاله ونحرم حرامه وحذر من هذا المسلك الفطير[٣].

(٣) **الفطير**: ضد الخمير وهو العجين الذي لم يختمر وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير يقال: إياك والرأي الفطير، **المختار من صحاح اللغة** لمحمد محيى الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي، الطبعة الثانية، د. ت. ن. المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

وكم كان ملهماً وصادقاً ــ فلا زال من يتبنى هذا المنهج الفسيد ثم ينسب نفسه إلى حركة الاستنارة وتيار التقدم!!!

ولولا السنة لما اتسعت المذاهب الفقهية ما اندثر منها وما بقي لهذا القدر من التنوع والاختلاط الذي رفع الضيق وأزال الحرج وأعفى من التأثم ووجد المسلمون فيها (المذاهب) مجالاً رحباً للعبادة والمعاملات في سماحة ويسر بعكس ما لو كانوا يتعبدون على مذهب واحد.

وفتحت السنة الباب على مصراعيه للإجتهاد، ويكفي أن نشير إلى حديث محمد عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن والذي سأله عن كيفية قضائه وأقره على ما انتهى إليه بقوله: أجتهد رأيي ولا آلوأى لا أقصّر ــ فهذا الحديث في رأينا من مفاخر السنة ومعالمها البارزة وأفرزت قريحة الفقهاء أدوات ممتازة للاجتهاد منها القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وهذا كله أدى لثراء الفقه وإلى التيسير على الناس ــ ولسنا بداهة بصدد استقصاء نقاط البحث في هذا الموضوع إنما تناولناها بالقدر اللازم.

ومنطلق دفاعنا عن السنة ــ سنة محمد والصحاب هو أن موضوع هذه الأسفار الثلاثة يدين في غالبيته العظمى للأحاديث التي أكدنا ونؤكد أننا استقيناها من المصادر العوالي التي تلقتها الأمة بكل تقدير.

ولكن هل (الشدو) مكمِّل لقريش؟

الجواب: لا ونعم..

لا إذا كان المقصود بـ (المكمّل) هو الجزء الثاني أو التالي على ما هو معهود إنْ في الكتب أو القصص أو في الأعمال الدرامية التي تعرض في التلفاز. فـ (قريش) لم يكن كتاب تاريخ تناولنا فيه

الحدث الخطير وهو نجاح محمد في تأسيس دولة قريش في المدينة/ يثرب بل هو رصد وتحليل للعوامل الفواعل التي أدت لتحقيقه حتى إنّ العنوان المبدئي للكتاب كان (إرهاصات قيام دولة قريش في يثرب) فلو كان كتاب تاريخ لجاز القول أن (الشدو) تتمة له لأنه يتمم مسيرته فيعالج الحقبة المُصليّة[٤] ويؤرخ لها، في حين أنه (الشدو) أيضاً لا شأن له بالتاريخ وإنْ انضوى على كم وفير من وقائعه. وتجيء الإجابة بنعم إذا نظرنا إلى الوحدة الموضوعية التي تجمع الكتابين:

فإذا كان (قريش) كما أسلفنا رصد وحلّل الأسباب التي أدت إلى تأسيس الدولة القرشية بدأة بُقصيّ فإنّ (الشدو) أتى بالنتائج التي ترتبت على قيامها وذلك عن طريق تصوير أحوال مجتمع الجنود الخلّص الذين آزروا القائد المظفر وهو يصدع بثورته ويصدغ[٥] أعداءه وينشئ دولة قريش ويوسّع سلطانه ويهيمن على الجزيرة كلها...

وفي مذهبنا أن النتائج لا تتمثل في الإنسياح الخارجي والتمدد البرّاني[٦] واستعمار البلاد المجاورة والبعيدة وخضم[٧] خيراتها وسرطها فحسب[٨] فهذه هي القشرة الظاهرة ولا يُحكم على الثمرة بقشرتها بل بما في جوفها لأن القشور خلابيس[٩] لا ينخدع

(٤) **المُصلى** من خيل السباق: التالي للسباق ويستعار للإنسان إذا كان تالياً للأول في أي عمل كان **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

(٥) **صدغه:** ضربه في صدغه، **أساس البلاغة** للزمخشري.

(٦) **البرّاني:** الخارجي وهو خلاف الجواني **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

(٧) **الخضم:** الأكل بأقصى الأضراس وعكسه القضم **أساس البلاغة** للزمخشري.

(٨) **السرط:** سرعة الإبتلاع **شرح الفصيح في اللغة** لابن الجبّان تحقيق د. عبد الجبار القزاز، سلسلة ذخائر التراث، ص ١٠٨، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، آفاق عربية، بغداد.

(٩) **الخلابيس:** الأباطيل **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

به إلا الغِر المأفون و(الشدو) يلّب[١٠] التجربة بفرعيها الثورة والدولة وذلك بتمحيص الأحوال الاجتماعية لفاعليها وسبر أغوارهم وبحث سلوكياتهم ووزن تصرفاتهم وقياس أعمالهم بمقياس المبادئ السامية والقيم العوالي التي علّمهم إياها قائدهم العظيم ــ ولا نحكم عليهم بالنجاح أو الإخفاق (الفشل) بل ذلك متروك للقارئ يستخلص قضاءه مما يقرأ إذ ليس من مهامنا إصدار الأحكام ولن يجد القارئ صعوبة في الوصول إلى الرأي الصحيح لأن النوازل تنطق بلسان حالها.

هذه هي الوحدة الموضوعية التي تربط الكتابين وتكشف عن جانب (الإيجاب) في الإجابة عن السؤال فأولهما قدّم الأسباب والآخر طرح النتائج ويا لها من نتائج.

سنوات عديدة وأنا أجمع فيها مادة (الشدو) كتبت فيها ألوف الفيشات أو الجذاذات ومنذ أن بدأت فيه طفقت أنعزل وأنقطع وأتفرد وأتوحد... أخذت أعتذر عن الندوات والمحاضرات والاحتفاليات والمؤتمرات والورك شوبس (الورش) ولم يعد لي هَمّ إلا هو يجانبه عملي الذي أقتات منه ومعي أسرتي وهي كبيرة وليست نووية بحكم التقاليد والظروف الاقتصادية التي جعلت استقلال الأبناء أسطورة... ولا أستطيع أن أستغنى عنه (عملي) أو أتهاون فيه طرفة عين أو حتى قاب العقاب[١١] لأنه مورد رزقي الوحيد ورزق القبيلة الصغيرة التي تجثم على أكتافي.

لم أيمم تجاه كتب التاريخ وحدها فهذا في نظري هو الخطأ

(١٠) **يلبّ**: يستخرج اللب «**أساس البلاغة**» للزمخشري.

(١١) **قاب العقاب**: مقدار مطارها في الهواء علواً وارتفاعاً، **ثمار القلوب في المضاف** والمنسوب لأبي منصور الثعالبي (٣٥٠/ ٤٢٩هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٤٥٣، **ذخائر العرب**، طبعة ١٩٨٥

الذي يرتكبه المُحَدثون الذين يتناولون العهدين المحمّدي والخليفيّ ومن أسف أن تتردى فيه أيضاً كليات الآداب في الجامعات العربية (من المحيط الثائر إلى الخليج الهادر) وربما مثيلاتها في الدول الإسلامية الأعجمية.

ذلك أن رأينا الذي ننادي به بأعلى صوت أن تلك الحقبة المتوهجة التي تشمل زمنيّ محمد وخلفائه الأربعة لم ترصدها كتب السير والتواريخ فحسب، بل إن سائر كتب العلوم الإسلامية تحوي ذخائر ثمينة وكنوزاً لا تقدّر من الأحاديث والأخبار والنوازل والوقائع والأحداث والنوادر والأحدوثات التي تشكّل تسجيلاً لأمور في غاية الأهمية أغفلتها أو أعرضت أو سهت عنها كتب السير والتورايخ.

وليس معنى هذا القول أننا نغض من قيمة هذه الأخيرة أو نهوّن من شأنها أو نهزّل (من الهزال) من قدرها، ولكن الذي نؤمه (نقصده) أن المصادر الأخرى ضمت ما لم تحط به خُبراً إما لطبيعة بنيتها وإما لبعد مصنِّفيها عن رجال السند وعدم تماسهم بهم أو لأنهم يرون فيها (الأحاديث) انقطاعاً عن مجال التأريخ ومن ثم فلم يلتفتوا إلى ما فيها من وقائع شديدة الاشتباك بالتاريخ أو هي في ذاتها تاريخٌ بمعناه الواسع.

ومن الطريف أن التاريخ لدى المسلمين جذره «الحديث»، ذلك أنه بدأت السيرة ــ سيرة محمد والسبيل إلى تدوينها كان من الحتم اللازم أن يبدأ بالأحاديث أحاديث محمد ثم أحاديث أصحابه وآل بيته الخ... ثم تطورت (السيرة) إلى تدوين التاريخ.

هذه الحفرية البالغة السرعة في التاريخ الإسلامي كعلم تؤكد لنا أنه حفيد أحد العلوم الإسلامية وهو «الحديث» إنما يبدو أن الخلف من المؤرخين المحدثين نسوا ذلك أو تناسوه. ومن هذا المنطلق

يتأسس المنهج الذي نادينا به ثم طبقناه في كتابة (الشدو) بأسفاره الثلاثة مع التأكيد على أننا لسنا بصدد تصنيف كتاب تاريخي إنما تشغل الأحداث التاريخية فيه حيزاً وسيعاً.

نحن نقدّر كتب التواريخ والسيّر حق قدرها ولا نبخس منه شيئاً ولكننا في الوقت نفسه في تناولنا مجتمع الصحابة لم نقتصر على السيّر والتواريخ بل استعنا بكتب العلوم الإسلامية في شتى المجالات نذكر منها على سبيل المثال: تفسير القرآن ــ أسباب النزول ــ الناسخ والمنسوخ ــ كتب علوم القرآن ونعني بها تلك التي تناولت بين دفتيها المباحث الخاصة بالقرآن و(لو أن أسباب النزول والناسخ والمنسوخ تندرج من ضمنها من أشهرها الاتقان والبرهان)...

كتب الحديث: الصحاح الستة وما دونها في الرتبة ــ وأسباب ورود الحديث وعلوم الحديث.

كتب الفقه: في عدد من المذاهب.

كتب أصول الفقه: بل وأصول الدين ــ أو علم الكلام ــ أو التوحيد خاصة في السِفْر الأول (محمد والصحابة) ــ كتب الخراج والأموال.

الكتب التي تناولت الصحابة كمجموعة واعتمدنا في الغالب على (الأسد) و(الاستيعاب) والتي تناولت عدداً محدوداً مثل العشرة المبشرين بالجنة (الرياض النضرة) وكتب الأنساب... والطبقات... والبلدان (الجغرافية) بل بعض معاجم اللغة (التراثية) وبداهة كتب السير (سيرة محمد) والتواريخ ولكن إذا كان استخدام (السير) و(التواريخ) مفهوماً فما صلة بقية المصادر برصد أحوال مجتمع الصحابة وتحليلها؟

إن مثل هذا السؤال لا يصدر (إلا من شخص ينظر إلى كتب التراث نظرة متعالية وبعضهم من فرط تعاليه يسميها (الكتب الصفراء) استهزاء وسخرية...

أو من آخر لا يزدريها بل يثمنها أصدق ثمانة، بيد أنه لا يكلف نفسه عناء إلقاء النظرة عليها، وفريق ثالث درس هذه الكتب وآجال البصر فيها وتخصص في بعض علومها (تفسير/ حديث/ فقه/ أحوال الخ...) ولكنه عندما يطالع النوازل التي تحملها بين دفتيها يعتبرها مجرد أمثلة في الباب الذي وردت فيه لا على أنها حالة إجتماعية أو ظاهرة اجتماعية من حالات أو ظواهر ذياك المجتمع.

فعندما يقرأ خبراً عن المرأة التي بمجرد أن تنتهي عدتها بولادتها تتزين وتتشوف للخاطبين يأخذه كدليل على خروج المرأة منها بعد وضعها حملها. أما نحن فقد استنتجنا منه أن ذلك المجتمع كان يبيح للمرأة أن تتزين وتجلس في بيتها تنتظر الخطّاب يدخلون عليها ويعاينونها وتعاينهم ويلاغونها وتلاغيهم ثم تختار منهم من يروق لها ودلالة هذا الاختيار ــ والأخرى التي تذهب إلى محمد تطلب الطلاق لأن ما مع زوجها كهدبة الثوب يستخلص صاحب الاختصاص الأحكام المتعلقة بحق زوجة العنيّن في طلب الطلاق ومتى وكيف يتم الخ...

أما نحن عندما نستقرئ هذا الخبر نخرج بمعانٍ متعددة منها جرأة المرأة في ذلك العهد بدرجة لا تتمتع بها مثيلتها في عصرنا الحاضر، كذلك أهمية المباضعة لدى المرأة حتى إنها تسارع إلى طلب الفرقة دون أن تصبر على زوجها عسى أن تكون عِنّته مرجعها عارض نفسي يزول بالعشرة.

وواقعة كسر دنان الخمر في المدينة حتى سالت كالقنوات في

طرقها وعرس جرار الخندريس في بيت أحد كبار الصحاب الخ... يخرج منها مفسر القرآن والفقيه بالحكمة في التدرج في التشريع الخ... في حين أننا ذهبنا إلى أنهما دليل على أن بنت الحان كانت متمكنة من نفوس أبناء ذاك المجتمع وأنها طقس يومي مثل معافسة الزوجات لديهم بل ربما يمارس في اليوم أكثر من مرة منها الصَبوح والغبوق.

وإلا فما هو التعليل لسيولة الخمر كالنهيرات في شوارع أثرب ــ ووجوه كوكبة من متقدمي الصحاب في بيت أحدهم يعاقرون المزة ثم كسر ما يخزنه من جرار بالمهراس الخ... ونحن هنا بصدد ضرب أمثلة سريعة لا إجراء حصر... لنكشف عن ركيزة منهجنا في اللجوء إلى الكتب التراثية في كُل أو جُل العلوم الإسلامية وعدم الاقتصار على السير والتواريخ فقط ــ وأن العلة هي إضاءة جوانب مجتمع الصحابة وتسليط الأنوار الكاشفة على كافة مناحيه لتضع صورته جلية أمام القارئ دون تزويق بعضها والتعتيم على الآخر ــ ولعلنا نكون محقين إذا أكدنا أنه منهج جديد غير مسبق.

أصحاب الكتابات التبجيلية الحائدة عن النهج الموضوعي ورؤساء وأعضاء فرق (جوق) التعظيم والتفخيم والتقديس... لا يكفيهم أنهم خانوا الأمانة العلمية لأسباب لا تخفى على من عنده ذرة من فطانة بل يهاجمون و(لا أقول ينقدون) الذين يلتزمون المنهج العلمي ويكتبون بـ(موضوعية) و(حيدة) و(نزاهة) ولا تطاوعهم ضمائرهم على التضبيب على الممارسات الفلوت التي صدرت من بعض الصحاب لأننا نؤمن أن العصمة كتبت لمحمدٍ وحده (إخواننا الشيعة ــ ردّ عليهم إمامهم الغائب ــ يضمون إليه الأئمة الطيبين الطاهرين من أهل بيته، ونحن مع محبتنا العميقة لآلِ البيت لقرابتهم الحميمة لمحمد وتنفيذاً لأمره المسلمين بحبهم فإننا لا

نوافق الأخوة الشيعة أو الشيعة الأخوة على أنّ لمخلوقٍ خلاه مهما علا قدره وسما مكانه وارتفع خطره عصمة أو قداسة وأن أفعاله يتوجب أن توزن بميزان المبادئ التي رسّخها القائد فإن وافقتها حمدناها له وإنْ خالفته نقدناه وأوضحنا جنوحه. اهـ.)

وليس لأحدٍ بعده عصمة أو قداسة وكل شخص يخطئ ويصيب، وفي حديث مشهور لمحمد (كل بني آدم خطّاء) وأبو بكر صرح بأن له شيطاناً يعتريه كناية عن احتمال وقوع أغلاط منه وعمر قال في أول خطبة: لو رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوّموني أي أن صدور إعوجاج منه قائم.

وحتى عهد ابن تيمية كان من الميسور نقد الصحابة وكتابه (منهاج السنة النبوية) يحتوي على العديد من المآخذ التي سجلها على صحابة أكابر مثل ابن أبي قحافة وأبي الحسنين عليّ.

بل إن محمداً تنبأ بأن عدداً من صحابه سوف يحيد عن الطريق القويم وأنه عندما يقابله في الدار الآخرة سوف يقول له سحقاً أي بعداً.

إذن تناول مجتمع الصحابة بدراسة موضوعية رصينة أمر لا غبار عليه بل مرغوب ومحمود ويتعين أن يُقابل بالتقدير بيد أن ما يحدث هو العكس تماماً ففي مرات سوابق قوبلت محاولة الكتابة عن أحد أو عدد محدود من الصحابة بالهجوم القاسي والتحامل الشرس بل الحرب الضروس. وهو مسلك يخلو من الروح العلمية ومنافٍ لمبادئ الإسلام ومن الغريب أن السلف كان يتكلم عن الصحاب بحرية فيقول أحدهم لو شهد فلان أو فلان (من الصحابة) على حزمة بقل لا أقبل شهادته ورغم أن هذا حكم قاسٍ فإن أحداً لم يكفّره أو يفسّقه أو يدّعي أنه خرج عن الملة الخ...

ونحن في دراستنا هذه لم نصدر أحكاماً مثله ولا أقل منه بل

تحاشينا إصدار أحكام، فقط أوردنا وقائع استقيناها من المصادر العوالي الذي تلقتها أمة لا إله إلا الله بالقبول والتجلة ثم قمنا قدر طاقتنا بتحليلها بالإبانة عن دوافعها وموجباتها وارتباطها بما واكبها من ظروف اقتصادية وحايثها من ملابسات سياسية أو عصبية أو طبقية.

ثم بعد العرض والتحليل الذي التزمنا فيه وسع الطاقة بالبعد عن العواطف والوجدانيات تركنا الأمر للقارئ ليحكم نفسه.

وقد حرصنا على أن تجيء الوقائع موثقة أشد التوثيق وقد استخرجناها من المصادر رفيعة الدرجة حتى لا يقال إننا كنا ننبّش في كناسة التاريخ كما قيل لغيرنا من قبل أو أن مصادرنا كتب من أمثال: الأغاني وألف ليلة وليلة (مع تقديرنا للقيمة الأدبية الفنية لهذين الكتابين. اهـ).

إن هذه المصادر وهذا التوثيق (المبالغ فيه في كثير من الأحيان. اه) يقطعان الطريق أمام كل معارضة أو سخرية أو هزء أو لمز أو غمز لسبب في غاية البساطة هو أنه إذا كانت هذه المصادر موضع طعن وتجريح وتهزيل وتوهين وتضعيف فإن كتب التراث الإسلامي جميعها تغدو بلا قيمة وتصبح هي والعدم سواء. وهذا عرض سريع لبعض الأسماء التي وردت في ثنايا الأسفار لأصحاب المصادر التي استخرجنا منها الوقائع والأخبار والأحداث والنوازل... وقد صنفناها حسب العلوم التي تناولتها ليستوثق القارئ من القيمة العلمية للدراسة:

١ ـــ في التفسير وعلوم القرآن

(الطبري ـــ القرطبي ـــ الواحدي النيسابوري ـــ السيوطي ـــ ابن كثير ـــ الفيروزآبادي ـــ الراغب الأصفهاني).

٢ ــ أصحاب السير وكتب الصحابة والطبقات والمؤرخون والنسابة

(ابن هشام ــ ابن كثير ــ محمد يوسف الصالحي ــ ابن سيد الناس ــ علي برهان الدين الحلبي ــ ابن عبد البر ــ ابن سعد ــ محمد بن عمر الواقدي ــ السهيلي ــ الطبري ــ البلاذري ــ المقريزي ــ الدينوري ــ المسعودي ــ المحب الطبري ــ المصعب الزبيري ــ محمد بن حزم الأندلسي ــ الذهبي ــ القاضي أبو بكر العربي ــ الكلبي ــ الأزرقي ــ السيوطي ــ ابن الأثير الجزري).

٣ ــ أصحاب كتب الخراج والأموال

أبو يوسف ــ أبو عبيد القاسم بن سلام ــ يحيى بن آدم القرشي ــ أبو الفرح بن رجب الحنبلي ــ قدامة بن جعفر.

٤ ــ أصحاب كتب الحديث

أصحاب الصحاح الستة ــ مالك ــ الشافعي ــ الدارمي ــ البيهقي ــ الطبراني ــ أحمد بن حنبل ــ البغوى ــ الزبيدي ــ الخطيب ــ الربيع بن حبيب الأزدي ــ الديلمي ــ ابن عساكر ــ أبو يعلي ــ ابن حبان ــ أبو نعيم الحاكم النيسابوري ــ الهيثمي ــ ابن منده ــ السيوطي ــ المقدسي.

٥ ــ أصحاب كتب الفقه

(الإمام الأعظم أبو حنيفة ــ قاضي القضاة أبو يوسف ــ محمد حسن الشيباني ــ مالك ــ الشافعي ــ شمس الأئمة السرخسي ــ ابن قدامة المقدسي ــ شمس الدين المقدسي ــ أبو عبيد القاسم بن سلام ــ يحيى بن آدم القرشي ــ ابن تيمية).

٦ ــ أصحاب كتب البلدان الجغرافية

ياقوت الحموي ــ أبو عبيد البكري.

وسوف يلاحظ القارئ أن المصادر التي استعنا بها في كل فرع من فروع العلوم الإسلامية تعتبر من أعلاها درجة وأسماها رتبة وأن مؤلفيها ومصنفيها وواضعيها هم أعلام العلوم الإسلامية كُلٌ في مجال تخصصه وإنْ اشترك بعضهم في أكثر من علم ــ وجميعهم موضع تقدير بالغ من المسلمين ولا يماري في خطرهم إلا الشكس العنيد.

إننا لا نقصد أن نلقم من يناوئنا حجراً ليس دأبنا ولا يتفق مع منهجنا وإنما نهدف أن نلزمه الحجة القاطعة حتى يراجع موقفه ويؤوب إلى الصواب، لأننا كما قلنا في دراسات سوابق أن من أهم أسباب تردي الفكر الإسلامي وتدهوره وانحطاطه هو التمسك ببعض الأمور التي غدت أشبه بالثوابت منها إضفاء القداسة على غير محمدٍ (من ناحية الأشخاص) أو على غير القرآن والسنة ونعني حصراً وتحديداً ــ الفقه (من جانب الفكر).

* * *

بدأ التأليف في الصحابة مع فاتحة عصر التدوين وكان ذلك في مطلع القرن الثالث الهجري ومن أشهر الأسماء التي وردت في هذا المجال أبو الحسن على بن عبد الله شيخ البخاري والبخاري وابن سعد وخليفة بن خياط ويعقوب الفسوي ومحمد بن عبد الله المروزي وعبدان الحافظ أبو محمد الأهوازي وأبو بكر عبد الله بن أبي داوود والحافظ البغوي عبد الله بن محمد وابن واثق وابن السكن وابن حبّان البستي والطبراني وابن شاهين وابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر وأبو موسى الأصبهاني المديني وابن الأثير

الجزري والسيوطي(١٢) وكتب الصحابة أعني التي ألفت فيهم تندرج تحت كتب (التاريخ الخاص).

وأشهر الكتب المتداولة حالياً في هذا المجال هي:

أ ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي يوسف ابن عبد البر القرطبي المالكي.

ب ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري.

ج ــ الإصابة في معرفة الصحابة للسيوطي.

وهذه الثلاثة على وجه التحديد وإن اشترك معها بعض ما سبقها حاولت استقصاء تراجم الصحابة وإنْ اختلفت مناهجها في ذلك ــ وكان همّ جلها تبيان صلة الصحابي بمحمد وروايته لأحاديثه على وجه الخصوص يضاف إلى ذلك رصد ما يمكن من المناقب والمآثر والمحامد الخ...

ولم تتعد هذا النطاق أي أنها لم تتطرق إلى أحوالهم خارجه ربما الذي كسر هذا الحاجز بدرجة ضئيلة للغاية (في نظرنا) هو ابن عبد البر القرطبي، وربما للبيئة العلمية المنفتحة التي عاشها في بلده بعض الأثر وننوه بأن من أتى بعده من الفقهاء والعلماء أخذ عليه هذا النهج واعتبرها بعضهم هفوة عالم وكبوة جواد ــ لأن ابن عبد البر وهو يفعل ذلك خرج عن التقليد الذي غدا بمرور الأيام أرسخ من الجبال الرواسي، وهو إلقاء الضوء على الأفعال الطيبة وإبرازها وتوضيحها وتجسيمها ولا نكون مغالين إذا قلنا المبالغة فيها وغض البصر عن الأفعال القبيحة التي تصل إلى حد قتل العمد أو السم

(١٢) لمزيد من التفصيلات ارجع إلى التقديم الذي صدّر به المحققون كتاب **أسد الغابة** طبعة كتاب الشعب بمصر.

أو التهوين من شأنها أو ذكر جمل عارضة بشأنها.

ولنضرب مثلاً بما ذكره ابن الأثير الجزري في (الأسد) عن الصحابي بسر بن أرطأة ذلك الذي فعل الأفاعيل التي سردنا نتفاً منها في السِفْر الثاني من الشدو (الصحابة والصحابة) ثم نردفه بما أورده بشأنه ابن عبد في (الاستيعاب).

أ ــ بعض ما جاء في (الأسد) عن بسر بن أرطأة

١ ــ كان يحيى بن معين يقول... هو رجل سوء وذلك لما ركبه في الإسلام من الأمور العظام.

٢ ــ مثل ذبحه عبد الرحمن وقثم ابني عبيد الله بن العباس وهما صغيران بين يديّ أمهما.

٣ ــ كان معاوية سيّره إلى المدينة واليمن ليقتل شيعة عليّ ويأخذ البيعة له فسار إلى المدينة ففعل بها أفعالاً شنيعة وسار إلى اليمن.

٤ ــ قال الدارقطني: بسر بن أرطأة له صحبة ولم تكن له استقامة بعد النبي (ص).

٥ ــ لما قتل ابني عبيد الله أصاب أمهما عائشة بنت عبد المدان من ذلك حزن عظيم فأنشأت تقول:

هـــل من أحسن بنيّ اللذين هما   كالدرتيْن تشظى عنهما الصدف(١٣)

ب ــ رصد ابن عبد البر لشنائع بسر بن أرطأة

١ ــ يحيى بن معين كان يقول: كان بسر بن أرطأة رجل سوء.

(١٣) **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري في ترجمة لبسر بن أرطأة ص ٢١٣ إلى ٢١٤، المجلد الأول، مصدر سابق.

٢ ــ ذلك لأمور عظام ركبها في الإسلام.

٣ ــ منها ذبحه ابني عبيد الله بن العباس وهما صغيران بين يدي أمهما وهما عبد الرحمن وقثم فنال من أمهما عائشة بنت عبد المدان شيء عظيم فأنشأت تقول شعراً (أوله البيت الذي ذكرناه) ثم وسوست فكانت تقف في الموسم تنشد هذا الشعر وتهيم على وجهها.

٤ ــ لما وجه معاوية بسر بن أرطأة لقتل شيعة عليّ (رض)... أغار على همدان وسبى نساءهم فكنّ أول مسلمات سبين في الإسلام وقتل أحياءً من بني سعد.

٥ ــ أرسل معاوية بعد تحكيم الحكمين بسر بن أرطأة في جيش فساروا من الشام حتى قدموا المدينة وعامل المدينة يوم إذن لعليّ بن أبي طالب (رض) أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله (ص) ففرّ أبو أيوب الأنصاري ولحق بعليّ (رض) ودخل بسر المدينة وأمرهم بالبيعة لمعاوية وهددهم فبايعوا مكرهين حتى إنّ أم سلمة إحدى زوجات محمد التسع أمرت ابنها عمر بن سلمة بالمبايعة حتى ينجو من القتل ونصحت الصحابي جابر بن عبد الله بذلك ففعل رغم أنه يوقن أنها (بيعة ضلال).

٦ ــ وهدم بسر دوراً بالمدينة.

٧ ــ ثم انطلق حتى أتى مكة وبها الصحابي أبو موسى الأشعري فخاف على نفسه القتل فهرب.

٨ ــ ثم مضى إلى اليمن ففر عاملها عبيد الله بن العباس وترك ثِقَله (أهله) فقتل ابنيه في حجر أمهما حتى وسوست.

٩ ــ وبسر بن أرطأة صاحب «يوم العورة» وهو يوم سبي النساء المسلمات لأول مرة في تاريخ الإسلام وإقامتهن في السوق للبيع فكان المشتري يكشف عن ساق المرأة فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتراها على عظم ساقها[١٤].

١٠ ــ كان بسر بن أرطأة من الأبطال الطغاة.

١١ ــ بيد أن طغيانه كان على المدنيين والنسوان والذراري لأنه في ميدان القتال كان أجبن من نعامة، أورد ابن الكلبي في كتابه أخبار صفّين أن بسر بن أرطأة بارز علياً (رض) يوم صفّين فطعنه عليّ (رض) فصرعه فانكشف له فكف عنه ــ وانكشف له أي كشف عن مؤخرته ــ وكان كل من يفعل ذلك يتركه أبو الحسنين ولا يجهز عليه وقيل إن عمرو بن العاص فعل ذلك مع عليّ أيضاً. وليت أبا الحسن خلّص على بسر لأراح الناس من شروره[١٥].

* * *

بادئ ذي بدء نجد أن ابن الأثير استنفد صفحة واحدة في ترجمة لبسر بن أرطأة بينما استهلك ابن عبد البر عشر صفحات كوامل ــ واكتفى بوصف ابن أرطأة أنه (رجل سوء) وأعماله بأنها (أمور عظام ركبها في الإسلام) وتناول مأساة عائشة بنت عبد المدان ــ وهي بنت صحابي وزوجة صحابي من بني هاشم ــ تناولاً

(١٤) كان العربي والأعرابي في ذلك الزمان يؤمنان أن المرأة صاحبة الساق العظيمة (الخدلجة) الممتلئة أمتع في المباضعة من المرأة ذات الساق الحمشة وكانوا يعدون حموشة الساقية من أبرز عيوبها.

(١٥) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر في ترجمة لبسر بن أرطأة من ص ١٥٧ إلى ١٦٦، المجلد الأول، مصدر سابق.

خفيفاً، ولم يذكر مثل ابن عبد البر أنها وسوست وأخذت تهيم على وجهها أي فقدت عقلها من هول ما حدث لها وهو ذبح صغيريها في حِجرها والمحزن أنه لم تكن هناك أية ضرورة لذلك الفعل الشنيع.

وأغفل فــرار بعض الصحابة من وجهه خشــية بطشه وجبروته منهم عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب (الذي ذبح ولديه) وأبو أيوب الأنصاري وأبو موسى الأشعري والأخيران من أعيان الصحابة... وإكراهه أهل المدينة/ يثرب على البيعة لمعاوية ودخول الصحابة وأبناء الصحابة فيها قسراً اتقاءً لحر السيف. وهدم دور في المدينة/ أثرب وغارته على همدان وقتل أحياء من بني سعد... وأسقط ابن الأثير واقعتين تعدّان من أسود نقاط ابن أرطأة:

أولهما: عار على المسلمين جميعاً وهي سبيّ نسوان همدان وعرضهن كرقيق في سوق الجواري حتى إن العرب الجفاة والأعاريب الأجلاف استباحوا لأنفسهم أن يكشفوا سوقهن للتأكد من صلاحيتهن الكاملة للمفاخذة والمباطنة وقد سُمّي الفعل من شدة شعور المسلمين بالخزي (يوم العورة).

والآخر: يمثل العار الشخصي له ويكشف عن جبنه وخساسته فهو في حين يقتل الأطفال في حجور أمهاتهن إذا به يرتكب فعلاً فاضحاً لا يليق بالرجال في ميدان القتال إذ عندما شدّ عليه أبو الحسنين وأوشك أن يقتله ويريح الناس من شروره بادر إلى كشف سؤته وهو يعلم أن علياً يتعفف عن قتل من يفعل ذلك لأنه يعلن عن نفسه أنه يتحول إلى كائنٍ حقيرٍ لا يستحق شرف الموت في ميدان المعركة.

تلك كانت بعض الأمور الهامة التي طوّش[16] عنها صاحب الأُسد مع أن كتابه تالٍ في الزمن لكتاب ابن عبد البر. ونكتفي بهذا المثال السريع في توضيح الفرق بين الكتابين (أو الموسوعتين) في هذه الخصوصية، ولو أن (الاستيعاب) أولى شطراً وفيراً من اهتمامه بما ذكرنا من أمور تعم سائر الكتب التي تناولت الصحابة.

ولكن لا يوجد كتاب منها ركّز على الحالة الاجتماعية في ذلك الجيل الذي تلقّى من محمد الديانة الإسلامية مباشرة وسمع منه القرآن والأحاديث الخ...

ونحن نزعم أن كتابنا هذا أول كتاب في تاريخ الفكر الإسلامي يتناول الجانب الاجتماعي لدى الصحبة لشعورنا بأهميته بل وضرورته للتعرف عليهم حق التعرف ـــ ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التي واجهتنا في تأليف هذا الكتاب لأننا اضطررنا إلى مطالعة عشرات بل مئات الكتب والمؤلفات في شتى العلوم الإسلامية لاستخلاص المواد اللوازم للكتاب؛ وإذ أننا نطرق مجالاً بكراً لم يسبقنا إليه أحد فقد تضاعفت العقبات وتكثف الجهد واتسعت مساحات المعاناة.

هذا بالإضافة إلى حساسية الموضوع المبحوث عينه وهذه الحساسية في رأينا لا صلة لها بصحيح الإسلام الذي يقرر بحسم وصرامة أن الميزان الأوحد لأي شخص هو عمله مهما كان اللقب الذي يحمله أو نسبه أو قربه أو بعده من قائد الثورة ومفجّرها محمد الذي له حديث في هذه الخصوصية بالغ الروعة وهو تحذيره

---

(١٦) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي طوش غريمه أي مطله والعامة في مصر نقول طنش.

لبني هاشم بأن سائر المسلمين سوف يأتون بأعمالهم أما هم فسيقدّمون قرابتهم له وهنا مكمن الخطأ إذ عليهم أن يعملوا مثل باقي أتباعه حتى يكتب له الفلج والفوز في الدار الآخرة.

هذه القاعدة التي تعدّ من أصول الإسلام وأساسياته كانت مطبقة في فجر الإسلام وكان المسلمون ــ بمن فيهم الصحاب ــ يقاسون بأفعالهم لا بصفاتهم وألقابهم ومن ثم كانوا يتناولون الصحابة بحرية تامة دون إضفاء عصمة أو قداسة عليهم، وأن الدهش يتولاك عندما تقرأ ما كتبه بعض السلف في حقهم حتى إن هناك من غالى في ذلك ونزع عنهم صفة الإسلام وألصق بهم الكفر عندما فعلوا كذا وكذا مثل قبول التحكيم أو عند سل السيوف ومحاربتهم بعضهم بعضاً.

كل هذا مدون ومسطور يقرأه القارئ ويعجب أو يتعجب.

بيد أن هذه الجرأة أو الشجاعة الأدبية أخذت تخبو رويداً رويداً حتى انطفأت شعلتها وهناك عوامل عديدة أدت إلى ذلك، تخرج عن موضوع بحثنا وحلّت محلها نظرة تبجيلية تعظيمية تفخيمية أضفت العصمة أو ما يشبه العصمة على الصحاب وهم بشر من البشر وغدا الحديث عن أي صحابي يبدأ بالصيغة الآتية (... الصحابي الجليل ــ سيدنا...) مهما أتى ذلك الصاحب من فعال إذا وزنت بقيم الإسلام ومبادئه لفظتها ورفضتها.

وهذا ما حدث في ديانة سابقة على الإسلام (نكرر في التاريخ لا في الرتبة) وعرف فيها من يُطلق عليهم لقب (القديسين) مع أن كتاب تلك العقيدة خالٍ من مسألة القداسة والقديسين حتى إنّ تلاميذ الرسول الذي بشّر بها جاءت أوصافهم بشرية وأُخذت عليهم بعض المآخذ.

ولقد صدق محمد عندما أخبر أصحابه أنهم وسائر المسلمين سيسيرون في الطريق نفسه الذي سلكه أتباع الديانتين اللتين سبقتاه (حتى إذا دخلوا حُجر ضَبٍ دخلتموه).

وتراكماً على ذلك غدت الكتابة عن الصحابة من التابو أو المحرمات إلاّ كتابة التمجيد والتعظيم. ومما يؤسف له أن كُتّاباً معاصرين ساروا في ذلك عندما كتبوا عن بعض الصحاب رغم أنهم (أولئك الكُتّاب) بدأوا حياتهم الفكرية ليبراليين وعقلانيين ومستنيرين أشد الإستنارة.

ولم تكن ما تسمى بـ (الصحوة الإسلامية) قد ظهرت بعد ولم يكن لـ (البترودولار) وجود ومعلوم الدور الخطير الذي لعبه في انتكاسة الفكر العربي عموماً والفكر الإسلامي خصوصاً ــ وعلى كلٍ فإنّ إنعطافة أولئك المفكرين والكتاب وبعضهم من ذوي الأسماء اللوامع موضوع لا بد أن يُدرس ويمحّص.

* * *

لعل مما يضيء جوانب الإنعطافة هذه أن نقدم مثلاً مما يقوم به فرسانها:

قدم أ. عباس محمود العقاد في (عبقرية خالد) دفاعاً عن ابن الوليد لارتكابه مذبحة (بني جذيمة) التي أدت بقائد الثورة المظفرة إلى أن يفزع مما حدث منها ويرفع ذراعيه الشريفين إلى السماء حتى رؤى بياض إبطيه ويدعو متوجعاً (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) وموقف عمر بن الخطاب وإصراره على محاكمة خالد ــ وغضب عدد من الصحابة ممن كانوا في السرية وشهدوا المقتلة ومن لم يشترك فيها منهم عبد الرحمن بن عوف رغم أن له ثاراً لدى القبيلة المغدورة.

علماً بأن إدانة ابن الوليد لم تأت اعتباطاً إنما نتيجة تحقيق دقيق وسماع شهود الواقعة وبعد استماع دفاع خالد الواهي المتهافت عن نفسه.

بعد كل هذه الوقائع الموثقة والأدلة الدوامغ والبراهين السواطع والحجج القواطع كان حرياً بالأستاذ العقاد أن يعترف بمسلك ابن الوليد الخاطئ ويوافق على إدانته ويرضى بتجريمه لا أن يدافع عنه لو أنه كان يتحرى الدقة ويلتزم الموضوعية ويتمسك بأمانة القلم ــ بيد أنه للأسف لم يفعل بل أمسك بقيثارة وعزف عليها قصائد التمجيد وأشعار المديح وأبيات التفخيم وطفق يلف ويدور ويحاور ويناور عساه يجد تبريراً لفعلة ابن الوليد الشنعاء التي أغضبت محمداً فأعلن براءته منها وأحنقت كبار الصحاب وأعيانهم، ولا مانع لدى العقاد في سبيل التماس الأعذار من اللجوء إلى أبيات من الشعر وإلى كتاب الأغاني للأصفهاني في (سبق أن ذكرنا تقديرنا لـ(الأغاني) وأننا لا نبخسه ثمانته من الناحيتين الأدبية والفنية). أما ونحن في مجال واقعة تاريخية لها جانب ديني أو عقائدي فما الذي دفع العقّاد إلى الاستعانة به وترك كتب السيّر والتواريخ والأحاديث؟ الجواب لا يحتاج إلى أقل شطرٍ من الذُكْو (بضم الذال وسكون الكاف) لأنه انزنق[١٧] إذ لم يعثر في المصادر المتعلقة بالنازلة ما يسعفه فاتجه إلى الأغاني!!!

ولا يتورع أ. العقاد في سبيل تبرئة ابن الوليد إلى الاستشهاد برواية ضعيفة بل ربما موضوعة عن عبد الله بن حذافة (أن رسول

(١٧) **زنّق** على عياله: ضيق بخلاً أو فقراً، من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، والزنقة: مسلك ضيق في القرية، من **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام) وهذا الدفع مردود عليه بالآتي:

أ ــ خالد باعتراف العقاد (ص ٧٥) أرسله محمد إلى دعوة القبائل إلى الإسلام لا لمحاربتها فما الذي دفع القائد إلى تغيير الهدف إلى القتال.

ب ــ كيف يبرأ محمد من المقتلة التي ارتكبها خالد إذا كان هو الذي أمره بالقتال، كان أقصى ما يعلّق به: أن خالداً تجاوز الحد ــ إنما التبرئة بتلك الصورة التي تشي بالغيظ البالغ دليل لا يقبل الشك على أنه لم يُشر عليه بقتال.

ففي واقعة أخرى قريبة من مجزرة خالد أو ربما محايثه لها بعث محمد أحد قواده وهو جرير بن عبد الله البجلي لهدم (ذي الخلصة) صنم خثعم وباهلة وبداهة محاربة من يتعرض له في إنجاز تلك المأمورية فقتل جرير مائة رجل من سدنة الصنم من باهلة وأكثر القتل في خثعم ومائتين في قحافة بني عامر (بطن من خثعم)(١٨).

لو حسبنا عدد أولئك القتلى لوجدنا أنه يفوق عدد مغدوري بني جذيمة، ورغم ذلك لم يعنف محمد جريراً البجلي بل ربما هنأه على نصره الساحق وقيامه بما كلفه به لماذا؟ لأنه أرسله في مهمة قتالية في حين أن خالداً كان في مأمورية دعوية!

ج ــ كان مع خالد عدد من خيرة الصحب ــ المهاجرين والأنصار كلهم أشار عليه بالإبقاء على الجذميين وعدم

---

(١٨) **كتاب الأصنام** لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق د. محمد عبد القادر وآخر ص ٥٠، طبعة ١٩٩٣، الناشر: مكتبة النهضة المصرية.

ذبحهم فلِمَ لَمْ يمتثل وأخذ بكلام ابن حذافة؟ وكانت الشواهد كلها في صف مشورة الصحاب ويستطرد العقاد (كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة في مقتلة بني جذيمة) ص ٧٨ وسبق لنا في السفر الثاني أن فندنا دواعي اللبس تلك فليرجع إليها من شاء ولا نرى موجباً لتكرارها.

أما دوافع الطبع، نعم فقد عرف عن ابن الوليد الصرامة أو الشدة التي بلغ مداها أنها كانت تفزعه في نومه والتي وصفها ابن الخطـــاب بقوله إنّ في سيف خالد رهقاً فضلاً عن أن أباه الوليد بن المغيرة كان جزاراً، ومن الغريب أن العقاد أورد بعضاً منها (ص ٨١) بيد أنه بدلاً من أن يقدمه (الطبع) كدليل إدانة إذا به يقدمه كقرينة للتسويغ. ومن المدهش أن ابن تيمية وهو أكثر تمسكاً بمبادئ الإسلام وقيمه أخذ بقوله عمر في سيف خالد وأضاف: أنه قتل من الخلق ما لا يحصيه إلاّ الله (منهاج السنة النبوية).

وأخيراً ناقض أ. العقاد نفسه حين أقر بأنها فلتة من أشباه هذه الفلتات التي تقع في حروب العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية (ص ٨١)[١٩]. ونحن نسأل في أي شرع أو دين أو عرف يُعتبر قتل المئات فلتة؟

وإذا كنا قد أطلنا قليلاً في توهين مرافعة العقاد عن خالد في مجزرة بني جذيمة فلم نعمد إلى تجريح الأستاذ الكبير ولا الغض من قدره، ولكن نقدمه كنموذج لواحد من المتحولّين من العقلانية والليبرالية إلى نافخي أبواق الحمد والثناء والمجد وكان حرياً به

(١٩) اعتمدنا في ذكر الصفحات على طبعة كتاب **عبقرية خالد** التي نشرتها دار الكتب الحديثة بالقاهرة. دون تاريخ ونرجّح أنها الطبعة الأولى.

واحتراماً لتاريخه الفكري أن ينأى عن ذلك ويكتب بموضوعية!!!

* * *

سطّر العقاد في مقدمة كتابه (عبقرية محمد: (وحسبنا من عبقرية محمد أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان، عظيم في ميزان الدين عظيم في ميزان العلم وعظيم في ميدان الشعور وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية[٢٠] ولا يختلف أحد معه سواء كان مسلماً أو غير مسلم فيما ذهب إليه في توصيف محمد بالعظمة في كل ميدان وبكل ميزان بيد أن الخلاف والاختلال معه يقبّان (يظهران) عندما يحاول الكاتب الكبير أن يُعمم هذا المنهج (التعظيمي) في سائر (العبقريات) متناسياً أن أصحابها بشر لا قداسة ولا عصمة لهم مثل محمد، وقد أتوا أعمالاً موضع نقد وكان يتعين عليه وعلى من شاكلته أن يدرك ذلك حتى تجيء كتاباته ملتزمة بالمنهج الموضوعي وألا يدع العواطف أو دوافع أخرى تغلبه وتجعله يحيد عن المسلك العلمي الرصين.

* * *

(٢٠) **عبقرية محمد** للأستاذ عباس محمود العقاد، ص ٨، د. ت. ن، ونرجّح أنها الطبعة الأولى، نشر مطبعة دار التأليف بمصر.

(شدو الربابة)

ما معنى الشدو؟ وما هي الربابة؟

شدا شدواً: حدا ــ وشدا بالشعر: ترنم وتغنى وشدا من الأدب والعلم: حصّل منه طرفاً ــ الشادي: المغنّي... وطالب العلم والأدب[٢١].

شدا من العلم شيئاً وهو شادٍ وأخذ منه شداً ــ طرفاً وذرواً... وكذلك شدا من الغناء، ثم قيل للمُغنّي الشادي وهو يشدو بكذا ويغني به، وذكره يشدو به الشدو، ويحدو به الحُداة[٢٢].

شدا الإبل ساقها... والشعر ترنم أو تغنّى به وأنشد بيتاً أو بيتين بالغناء وأخذ طرفاً من الأدب[٢٣].

هذا ما جاء في ثلاثة من معاجم اللغة عن الشدو ــ أما الربابة فهي:

آلة وترية شعبية ذات وترٍ واحد[٢٤] إذن شدا شدواً تغنّى إما ١، ترنم وتغنّى أو ٢، أخذ طرفاً من الأدب والعلم والشادي تُطلق على ١، المُغنّي و٢، طالب العلم.

ونحن نترك للقارئ اللبيب أن يقوّم ما جاء في هذه الأسفار الثلاثة هل هو تغنٍ بأحوال مجتمع الصحابة أو تحصيل طرفٍ من العلم بها.

ولو أننا نرجح المدلول الأخير إذ أن ما حملته (الأسفار) على طولها النسبي ــ في اعتقادنا ــ طرف يسير بل إن شئنا الدقة فهو

(٢١) **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.
(٢٢) **أساس البلاغة** للزمخشري.
(٢٣) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.
(٢٤) **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

غيض من فيض أو قطرة من محيط من أحوال ذلك المجتمع التي هي في أمس الحاجة إلى كتيبة بل لواء بـ (الاصطلاح العسكري) من الدارسين عليهم أن يستعينوا بالطرق الحديثة في البحث والتصنيف والتوثيق الخ...

لا الأساليب التي أعترف وأبصم بالعشرة أنها غدت بدائية وعتيقة ويتعين أن تدخل متحف التاريخ الفكري وهي التي نستعملها جميعاً يتناولونه من مناحيه كافة ولا يتركون شاردة ولا واردة فيه:

بداية بكلامهم ولهجاتهم ومفرداتهم المعجمية إلى سلوكهم في ميادين الحرب مروراً بملابسهم وطقوسهم الاجتماعية والعبادية ومساجدهم ودورهم ومناكحهم ومساجدهم ودورهم ومناكحتهم و(أحوالهم الشخصية) كافة... وإحتفالياتهم وطقوسهم... العبادية وأفراحهم وأحزانهم وأعراسهم وجنائزهم وعلاقتهم الخاصة والعامة والعائلية ــ مع نسوانهم وذراريهم وطبقاتهم وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم وأعمالهم (السابقة على دخولهم الإسلام وبعد ذلك) ومعارفهم ومعتقداتهم السابقة وأصنامهم التي كانوا يعبدونها وأشعارهم وخطبهم وأساطيرهم وموروثاتهم الشعبية وأمثالهم وتقاليدهم وأعرافهم وقصصهم ونوادرهم الخ... والعلة وراء هذا المطلب أوضحناها وسطرنا عن هذا الجيل الكثير وعن خطره وأهميته مما لا نرى موجباً لترديده الآن خشية إملال القارئ ــ وتكمن أهمية تفكيك ذياك المجتمع ــ وتفليته فلاية[٢٥] وتشريحه شرحاً[٢٦] مكيناً للكشف عن مغاليقه واستكناه غوامضه ومعرفة

---

(٢٥) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي: فلاه فلاية: تدبره واستخرج معانيه الدقيقة.

(٢٦) الشرح: التفسير من **مختار الصحاح** للرازي.

خوافيه والغوص في أعماقه والنفاذ إلى أحشائه وتقليب بواطنه ولَبّ قلبه والدخول إلى جوانيّه ووضعه تحت المجهر ــ في أنه عاش مع القائد العظيم فترة التأسيس وحقبة التدشين وزمن البداية وعاين الفجر وهو يبزغ والشمس وهي تشرق وحايث الطزاجة والبكارة والعُذرية وسعد بالبواكير الأولى وتلقى البشائر وتذوق الفواتح الخ... وعجبي لا ينتهي أن هذه الدراسات لم تُنجز بعد ولم تُؤلف فيها كتب ولم تقدم فيها أطروحات جامعية ولا رسائل أكاديمية.

هذا المطلب المُلحّ يندرج تحت الدعوة التي أطلقناها منذ سنوات في (قريش) تعنى ضرورة قراءة التاريخ العربي الإسلامي بداية بـ سيرة محمد وأنت نازل بعقل ناقد وعين يقظة وباصرة مفتوحة وأفق واسع وفكر منطلق لا يحده قيد من أي نص أو شخص مع طرح العواطف والوجدانيات ونبذ أي قداسات تكبل التقييم وتعيق السبر وتخريق الوزن وتزيّف الأخبار وتغبّش الرؤية وتضبب الطريق وتفسد المقياس وتُلّك[٢٧] وتلبّس الأمر الخ... ثم كتابته (التاريخ العربي الإسلامي) بموضوعية تنأى عن الهوى والميول ولا تبيع أمانة العلم ولا تفرّط في مسؤولية القلم بأي ثمن ولا تخاف إلاّ الله وحده.

* * *

وقد تأسينا بالسلف الصالح في التزام السجع عند تحديد العنوان:

(شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة) مثل: (أُسد الغابة في معرفة الصحابة) و(الإصابة في معرفة الصحابة) و(الاستيعاب في

(٢٧) لكَ الشيء لكاً: خلطه وضغطه، من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

معرفة الأصحاب) ولعل هذا هو الجامع الوحيد. أما المنهج فهو مغاير تماماً ــ ولا نعتقد أن في ذلك أدنى غضاضة إذ أن الفكر العربي الإسلامي على طول مسيرته اغتنى باختلاف المناهج وتباين الطرائق الخ...

وأخيراً: لمن ندق الأجراس... ولماذا؟

(الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية).

(قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية).

(الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية).

(العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب في العهدين المحمدي والخليفي).

وأخيراً

(شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة) بأسفاره الثلاثة[٢٨] نواقيس قصدنا بها: تنبيه الغافل وتصحية الوسنان وإيقاظ النائم ــ ومبادرات لتثوير الفكر العربي الإسلامي وتجديده.

ومصابيح لإزالة الأسجاف الحوالك التي تخيّم عليه.

وآلات قواطع لتفكيك القباب المقدسة الزيوف التي تحجب عن العقل منافذ النور والهواء النقي ــ ونحمد الله تعالى أن القارئ تقبلها قبولاً حسناً في مصر والعالم العربي بل والخارج حتى أوشكت طبعتها الأولى أن تنفد[٢٩] مع أنها تتوافر لها مقومات

(٢٨) جميعها من إصدارات دار سينا.
(٢٩) تسلمت دار سينا مقدمة وإضافات الطبعة الثانية من (قريش).

الرواج الشائعة بل على العكس فإنها عسيرة الهضم إلاّ على القارئ الطُلعة الذي يحرص على المادة الرصينة وهي تخاطب عقله لا عاطفته وتقلقه إذ تحثه على التفكير وإعادة النظر في كثير من تلك التي كان يعدها ثوابت وتخلخل ما درج على اعتباره أصولاً يستحيل مجرد التحويم حولها وهي لا تخدّره ولا تنيّمه لأنها لا تقدم له الأحلام أو ما يشبهها ــ بل هي توقظه على الواقع المتردي الذي يعيشه ليتفرس في الأوهام التي تعوّد على تلقيها منذ نعومة أظفاره وقبله تلقتها أجيال وراء أجيال.

إن صوراً زوائف تكاد تحتل مساحة التاريخ العربي الإسلامي بكامله بل إنها من القوائم الرواسخ فيه لدى الغالبية العظمى ــ وكتاب (الشدو) مبادءة للكشف عن زيفها. وهنا حقيقة هامة موجزها أن أبطالها لا تبعة عليهم في تزييفها فلم يكن بعضهم أو معظمهم براضٍ عن رسم لوحتها. أما الكتب التراثية فلا مسؤولية على مصنفيها الذين رصدوا الوقائع بصدقٍ وأمانة أو على الأقل غالبيتهم ــ هذا هو معتقدنا ورأينا الذي نتمسك به بعد أن عايشنا مؤلفاتهم أعواماً طوالاً ــ بيد أن تزييف تلك الصور وبرقشتها وزخرفتها وإخفاء الجوانب السيئة فيها وإفشاء النواحي المضيئة والمبالغة فيها الخ... جاء على أيدي أجيال مُصليّة (تالية) وشجعت وآزرت هذا العمل البالغ الفسولة[٣٠] ومصالح ومنافع وسلطات متنوعة الخ... وهي نفسها التي ضمنت له الإستمرارية قرناً وراء آخر لأن لها أصحاباً في كل زمان ومكان.

وإذ أن تلك الصور تحجرت وتكلّست فقد غدا من الصعب

(٣٠) **الفسولة:** الرذالة والدناءة والزيف وضعف الرأي، من **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية.

رفع الحجاب عنها وتفكيكها وإظهار حقيقتها ونزع طبقات وراء طبقات من التزييف تراكمت عليها عبر القرون.

وإذا كان (الشدو) أول الخطوات في هذا السبيل فللقارئ أن يقدّر مدى الصعوبات التي قابلتها والتي تخطاها بالمثابرة والمصابرة والتحمل وشأن بواكير الأعمال لا بد أن ينوء ببصمات الريادة.

بيد أن (الشدو) وحده لا يكفي ولا بد للأجيال الواعدة أن تقتفي أثره وتنسج على نوله لتكمّل المسيرة وتبلغ نهاية الشوط (هذا إذا كان لمثل هذا الشوط نهاية وهذا ما لا نراه) تلك كانت إجابة مختصرة عن الشطر الأول من السؤال: لمن تُدق الأجراس؟

* * *

ونصل إلى عُجِزه: لماذا؟

الإجماع منعقد على أن الفكر الإسلامي (عربيّه وأعجميّه) في حالة تخلف واضح وهو عاجز عن مواكبة موجبات العصر، يحلق في وادٍ وواقع المسلمين (المعاش) في وادٍ آخر بعيد عنه بعداً شاسعاً ولا نكون مغالين إذا قلنا إنه أبعد مما بين المشرق والمغرب. ولقد صُنفت مئات الكتب بكل لغات المسلمين الحيّة وبلغات الفرنجة المتداولة وعُقدت ألوف الندوات والمؤتمرات وألقيت ألوف المحاضرات وفيها قدمت ما لا يحصيه إلاّ الله وحده من (الأوراق) و(المداخلات) و(الأبحاث) و(الدراسات) و(التعقيبات) و(التعليقات) و(الحواشي) الخ... وماذا كانت النتيجة؟

(كأنك يا أبو زيد ما غزيت) كما يقول المثل الشعبي في مصر المحروسة ــ بل الأمر يزداد سوءاً والليل تشتد سُدفته (ظلمته)

والتخبط تتضاعف كثافته والربك يرتفع معدله والهرج والمرج يغدوان الشارة المميزة والعلامة الفارقة الخ...

ولكن ما السبب؟

في مثل هذه الأمور التي ترتهن بها مصائر أمم وأوطان وشعوب ودول الخ... لا بد من المصارحة وإلا نصبح كمن يحرك رجليه وهو واقف (محلك سر) متوهماً أنه يسير!!!

العلة الرئيسة في ملتنا واعتقادنا أن المفكرين وكل المسؤولين عن صناعة الرأي بمختلف المستويات لا يملك واحد منهم الشجاعة على أن (يُعلّق الجرس في رقبة القط) كما تقص الحكاية المشهورة.

ليس فيهم من يجرؤ على أن يتقدم ويعلن بملء فيه أنه من الحتم واللازم تغيير المنهج السائد من أساسه إنْ في الفكر أو الكتابة أو التوجيه الخ...

ذاك الذي يرتكز على دعامات آن الأوان (كان من المفروض أن يتم ذلك من قرون) أن تحال على المعاش أو الإستيداع وأن تدخل متحف التاريخ.

دعامات: تقديس الأشخاص (الذين لا قداسة لهم ولا عصمة) وهيمنة النصوص (بداهة لا نعني النصوص الأم أو الأصلية وهي القرآن والحديث) والرجوع إليها في الصغيرة والكبيرة من دخول الخلاء حتى لباس النسوان والعمليات الجراحية وأعمال المصارف وشؤون الحكم وأمور السياسة ومستلزمات الإدارة الخ...

دعامات: نفى العقل وازدراؤه والسخرية منه والهُزء بمن ينادي بحاكميته المطلقة في الصغيرة والكبيرة ونتيجة منطقية لغلبة هذه الدعامات سُدت على العقل الإسلامي (العربي والأعجمي) طاقات

الضوء ونوافذ الهواء النقي فاختنق وضمر وهزل وركبته العلل وضربته الأدواء وعششت فيه الأمراض، وإذا كنت في شك فاقرأ ما تصدره الهيئات والمؤسسات والجمعيات ومراكز البحث ومعاهد الدراسة في كل أنحاء العالم (حتى التي في بلاد الفرنجة والعم سام) تجد أنها تكرار واجترار (وطق حنك) حسب توصيف إخوتنا الشوام، المواضيع نفسها والمواد عينها لدرجة أنك تستطيع أن تخمّن بمجرد قراءة (العنوان) ما سوف يسطره الكاتب من نصوص أساسية وثانوية واستشهادات... الشيء الوحيد الذي يتغير في هذه الكتابات هو اسم المصنف.

حتى الذين يتنادون بـ (المشروع الحضاري الإسلامي) وكان الأمل معقوداً عليهم يسيرون على الدرب فإذا بهم يلوكون جملاً وعبارات وتراكيب... أشبه بمُثُل أفلاطون كـ: الخيرية والوسيطة والتمكن ومنهج الحركة والاستخلاف أو الخلافة لله، الشهادة على الناس، ارتفاق الكون وعمارة الأرض أو إمساكها بتوحيد لا يفصل بين الأرض والسماء وتجديد النخبة وفقه السنن والاستنقاع الحضاري والإستلاب الحضاري والإرتهان الثقافي والإقلاع الحضاري... وغيرها العشرات بل ربما المئات.

فإذا سألت أحدهم كيف يتسنى تحقيق هذه المنظومة اللفظية وتشييئها على أرض الواقع...؟

لم تجد جواباً لا شافياً ولا غير شافٍ ــ لأن هذه الألفاظ ظروف (أغلفة) لإخفاء العجز عن المواجهة الصريحة للمعضلة الحارقة فهم إما غير مؤهلين للتصدي لها إذْ يجهلونها أو أنهم يعرفونها ولكنهم يحجمون عن حلها إنْ حفاظاً على مكاسبهم (وما أدراك ما هي

مكاسبهم) أو فراراً من (وجع الدماغ) وما هو أوعر منه مما قد ينحدر إلى التصفية الجسدية أو تطليق الزوجة.

وحقيقة الأمر أن الحل يكمن في الإنعتاق من رق الدعامات التي ذكرناها قبل قليل وكسر القيود الثقيلة التي تُكبل بها الفكر وذلك عن طريق الثورة عليها وتحطيمها عبر بوابة هتك الحجاب ورفع الستار عن الصور الزيوف لمن لا قداسة ولا عصمة له.

والتحرر من هيمنة النصوص الثواني وهذا ما سوف نبدأ فيه وقد فرغنا والحمد لله من الشدو وإياه نسأل أن ينسأ في الأجل لإنجازه وسوف يكون عنوانه (بإذن الله) (شفاء الغليل فيما قام به الفقه من تبديل) والعودة إلى حاكمية العقل، وهذه الدعامات لم تسجن الفكر الإسلامي فحسب بل إنها أشاعت في القاعدة الشعبية العريضة: الأساطير والخرافات والبدع والتوهمات والتوسمات والحدوس والفيوض واللدينات وكلها لا تمت إلى صحيح الإسلام بأوهى وشيجة ورسّخت مفاهيم التواكلية والتفويضية والتسليمية وأسست العداء الدفين للعقل والتفكير العلمي (حتى إنهما أصبحا قرينين لعدم الإيمان وضعف الإسلام) وثبتت اللاماورائيات واللامعقوليات والاعتقاد بعوالم لا منظورة وكائنات غير محسوسة وكلها هي التي ترسم مصير الشخص وتحدد له خط سيره الخ...

وهناك علاقة جدلية بين الدعامات وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على الفكر وعلى معتقدات وسلوكيات القاعدة الشعبية العريضة أي أنها فاضت على البنى الفوقية والبنى التحتية وضربتهما معاً. ويندّ عن نطاق بحثنا تقرير أولوية المتأثر ثم تأثيره بدوره على الآخر بمعنى: هل البنى الفوقية هي التي تأثرت في البدى ثم أثرت بدورها على التحتية أم العكس هو الصحيح فهذا جدل نظري

بحت ونحن يعنينا الواقع المهزوم وما نضعه في بؤرة اهتمامنا هو أن تلك الدعامات هي جرثومة التروي وأصل التخلف ومعدن الانتكاس وعنصر التأخر واس التقهقر وأنه لا سبيل إلى النجاة إلا ما ذكرناه.

* * *

إذا أردنا أن ندرك مدى الهوة التي يتردى فيها الفكر الإسلامي (العربي والأعجمي) المعاصر نقارن بينه وبين الفكر الإسلامي في عصر النهضة (طبعاً المقصود النهضة الإسلامية أو الحضارة الإسلامية) في القرون الهجرية الثالث والرابع وشطراً من الخامس ويتضح ذلك من مقالات المفكرين آنذاك ومقولاتهم ـــ نبدأ بمقولاتهم فقد كانوا لا يتهيبون نقد الصحابة ولعل ما ذكره رؤساء المعتزلة في تحديد مواقفهم (الصحبة) في الفتنة الكبرى وما تلاها وواكبها من حروب أهلية طاحنة ووقوفهم في مواجهة بعضهم وسل السيوف الخ...

وما قالوه في أفضلية بعضهم على بعض في تولّي الخلافة... أكبر شاهد على أن فرسان العقل (المعتزلة) وغيرهم من أصحاب الفرق الأخرى في تقويم الصحابة ووزن فعالهم وقياسها بمقياس صحيح الإسلام لم يكونوا يعرفون مجرد معرفة مسألة التقديس الصحابة أو نسبة العصمة إليهم (هذه المسألة دخلت الفضاء الفكري على أيدي الفقهاء فيما بعد ومن على شاكلتهم من رجال الحديث والمتصوفة الخ. اهـ).

كذلك أعلى المعتزلة على وجه الخصوص من قيمة العقل.

ونتيجة لعدة عوامل ليس هذا مجال ذكرها أو حصرها ـــ أهمها ترجمة كتب الثقافات المجاورة ـــ والدخول في حوار مع أهل

الديانات والعقائد والملل الأخرى انفسح نطاق الحرية الفكرية وتناولت مقالات المصنفين: المواضيع الشائكة كافة بل والحارقة مثل:

الألوهية/ الربوبية/ والصفات/ وأزلية العالم/ والجبر والاختيار/ والقضاء والقدر/ والنبوة/ والبعث وهل هو بالروح وبالجسد أم بالروح لاستحالة جمع الجسد بعد فنائه/ وعن الأنبياء ومعجزاتهم/ وعن إعجاز القرآن/ وإمكان محاكاته/ والإمامة العظمى الخ...

وكتب فيها على سبيل المثال لا الحصر: الرازي وابن الراوندى وابن طالوت ونعمان وأبو عيسى الورّاق بحرية فردّ عليهم الخياط والفارابي والكندي وأبو علي الجُبّائي والجاحظ وغيرهم كثير ــ ولم يقل الأخيرون إنّ هذا استنقاع حضاري ومؤامرة كونية تقف وراءها جهات لا تضمر للإسلام خلا العداوة الشديدة والغل المكين. وعندما تُرجمت كتب الأوائل والمؤلفات في سائر العلوم وقام الخلفاء والوزراء والأغنياء بتشجيعها والإنفاق عليها... لم يُنعت ذلك بأنه غزو فكري وارتهان ثقافي واستلاب حضاري...

وهكذا بنفي العصمة لبشر ــ عدا محمد ــ وبالحديث وبتناول سلوكيات أي شخص بغير موانع أو سدود وبإعلاء قيمة العقل لأقصى درجة...

وبالإطلاع على ثقافة الآخر والتحاور معه تحققت النهضة الفكرية.

وترتيباً على ذلك أو ربما مواكبة ومحايثة له اختفت من عقول القاعدة الشعبية العريضة الأساطير التي كانت سائدة في المجتمع السابق:

فلم يعد هناك حكي عن الغيلان والجن والعين والحسد و(العمل)... وحَلّ العلم التجريبي مثل الطب والكحالة والجراحة والصيدلة محل الرُقي والتعاويذ وأُنشئت المستشفيات (البيمارستانات) ذات التخصصات الدقيقة... بل إن الحيوانات تخصص لها البياطرة لعلاجها وانفصمت علوم الدنيا كلها عن دائرة اللاماروائيات.

أي أن التفكير العِلْمي حَلّ محلّ التفكير اللاماورائي لدى العامة... الذين تبدلت أحوالهم وأخذوا من المدنية بطرف وفير (والمدنية كانت تمثل مختلف المدنيات: مسجد وحانة وقارئ وزامر ومجتهد يرتقب الفجر ومسطبح في الحدائق وساهر في تهجد وساهر في طرب وتخمة من غنى ومسكنة من إملاق وشك في دين وإيمان في يقين)[٣١] والتمدن والعقل قرينان كما أن التبدّي والأسطورة صنوان.

والمفكرون المعاصرون الذين يرفعون شارات إسلامية لا مشاحة أنهم اطلعوا على تاريخ فكر النهضة وعلى ما كان يجري في المناحي كافة ودرسوه إما دراسة متأنية أو عَجلى.

ومن ثمة فقد كان لزاماً عليهم أن ينهجوا النهج عينه الذي سار فيه سلفهم الصالح:

نزع القداسة والعصمة من أي شخص ــ عدا محمد.

الانعتاق من هيمنة النقل وسطوة النصوص الثواني.

تسييد حاكمية العقل المطلق في الصبح والمساء وفي الأمور كافة والشدو بأسفاره الثلاثة مبادءة أو مبادرة للسير في الطريق

(٣١) **ضحى الإسلام** ج ١ ص ١٦٧، ط ٣، ١٣٥٧/ ١٩٣٨م.

الفكري الصحيح وهو يخاطب القارئ الواعي المسؤول الذي يحمل على كتفيه هموم وطنه ومجتمعه ليساعده على الخروج من المحبس الذي وُلد ليجد نفسه بين قضبانه: محبس الأوهام والمخاريق والأساطير والخرافات والشعبذات التي يُطلق عليها (الثوابت) والتي يُوحون إليه أن المساس بها زندقة وهرطقة وإنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة وردة... إلى آخر هذه المنظومة اللفظية التي يجيدون لَوْكها هذه الأيام المُعجبة مع أنها ليست ثوابت (ولا حاجة) وأنها أبعد ما تكون عن صحيح الإسلام فإن فلح (الشدو) في أداء هذه المهمة البالغة الصعوبة فذلك توفيق من الله.

الدقي من يوم الجمعة غرة رمضان ١٤١٧هـ.

الموافق العاشر من يناير ١٩٩٧م.

خليل عبد الكريم.

[Blank Page]

المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد).

الصحاح الستة.

أولاً: المصادر

أصول الفقه

فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري، د. ت. ن. دار إحياء التراث العربي.

كتاب المستصفي في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، مصور من الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر المحمية، ١٣٢٩هـ/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

التاريخ

الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، مصر.

أخبار مكة، أبي الوليد الأزرقي، تحقيق رشدي صالح ط/ ٣ ــ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م دار الأندلس، بيروت.

الأصنام، هشام بن السائب الكلبي، ت. ٢٠٤هـ تحقيق محمد عبد القادر وآخرين، ١٩٩٣م مكتبة النهضة المصرية.

الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع الكلاعي (٥٦٨/ ٦٣٤هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد، جزءان ١٣٨٩م، مكتبة الخانجي، مصر.

الإمامة والسياسة المعروف **بتاريخ الخلفاء**، أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣هـ/ ٢٧٦هـ) جزءان في مجلد واحد الطبعة الأخيرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

إمتاع الأسماع بما للنبي من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، ج ١، تقي الدين المقريزي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤، تحقيق محمد النميسي ومراجعة محمد جميل غازي، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) نشرته دار الأنصار، مصر.

أنساب الأشراف، للبلاذري، تحقيق محمد عبد الله، طبعة أولى، دار المعارف، مصر.

تاريخ الأمم والملوك الطبري، طبعة دار المعارف بمصر.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) تحقيق محمد محي الدين جزءان، طبعة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، كتاب التحرير، دار الشعب، مصر.

المغازي، الواقدي، تحقيق مارسدن جونز، د. ت. ن، مؤسسة الأعلمي بيروت.

النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، لتقي الدين المقريزي، تحقيق حسين مؤنس ١٩٨٨م، دار المعارف، مصر.

التفسير

تفسير الطبري، دار المعارف، مصر.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين النيسابوري، تحقيق وتعليق حمزة النشرتي وآخرين د. ت. ن.

مفاتيح الغيب أو **التفسير الكبير**، فخر الدين الرازي، طبعة دار الغد العربي، مصر، ظهرت المجلدات تباعاً في أعوام متعاقبة.

دواوين السنّة

جمع الجوامع أو الجامع الكبير، السيوطي، من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، مصر.

سنن الأوزاعي، عبد الرحمن الأوزاعي، تحقيق مروان محمد الشعار، ط ١، ١٩٩٣م، دار النفائس، بيروت.

سنن البيهقي.

سنن الدارقطني.

فتح المبدئ شرح مختصر الزبيدي، تحقيق أحمد عمر هاشم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، دار الشعب مصر.

المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري.

المسند، أحمد بن حنبل.

مسند الربيع بن حبيب الأزدي البصري.

مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة، الهيثمي ط ١، توفيق عفيفي، القاهرة.

معجم الطبراني، الكبير والأوسط والصغير.

الموطأ، مالك بن أنس، د. ت. ن. طبعة كتاب الشعب بمصر.

السير والتواريخ

إمتاع الأسماع، ج ١ ط ١، المقريزي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م نشرته دار الأنصار بمصر.

جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد بن علي بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٥، ١٩٨٢م، دار المعارف، مصر.

الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر تحقيق مصطفى أديب البغا، ط ٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.

عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، د. ت. ن. دار المعرفة، بيروت.

السير والمناقب

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق عباس محمد البجاوي، ط ١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت.

أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري، طبعة دار الشعب.

إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، الشهير **بالسيرة الحلبية**، برهان الدين الحلبي، طبعة ١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، البابي الحلبي، مصر.

حلية الأولياء، لأبي النعيم الأصفهاني.

حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار الوعي، حلب.

الخصائص الكبرى، للسيوطي، تحقيق النشرتي، ١٩٩٦م، د. ت. ن. القاهرة.

الروض الآنف، على هامش السيرة النبوية، لابن هشام، لأبي القاسم الخثعمي السهيلي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، د. ت. ن. مؤسسة نبع الفكر العربي، مصر.

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المعروف **بالسيرة الشامية** لمحمد بن يوسف الصالحي (ت ١٤١٢هـ) الطبعة ١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الأوقاف مصر.

السيرة النبوية، لابن هشام، طبعات متعددة، ودور نشر مختلفة.

السيرة النبوية، إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، د. ت. ن. عيسى البابي الحلبي، مصر.

الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الواقدي.

العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي، أبو بكر العربي (٤٦٨هـ/ ٥٣٤هـ) تحقيق محيى الدين الخطيب (١٣٠٣هـ/ ١٣٨٩هـ)، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ المكتبة السلفية، مصر.

علوم الحديث

أسباب ورود الحديث أو اللمع في أسباب الحديث، السيوطي، تحقيق يحيى

إسماعيل، الطبعة ١٤٠٨١هـ/ ١٩٨٨م، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر.

الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، أبو بكر الهمذاني (٥٤٨هـ/ ٥٨٤هـ) تحقيق عبد المعطي أمين قلعة جي، ط ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م دار الوعي حلب.

الباعث الحثيث في شرح اختصار الحديث، ابن كثير، أحمد محمد شاكر، ط ٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار التراث، مصر.

البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، حمزة الدمشقي، تحقيق الحسيني هاشم، د. ت. ن، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة.

تدريب الراوي، السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة التراث، مصر.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محيى الدين الخطيب وآخرين، الطبعة الثانية، ١٣٨٠هـ/ ١٤٠٥هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

علوم القرآن

أسباب النزول، السيوطي، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، دار الشعب، مصر.

أسباب النزول، للواحدي النيسابوري، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي بمصر.

معاني القرآن، أبو زكريا الفراء.

الفقه

الأم، محمد بن إدريس الشافعي، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، دار الشعب، بمصر.

الأموال، أبو بكر بن محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٥ مكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الماوردي، ط ٣، ١٩٩٣هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة البابي الحلبي بمصر.

أحكام القرآن أبو بكر بن محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق محمد علي البجاوي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

أحكام القرآن، عماد الدين محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، (ت ٥٠٤هـ) الطبعة ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الخراج، ليحيى بن آدم القرشي (ت. ٢٠٣هـ) تصحيح وشرح أحمد شاكر (١٣٠٩هـ/ ١٣٧٩هـ) الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ المكتبة السلفية، مصر.

السماع، لابن القيرواني، ٤٤٨/ ٥٠٧هـ، تحقيق أبو الوفا المراغي، ط ١، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الأوقاف، مصر.

السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لتقي الدين أحمد بن تيمية، ط ٢، ١٣٩٩هـ، المكتبة السلفية بمصر.

الاستخراج لأحكام الخراج، أبو الفرج بن رجب الحنبلي، تصحيح عبد الله الصديق، ط ١١، ١٩٨٢م، دار الحداثة، بيروت.

السير الكبير، محمد بن حسن الشيباني، بشرح شمس الأئمة السرخسي، الجزء ١، تحقيق محمد أبي زهرة، تحقيق مصطفى زيد، الطبعة ١، ١٩٥٨، مطبعة جامعة القاهرة.

الشرح الكبير، شمس الدين المقدسي، على هامش المغني.

الفتاوى الكبرى، لابن تيمية الحراني، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م، دار الغد العربي، مصر.

المغني، ابن قدامة المقدسي، دار الغد العربي، بمصر، المجلدات ظهرت تباعاً في أعوام متعاقبة.

منهاج السنة النبوية، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني، مصور من الطبعة ١، المطبعة الأميرية، ببولاق، مصر المحمية، ١٣٢٢هـ/ دون ناشر.

موسوعة فقه إبراهيم النخعي، تجميع محمد رواس قلعة جي الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م دار النفائس/ بيروت.

موسوعة فقه سفيان الثوري، تجميع محمد رواس قلعة جي، الطبعة ١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠، دار النفائس/ بيروت.

موسوعة فقه عمر بن الخطاب، تجميع محمد رواس قلعة جي ط ١، ١٤٠١هـ، دار النفائس، بيروت.

كتب المفردات

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، الطبعة ١، ١٩٨٥هـ/ ١٩٨٥م، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر.

التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني المعروف بالسيد الشريف، طبعات مختلفة.

المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

متنوعة

تخريج الدلالات السمعية على ما كان من عهد الرسول (ص) من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية، أبو الحسن علي محمد الخزاعي التلمساني، ٧٨٩هـ/ تحقيق أحمد محمد أبو سلامة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، (٣٥٠هـ/ ٤٢٩هـ) تحقيق محمد أبو الفضل، طبعة ١٩٨٥ سلسلة ذخائر العرب، ٥٧، دار المعارف، مصر.

الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، شرح وتعليق علي متولي صلاح، ١٩٧٢، مكتبة الآداب، مصر.

هذا بخلاف عشرات المصادر التي نقلنا عنها طريق غير مباشرة.

ثانياً: المراجع

أبو يوسف، حياته وآراؤه الفقهية، محمود مطلوب، ط ١، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جامعة بغداد.

الإسرائيليات في التفسير والحديث، محمد حسين الذهبي، ط ٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مكتبة وهبة، مصر.

أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، الطبعة الأولى، ١٣٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الزهراء للإعلام، مصر.

حجية السنّة، لعبد الغني عبد الخالق، ط ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، نشر دار القرآن الكريم، واشنطن.

الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، دار سيناء، القاهرة.

ذو النورين عثمان بن عفان، محب الدين الخطيب، الطبعة ١، ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بمصر.

السنّة قبل التدوين، لمحمد عجاج الخطيب، الطبعة ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الفكر العربي بمصر.

ضحى الإسلام، ج ١، ط ٣، ١٩٣٨م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، ضياء الدين الريّس، ط ١، ١٩٦٢، العدد العاشر من سلسلة أعلام العرب، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة.

عبقرية خالد، عباس محمود العقاد، د. ت. ن دار الكتب الحديثة **(**توفيق عفيفي**)** شارع الجمهورية القاهرة.

عبقرية عمر، عباس محمود العقاد، د. ت. ن دار الهلال، القاهرة.

عثمان بن عفان، صادق إبراهيم عربسون، ط ١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، جماعة الأزهر الشريف للنشر والتأليف دار التوزيع والطباعة والنشر، القاهرة.

عثمان بن عفان، محمد حسين هيكل، الطبعة السادسة، دار المعارف، مصر.

العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب في العهدين المحمدي والخليفي، خليل عبد الكريم ١٩٩٦م دار سينا والانتشار العربي، القاهرة وبيروت.

علم الاجتماع الديني، زيدان عبد الباقي، د. ت. ن مكتبة غريب بمصر.

الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، دار المعارف بمصر.

قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، ط ١، ١٩٩٢، دار سينا، القاهرة.

كرامات الصحابة (رض)، سعيد هارون عاشور، ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، مكتبة الآداب، القاهرة.

مبادئ علم النفس العام، يوسف مراد، ط ٣، ١٩٥٧، دار المعارف، مصر.

مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة والراشدة، تجميع محمد عبد الله آل حيدر آبادي، د. ت. ن مكتبة الثقافة الدينية.

مذاهب التفسير الإسلامي، للمستشرق اجنتس جولدتسهير، ترجمة د. عبد الحليم النجار، الطبعة ١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، مكتبة الخانجي، مصر.

مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٨٥.

الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، فاطمة موسى، ط ١، د. ت. ن دار الغد العربي، مصر.

موقف الإسلام من العمل والعمال، خليل عبد الكريم، طبعة أولى، ١٩٨٧م.

النظام المالي في الإسلام، عبد الخالق النواوي، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، المكتبة العصرية، بيروت.

نظام العرب قبل الإسلام، محمد سلامة زناتي، الطبعة ١، ١٩٦٢، د. ت. ن.

نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز رفاعة رافع الطهطاوي، مكتبة الآداب مصر.

ثالثاً: المعاجم والقواميس

أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري، جزءان، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق عبد الله أحمد فراج، جك ١، سلسلة التراث العربي، ١٦، ط ٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، وزارة الإعلام، الكويت.

شرح الفصيح في اللغة، أبو منصور بن السيان، دراسة وتحقيق عبد الجبار القزاز، سلسلة خزانة الكتب الطبعة ١، ١٩٩١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

القاموس المحيط الفيروزآبادي، أربعة أجزاء، ١٣٩٧/ ١٩٧٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

قاموس النهضة، إسماعيل مظهر، ط ١، ١٩٤٥م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لغة إنكليزية.

قاموس وبستر العالمي الجديد، ط ثانية، لغة إنكليزية.

المختار من صحاح اللغة، محمد محيى الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف، ط ٢، د. ت. ن، المكتبة التجارية، مصر.

مختصر العين، ج ١، أبو بكر الزبيدي الإشبيلي، تحقيق وتقديم صلاح نهدي الفرطوسي، ط ١، ١٩٩١م، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

المعجم الاقتصادي الإسلامي، أحمد الشرباصي، طبعة أولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الجيل، لبنان.

معجم ألفاظ القرآن الكريم، جزءان، مجمع اللغة العربية، سلسلة التراث للجميع، الطبعة ٣، ١٩٧٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، طبعة أولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣.

المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية، الأجزاء ٢، ٣، الطبعة دار الكتب، مصر.

المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم بمصر.

المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، جزءان، طبعة ثالثة.

الممدد والمقصور، أبو الطيب الوشاء، تحقيق رمضان عبد التواب، سلسلة روائع التراث العربي، ط ١ مكتبة الخانجي، مصر.

نظام الغريب في اللغة، عيسى بن إبراهيم الربعي الوحيظي الحميري، تحقيق محمد علي الأكوع العوالي، الطبعة ١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار المأمون، بيروت.